العدد
452
كانون الأول
2008

مجلة أدبية شهرية تصدر
عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

للنشر في المجلة

- ترسل الموضوعات مطبوعة. أو بخط واضح وعلى وجه واحد من الورقة. ولا تقبل إلا النسخة الأصلية.
- يراعى في الشعر أن تكون القصائد مشكولة في المواضع الضرورية. مع مراعاة علامات الترقيم.
- يجب ألا تكون المادة منشورة من قَبل. حيث ستمتنع المجلة عن التعامل مع أيّ كاتب يثبت أنه أرسل للمجلة مادة منشورة في أيّة مطبوعة.
- يراعى في الدراسات قواعد المنهج العلمي من حيث التوثيق وذكر المراجع والمصادر حسب الأصول.
- هيئة التحرير هي الجهة المحكّمة والمخوّلة بالموافقة على النشر أو الاعتذار دون ذكر الأسباب.
- يرسل الكاتب اسمه الثلاثي واسم الشهرة الذي يُعرف به (إن كان له اسم شهرة) وعنوانه البريدي، ونبذة عن سيرته الذاتية، وصورة شخصية (للمرة الأولى فقط).
- لا تعاد النصوص لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- المواد جميعاً.. يفضل أن تكون مرفقة بالصورة المناسبة والضرورية لها.

الآراء الواردة في المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات

باسم رئيس التحرير. اتحاد الكتاب العرب دمشق. المزة أوتستراد
ص.ب: 3230
هاتف: 6117240. 6117242. 6117243. فاكس: 6117244
البريد الإلكتروني: E-mail unecriv@net.sy//aru@net.sy
موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت:
www.awu-dam.org

للاشتراك في المجلة

داخل القطر	أفراد	1000
	مؤسسات	1200
الوطن العربي	أفراد	3000
	مؤسسات	4000
خارج الوطن العربي	أفراد	6000
	مؤسسات	7000
أعضاء اتحاد الكتاب العرب		500

محتـــوى الموقـــف الأدبـــي

الـعدد 452 كانون الأول

لدمشق التي في القلب!..

فادية غيبور

لدمشق وهي تمرّ من بوابات الصباح إلى صباحٍ من عبير.. نصفه البهيّ في قاسيون ونصفه الأبهى يسافر مع هديل اليمام بين مآذن الجوامع وأبراج الكنائس.. ويستريح على وجوه العاشقين المتعبين الطيبين.. بينما يندلع الياسمين معبأ برسائل العبير بين البيوت والأزقة الضيقة عبقاً مسكراً يتغلغل في النفوس بهدوء ساحر منذ ساعات الصباح الباكر حتى أواخر الليل.. تاركاً على شفاه القلوب أطياف طمأنينة ورضى مثقلة بالأسرار مثلما دمشق.

ودمشق تنهض مع أذان الفجر لتفتح أبوابها السبعة لعشاقها المدمنين قراءة التواريخ وأطياف الفاتحين بدءاً من باب توما والباب الشرقي إلى باب الجابية والجامع الأموي وما عرَّش فوق أقواس الأبواب من غار وريحان.. وهناك تقف مليّاً لتقرأ صفحات الأسفار التي أعلنتها أقدم مدينة مأهولة في التاريخ؛ ثم تنطلق لتغزل أعلام أعيادها من عرق الكادحين مخضباً بشقائق النعمان الطالعة من دماء الشهداء في معارك التحرير والانتصارات ماضياً وحاضراً..

إنه باب توما.. تتسلق أقدامنا الدرج الحجري القديم.. أتقرى الأبواب.. أعرف هذا الباب؛ ذا عمر قديمٍ كان باب صديقتي راغدة.. أتراها باقية هنا أم أنها كغيرها اتجهت نحو البيوت الإسمنتية في الأحياء الجديدة.. تاركة شجرة الكباد وعرائش الياسمين تسأل عنها؟!..

نتوغل في الأزقة الضيقة .. أبحث عن باب مدرسة كانت هنا.. مدرسة علمت فيها قبل أربعين عاماً.. ها هي ذي.. لا ليست هي.. إنه المكان عينه.. لكنني أراه تحول مطعماً.. وغاب "ابن الرومي" الذي كانت تحمل اسمه وراء إغواء الزجاج الجديد الأنيق..

أين هو المسبك البرانيّ؟!.... أين غرفتي أطلّ من نافذتها على حياة العابرين ليل الأزقة القديمة.. أين جارتي أم عبد الله تغريني برائحة قهوتها وهي تطرق باب الصباح في السادسة: فادية... القهوة جاهزة.. وتتسلل الرائحة إلى غرفتي الصغيرة... فلا أستطيع مقاومة

الإغراء..وأنهض . نرتشف معاً قهوتنا ممزوجة بعبق الهيل والياسمين بينما ينهمر رذاذ النوافير ناعماً شفيفاً على أحواض الورد..

يا لدمشق.. يا لهذه المدينة البهية الموغلة في الروح حسناً وتاريخاً متصل الصفحات.. أنّى لها هذا الألق المتجدد؟ كيف استطاعت أن تكون على مدى العصور سيدة المدائن وحاملة الأمجاد والتواريخ؟.. كيف توغلت في دمائنا مذ وطئت أقدامنا ترابها أول مرّة؛ كنا يافعين وكان صدى صوت فيروز يتردد في فضاءات في معرضها البهي أواخر الستينيات مترنماً بأجمل ما قاله الشاعر الكبير سعيد عقل:

هنا التّراباتُ مِن طِيبٍ و مِن طَرَبٍ   وَأينَ في غَيرِ شامٍ يُطرَبُ الحَجَرُ؟

شَآمُ يا ابنةَ ماضٍ حاضِرٍ أبداً   كأنّكِ السَّيفُ مجدَ القولِ يَخْتَصِرُ

حَمَلتِ دُنيا على كفَّيكِ فالتَفَتَتْ   إليكِ دُنيا ، وأغضَى دُونَك القَدَرُ

يا لدمشق!..وهي تكتب تفاصيل حيواتنا وتشهد ولادة نبضاتنا الأولى تندلع من أعماق صدورنا توقاً إلى الحياة بكل ما تحتويه من تفاصيل العمل والدراسة والحب والشعر والانعتاق حتى حدود الجنون الجميل.

اين تلك الوجوه الصديقة تشاركنا فرحة اكتشاف كلماتنا الأولى؛ وتلقانا بالترحيب على باب الجامعة " كلية الحقوق حالياً" فنمضي لارتشاف القهوة في الندوة القديمة ثم نحث الخطا إلى قاعات المحاضرات حيث الأساتذة الكبار الذين فتحوا أمام أعيننا عوالم مذهلة من المعرفة.. هل أذكر بعضهم؟!.. لا بدّ من هذا...فهم أساتذة فاضلون حقاً "مازن مبارك؛ حسام الخطيب؛ محمود ربداوي؛ رضوان الداية؛ أطال الله أعمارهم.. ومنحهم الصحة ليكملوا أداء الرسالة التي أخلصوا لها عمرهم..

هكذا عرفت دمشق واكتشفتها من خلال العمل والجامعة وحضور الأمسيات الشعرية والمحاضرات والعروض المسرحية والسينمائية المهمة.. حياة مليئة مكتظة بالحياة!..

لا يمكنني أن أنسى أنّ اتخاذي قرار العودة إلى بلدتي الصغيرة كان بعد سماعي

محاضرة بعنوان" الناظرون إلى النجوم" للأديب الكبير حنا مينة حول حياة الشاعر ناظم حكمت؛ وحين فعلت كنت أعرف أني أترك في دمشق نصف عمري ونصف أحلامي الممكنة والمستحيلة..غادرتها جسداً لكنني ما غبت عنها روحاً وتواصلاً من خلال قراءة الصحف والكتب الأدبية فور صدورها.. وما غابت من ذاكرة قلبي أبوابها وشوارعها وحاراتها القديمة تنام وتستيقظ على المحبة وعبير الياسمين يضوع ممتزجاً برنيم المياه في نوافير بحرات البيوت القديمة وصدق ابن دمشق وشاعرها نزار قباني حين قال:

هل دمشق كما يقولونَ كانَتْ حين في الليل فكّر الياسمين؟!

عرفت دمشق واكتشفتها كلّ يوم أكثر لأنني وبعض الصديقات والأصدقاء كنا نمشي أكثر من مرةٍ في الأسبوع من الجامعة حتى باب توما.. نعم حتى باب توما..

تغيّرنا وتغيرت الأشياء كلّها؛ وحده الياسمين لم يتغير. وحدها دمشق لم تخلع أردية الحسن والجمال..يا للعمر كيف يمضي!..

لماذا أستعيد ذكريات زمن موغل في القلب حدّ التماهي مع نبض الدماء في الشرايين؟!..

لماذا أحاول استعادة عمر قديم كان قادراً على احتمال ألف حلم وحلم.. وكان مهيأً لاستيعاب جميع أطياف الجنون المبدع وألوانه؟!..

كيف لا أفعل وأنا في دمشق.. أتأمل من نوافذ الليل امتدادها بين روحي والأفق البعيد؛ أخرج من جسدي مع طائرة تقلع وأعود إليه مع طائرة تؤوب.. وأعدّ الطائرات..

كيف لا أفعل ودمشق لمّا تزل سيدة المواقف القومية والوطنية.. دمشق لمّا تزل دارة العرب.. كل العرب.. دمشق لمّا تزل وتبقى قلب العروبة النابض..

يا لدمشق.. تخرج من صفحة أمجاد لتكتب صفحات أخرى.. وتوغل في أعماق النفوس كنبض الحياة الدافق المستمر... لسرّ أزليّ خصها الله به دون غيرها من المدن، فكانت جنة الأرض كما وصفها ياقوت الحموي: "هي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارتها ونضارة بقعتها وكثرة فاكهتها ونزاهة رقعتها وغزارة مياهها"..

ولا عجب فيما يقول هذا المؤرخ العربي أو ذاك؛ لكن العجيب المدهش أنّ "لامارتين" شاعر البحيرة الفرنسي زارها في أثناء ترحله في الشرق وهو القائل: "اقتربت؛ فنفذ بصري إلى أفخم وأغرب أفق أدهش ذات يوم عيني إنسان، تلك كانت دمشق وباديتها التي لا حدود لها،

كانت قباب مساجدها وقصورها الكثيرة تعكس أشعة الشمس الغاربة وكأن مياه أنهارها السبعة تغيب حيناً وتبرق زرقاء لامعة بين الدروب والبساتين"..

يا لدمشق!.. تعيدني إلى وله الصبا وتعيد إليّ إشراقة عمر كان فإذا بي طفلة تتفيأ ظلال الحور والصفصاف وتركض في واديها الأخضر مرددة مع الأخطل الصغير:

قالوا: تحب الشام؟ قلت: جوانحي مقصوصة فيها وقلت: فؤادي

يا لدمشق التي في القلب!...

❑❑

الدراسات

دمشق
في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي

د. رياض عبد الحميد مراد

1 ـ تمهيد

اجتمع في دمشق في هذا القرن ما يزيد على مئة شاعر، هم لبنة هذا البحث الأدبي ولحمته وسداه، وهي كمية ليست بالقليلة، مما يثير في النفس أسئلة كثيرة، لعل أهمّها كيف تسنّى لمدينة واحدة أن تلد هذا العدد الكبير من الشعراء في قرن واحد.

والجواب أن الشعر كان يومئذ الوسيلة الوحيدة للتعبير، حين كان الجهل هو المسيطر، فلا صحافة، ولا إذاعة، ولا إعلام، ولم يكن عند الشاعر يومئذ وسيلة يعبّر بها عن عواطفه إلا الشعر، حتى ولو كان باللغة العامية الدارجة فامتلأت المكتبة العربية بدواوين كثيرة، وبشعر منتثر في كتب الأدب والتاريخ والتراجم وكان من السهل على الباحث بعد ذلك، وقد توافرت لديه المادة الشعرية أن يجمع صورة متتامة لدمشق في هذا القرن.

2 ـ الإطار التاريخي

أحاط بدمشق قرنئذ إطاران من التاريخ الأول عالمي والثاني محلي.

فإذا نظرنا إلى الأحداث العالمية يومئذ وجدنا أربعة أحداث عصفت بالعالم منها التقلص العثماني عن أوروبا وإيران، والثورة الفرنسية وحملة نابليون على مصر، والحروب الأوروبية.

وكان أشد هذه الأحداث تأثيراً على دمشق التقلص العثماني عن أوربة وإيران وحملة نابليون، فقد أضعف هذان الحادثان من سلطة الدولة العثمانية على حكام الأقاليم وقلت هيبتها، مما جعلهم يتصرفون باستقلالية وحرية وكأنها غير موجودة، وكأنهم لا مرجع لهم.

3 ـ الطبقات الاجتماعية

تركت السياسة العالمية بصماتها على دمشق والمجتمع الدمشقي بعاداته وعمرانه، فقد وجدنا في دمشق قرنئذ عدة طبقات وهي: المتنَفّذون، والموالون لهم، والمعارضون، وعامة الشعب.

أما الولاة فقد حكم دمشق في هذا القرن خمسة وخمسون والياً، اشتهر بعضهم بالظلم والعسف والجبروت مثل أحمد باشا الجزار وعثمان باشا أبو طوق ورأت دمشق في زمنهما مظالم هائلة وصفها أحد الشعراء

فقال:

ما حلتَ يا حولُ حتى نلت فيك
قصدي وأشفيت قلباً كان محزونا
فتلَت في ذلك الجزار ثمَّ وقد
ألحقت فيه رجيماً كان ملعونا

وشاعر آخر ولكنه عامي قال في ظلم الوالي عثمان باشا:

لمّا حَكَمْ في الشام عثمانْ
وقَدْ تعمَّدْ بغي النّاسْ
البغي آخرته خسرانْ
يهدّ مكنُهْ كلّ أساسْ

أما الولاة العادلون فقد اشتهر منهم محمد باشا وعبد الله الجته جي. وقال فيه سبط عمر بن الخطاب:

وزيرٌ لقد سارت بأفياء عدله الـ
ـرعايا وكم قَرَّتْ بعلياه أعينا
محمد من شمس الوزارة ساطع
بطلعته الغرّاء للسعد ديدنا

وكان الموالون للولاة القضاة والمفتون والعسكر. وكانت هذه الطبقة صلة الوصل بين الناس والدولة، والجسر الواصل بين الولاة وعامة الشعب فهم بين طبقتين، ولذلك نجدهم مع الوالي والشعب في آن واحد، لأنَّ وظيفتهم تتطلّب منهم أين يكونوا مساندين للبشوات وقلوبهم مع عامة الناس، بل إنهم كانوا أحياناً اليد التي يدافع بها الشعب عن نفسه، كما حدث حينما استطاع محمد خليل المرادي مفتي دمشق أن يتدخل لدى الدولة العثمانية لعزل أحمد باشا الجزار.

والمعارضون هم المناوئون والعصاة، وكانوا لا يتوانون عن بث الشائعات ووضع العراقيل في وجه هؤلاء الولاة. وكان الصراع يحتدم حيناً بينهم ويبرد حيناً آخر.

وأما عامة الشعب فهم الفلاحون البسطاء والعاملون الذين يكدحون طوال النهار ليؤمنوا قوت يومهم، هؤلاء هم الذين لم يكن يُسْمَع لهم صوت، ولا نعرف عنهم إلا القليل. مع أنهم كانوا يمثلون أغلبية المجتمع، ويضاف إلى هؤلاء بقية أفراد المجتمع من خباز ولحام وحداد ونحار، ولكنّ هذه الكثرة لم تكن لتغني عنهم شيئاً، ولا لتدفع عنهم ظلم الولاة، وتطاحن فئات العسكر، بل كانوا هم الذين يدفعون الثمن من دمائهم تارة، ومن أموالهم تارة أخرى ومن ممتلكاتهم ثالثة.

ولهؤلاء ألف حلاّق من هذه الطبقة، نبغ في حدود إمكاناته، وأحار في مستوى ثقافته، فكتب تاريخاً لدمشق على شكل يوميات لم تتجاوز الأحد عشر عاماً سماه (حوادث دمشق اليومية) فكان هذا الكتاب صورة بسيطة لكنها صادقة لدمشق في تلك الفترة ولئن لغته عامية أو قريبة من العامية إلا أنها كانت تنطق بالواقعية والتي تدل على نبوغ

صاحبها وإجادته حتى أصبح مصدر كل دراسة عن هذا القرن.

4 ـ العادات الاجتماعية

وبعد أن تحدثنا عن مجتمع دمشق نتحدث عن عادات هذا المجتمع، وبادئ ذي بدء نقسمها إلى قسمين: عادات في الدين، وأخرى في التسلية.

والعادات المتبقية في الدين: الاستسقاء والتعوذ، وتعظيم القبور، والتصوف والمولد النبوي الشريف، والمحمل الشريف، والنشيدة.

وأسارع فأقول عن عادات الدين: إنها ليست جميعها بمستوى واحد من اهتمام الناس وأن تعليقي على هذه العادات لا يعني رفضاً لها أو إيماناً بها وإنما أصف الواقع فحسب وأني قصرت حديثي على ما ورد منها في الشعر ولم أتعده.

منها الاستسقاء الذي قال فيه النابلسي:

خرجوا ليستسقوا الغداة فأُمْطِروا
سُحُبَ الجرائم من سما الحُكّام

ويلاحظ أن الشاعر استغلّ الاستسقاء ليصور لنا ظلم الحكام كالمطر الذي هطل عليهم بعد الاستسقاء.

ومنها التعوّذ والتحصين. قال إبراهيم السفرجلاني محصناً بالسبع المثاني:

فلا زِلت بالسبع المثاني
وحسبك حصنٌ ليس يمكنُ

وقال في التعوذ:

بُنَيَّ أبا العباس حُطُّكَ بالذي
أحاط بمكنون الضمائر علمُهُ
وعوّذت ذاتاً منك رقَّت صفاتُها
فؤادي وطرفي باسمه قُدِّس

ومنها تعظيم القبور: قال السفرجلاني يتبرّك بضريح السيدة زينب:

يا صاحِ إنْ وافيتَ حضرةَ زينبٍ
وبدا لعينيكَ الضريحُ الأنورُ
مَرِّغْ خُدودك في ترى أعتابها
فمن العبير يُعَدُّ ذاك العنبرُ

ومنها التصوف: وله في هذا القرن دور كبير وأتباع كثيرون، ويكفي أن نذكر الشيخ عبد الغني النابلسي،وكتبه في التصوف، ودواوينه، كما يكفي أن نذكر أيضاً تلامذته في تصوفه، وهم كثيرون في هذا القرن ومنهم مصطفى البكر الصدّيقي، ومحمد الدكدكجي.

ويبدو أنه كان لهم احترام كبير في قلوب الناس، فإن البديري الحلاق كان يفتخر بأنه حلاق الشيخ النابلسي، بل إن كل إنسان يومئذ له طريقة صوفية ينتسب إليها؛ فالشيخ محمد خليل المرادي نقشبنذي، وإبراهيم السفرجلاني شاذلي، وهو الذي يقول:

أويكفي للشاذلية سيف
سرُّهُ في غراره مكتومُ

رسمت شكله الخواطر حتى

قام في الذهن شَكْلُهُ المرسومُ

والمولوية كانت منتشرة آنئذ برقصاتها المشهورة التي تأخذ بمجامع القلوب، فتراهم بملابسهم التقليدية ويلبسون الطرابيش الطويلة ذات اللون الحمر، والتنانير الفضفاضة لتساعدهم على الدوران، ثم تراهم يدورون حول أنفسهم دوراناً عجيباً رائعاً يشدّ الأنظار، ويرافقهم المنشدون بأصوات عذبة، ودفوف صادحة وصبخات رنانة.

أما المولد النبوي الشريف فقد نقل لنا النابلسي والمرادي صورة واحدة عن المولد الشريف. قالا: "بعد صلاة العشاء اجتمع الناس في المسجد الأقصى ـ وعند المرادي: مسجد المرادية ـ ليحتفلوا بالمولد النبوي الشريف، وحضر هذا الاحتفال حاكم دمشق وقاضيها، وأعيانها، وعلماؤها، وأفاضلها، وأئمة المحارب والمنابر، والعوام والخواص، من الرجال والنساء والأطفال.

5 ـ العيوب الاجتماعية

ولم يَخْلُ هذا المجتمع الدمشقي من العيوب الاجتماعية، ومنها ما كان يخص القرن ذاته كالتكايا والتدخين. ومنها ما كان يعمّ كل زمان مثل العشاء الأخلاقي والاجتماعي والجريمة.

فالتكايا نظام أحدثه العثمانيون لمساعدة الغرباء المنقطعين عن بلادهم أو الفقراء الذين لا يجدون ما يقيم أودهم، أو طلاب العلم الذين لا معيل لهم، فلهؤلاء أوجد نظام التكايا وهو نظام إنساني له غاية نبيلة كما يبدو، ولكن أسيء تطبيقه، فصار مظهراً من مظاهر الاتكالية في المجتمع، وأصبح يخدم غير المستحقين: فنشأت طبقة عاطلة عن العمل يعتمدون على التكية في معاشهم فغدت هذه الطبقة مهمشة لا عمل لها ولا غاية، وهي التي عناها حسين القصيفي في قوله:

يا نزولاً بالتكية

أنتم شرّ البليّة

كل من رام حماكم

حلّ في أقوى رزية

وعند البديري حديث عن هذه التكايا يذكر فيه اهتمام ولاة دمشق بها وما أَجْرَوْه عليها من شوربة وزيت وحلويات.

وثمة عيوب في هذا القرن تعم كل زمان ومكان ومنها:

1 ـ **الفساد الأخلاقي:** ومنه الخلاعة التي فسروها بحب الحسان. قال أحمد البهشي ناصحاً بترك الخلاعة:

دع الخلاعة في حبٍّ ودم

أسير علم وأمعن في مطالعته

فأجابه أخوه عبد الرزاق

إن الخلاعة في حب الحسان

وما على العاشق الولهان من

2 ـ التغزل بالغلمان: قال النابلسي هاجياً:

حسبُ من جاوز الحدود فأضحى

في فعال اللواط كالكلب الخسي

أن يبيع الغلام ديناً ودنيا

فيهما فوزه الغداة بفلسِ

3 ـ فساد النساء: منه صور كثيرة منثورة في كتاب "حوادث دمشق اليومية" للبديري، وكتاب "حيل النساء" الذي يعدد فيه أصناف النساء المتبذلات، ووجوه حيلهن: فمنهن السكرانة، والحيرانة، والشاطرة، والسافرة، والمغنية، والمظلومة.

4 ـ الجريمة: وقع في هذا القرن أربعون حادثة بين سرقة وانتحار وقتل، هذه الجرائم إذا وُزعت على أعوام القرن بلغت نسبة الجريمة في كل عام أربع حوادث وهي نسبة قليلة إذا قيست بحوادث اليوم، ففي تقرير الأمن العام الذي صدر عام 1971 عن وزارة الداخلية السورية أن عدد الحوادث بلغت في مدينة دمشق حوالي (94) جناية، يوم كان عدد سكان دمشق حوالي 636 ألف نسمة، بينما كان عددهم في القرن الثامن حوالي 160 ألف نسمة كما ذكر صاحب سمير الليالي، بمعنى أنهم ازدادوا أربعة أضعاف بينما ازداد عدد الجرائم حوالي ثلاثين ضعفاً.

وهذا يعني أن المجتمع الدمشقي [كان] يومئذ يعيش في طمأنينة وأفق وسلام.

ولكن شاعراً من ذلك القرن اسمه صادق محمد الخراط ترك قصيدة يتحدث فيها عن دمشق، وكانت القناديل والشموع الكثيرة قد أوقدت حتى أصبح يسبح في بركة من الأنوار المتلألئة ونصب قبالة المحراب كرسي صعد عليه رئيس الموالدية، وابتدأ بقراءة آيات من القرآن الكريم. ثم شُرع بالمولد الشريف، وحوله جماعة المؤذنين يترنمون بالصوت ويرددون وراءه بعض المقاطع.

وبعد أن انتُهي من قراءة المولد وُزّع على الحاضرين أنواع السكر والنّقل وطيب الرياحين وسقوهم ماء ممزوجاً بالورد، وعطّروا الجو بمباخر العود".

قال النابلسي في المولد:

وبه حضرنا ليلة مشهودة

هي للقلوب منيرة والأنفس

ولد النبي المصطفى فيها

طابت بأصلٍ في الفخار

وأما موكب المحمل الشريف فكان يتألف من ثلاثة أقسام وهي: الزيت النبوي والسنجق الشريف، والشمع النبوي، تتجمع خلال ثلاثة أيام في سوق الدرويشية تجاه دائرة المشيرية.

فأما الزيت النبوي فمصدره قرية كفر

سوسة قرب دمشق، ويرسل إلى الحرم النبوي ليضاء به الحرم الشريف. وكذلك فإن الشمع النبوي يسكب في دمشق ويرسل مع المحمل الشريف وكذلك فإن السنجق الشريف يخرج من قلعة دمشق إلى المدينة فيوضع تجاه القبر النبوي الشريف.

والنشيدة احتفال يقام لكل من يختم القرآن الكريم من الصغار، حيث يجتمع رفاق المحتفى به في المكتب، ويلبسون أحسن الثياب، ويصطفّون مثنى مثنى، أما الطفل فإنه يلبس الأثواب المقصّبة والمزركشة، ويتزين بأصداف الحلي. ويسير هؤلاء الأطفال في مدينة دمشق وهم ينشدون أناشيد الكتاتيب التي تعلموها، ولا يتركون سوقاً ولا حارة ولا شارعاً إلا ويجوبون.

وأمام هذه الموكب رجل يُسمّى (مجري)، يلبس ثوباً أحمر ويحمل بيده مجمرة فيها أنواع العود والبخور، وهو يصيح بأعلى صوته بين الحين والآخر: "سعيد من يصلّي على النبي، وقلب العامر يصلّي على النبي"

فإذا حاموا البلد عادوا إلى بيت المحتفى به، حيث يجدون الطعام مهيئاً لهم بأنواع المأكولات والمشروبات والحلويات، وبعدئذ توزع عليهم الدراهم وعلب الحلوى.

وأما عادات التسلية فهي في الدخان والقهوة. قال النابلسي في شرب الدخان:

شربُ الدخانِ فساد وقد عمَّ
فالشاربون له قسمينِ
إياك أن ترتاب فيه مشككا
فالحِلّ فيه أقرب الحكمينِ

وقال آخر في القهوة:

وقهوة لا غمَّ يبقى إذا
قابلك الساقي بفنجانِها
بمائها نقتل أحزاننا
ونحرق الهمَّ بنيرانِها

معدداً فيها عيوباً رآها في أهل دمشق فقال:

إن أيامنا الطوال العراضا
أوقعتنا لسهمها أغراضا
واصطبر للزمان إن جار يوماً
فعسى أن ترى بذاك اعتياضا
واحذرٍ أن تصفي من الناس
وابد عن سوء فعلهم إغماضا
وكذا البغض والشقاق احتسابا
قد غدا عادة لهم وافتراضا
واصطناع المعروف أمر شنيع
شاع هذا ما بينهم واستقاضا
لا يرون الحرام قبحاً لهذا
يستبيحون في الورى الأعراضا

والذي يخشى الإله ثقيل
ثم من قوله يرون انقباضا
والثقات الذين بالشرع قاموا
والتقيّ يجعلونهم أرفاضا
والذي دأبه التلفظ بالكف
ر يسمّون كفره إحماضا
والسفيه الوضيع ذاك عزيز
عندهم والعزيز يلقى انخفاضا
هذه حالة عليها استقاموا
ثم راضوا بها النفوس ارتياضا
فاعتزلهم وفُزْ بدينك واصبر
لأذاهم ووالهم إعراضا
وكِلِ الأمر بالإله دواماً
فهو مازال كافياً فيّاضا

وهذه العيوب التي يعددها الخراط لا تخصّ دمشق وحدها، ولا القرن الثامن عشر وحده بل هي تعمّ كل زمان ومكان.

6 ـ العمران

شهدت دمشق في هذا القرن حركة عمرانية كبيرة شملت المساجد والمدارس والقلاع والقصور، فمن المساجد التي بنيت في هذا القرن مسجد عبد الغني النابلسي الذي بناه حفيده مصطفى مكان داره في الصالحية.

ولم يقف الاهتمام بالمساجد عند حَدّ البناء، فقط بل تعدّاه إلى ترميم ما يحتاج منه إلى ذلك:

أ ـ فقد أمر أسعد باشا العظم بترميم جامع يلبغا وإصلاحه، وعمل له وقفاً وجرايات.

ب ـ كما أمر بإصلاح جامع السياغوشية، وكان وقع منه جدار.

ج ـ أما الجامع الأموي فقد رمم عدة ترميمات ذكرها البديري في أكثر من موضع في كتابه، وفي ذلك يقول أحمد الكيواني:

نحسن نظارة الفتح
رجاء الجامع الأموي راجا
وذلك إذ خلت منه وألف
وست ثم خمسون اندراجا
برمته وخدمته ثواب
وقلّ له وإن سقفوه عاجا

ويقول سبط عمر بن الخطاب في هذا الترميم:

سرى زاكي الصبا سحراً فأهدى
إلى الأرواح أنفاساً وندا

وفي سنة 1156 عمَّر الوالي سليمان باشا العظم نهر القنوات وترميمه على نفقته الخاصة، وفي ذلك يقول عبد الرحمن البهلول:

جزى المولى أمير الشام خيراً

سليمان الزمان ودام دهرا

بما قد جدّد القنوات صدقاً

بإخلاص بكا سراً وجهراً

وفي سنة 1167 بنى أسعد باشا العظم قناة للماء قرب حارة بني السفرجلاني فأرخ سليمان المحاسني هذه الحادثة بقوله:

بعون الله قد أنشا سقاء

أمير الحاج أسعدُهُ النصيرُ

وأجرى عن يديه زلالَ ماء

بتوفيق حباه به القديرُ

وفي القلاع لم يصل إلينا من أخبار عمارتها غير نص شعري لسليمان المحاسني يدلّ على أن أسعد باشا العظم بنى سنة 1168 قلعة المدائن للحُجاج في طريق الركب الشامي كي يستريحوا بها، ويمتاروا منها ما يحتاجون في سفرهم. قال المحاسني:

مذتمّ حصن قد بناه على العلا

في حسن توفيق يطول

حادي البشارة قد أتانا معلناً

في بيت تاريخ يضوع شذاه

حصن المدائن قد بناه أسعد

في أمر محمود أطيل بقاه

وأما القصور فقد بنى عدة قصور في ذلك القرن منها قصر ابن الريس في قرية الريحانية وقصر العمري بني سنة 1161، وأشهر تلك القصور قصر العظم الذي بناه أسعد باشا العظم سنة 1160 وأتمه سنة 1163. وقال الشاعر، وهو مما كتب على جدران القصر:

قصر الوزارة منزل السعداء

حلّت به البشرى بطول بقاءِ

لله منك مقرّ عز شيدت

أركانه بالعز والنعماءِ

وغدت به ورق السيادة والعلا

تشدو بطيب ترنم وغناءِ

وأما المدارس التي أنشئت في هذا القرن فهي: - المدارس الفتحية التي أنشأها فتحي الدفترى الفلاقنسي سنة 1156هـ بمحلة القميرية.

والمدارس المرادية التي أنشأها مراد بك علي النقشبندي في باب البريد ثم أوقفها سنة 1150هـ.

ومدرسة عبد الله باشا العظم أنشأها سنة 1123 في سوق الخياطين وجدّد بناءها ابنه أسعد باشا العظم سنة 1162.

ومن الحمامات: حمام قصر العظم بني مع القصر سنة 1163، وحمام فتحي بناه فتحي الدفتر دار الفلاقنسي في حي الميدان، وحمام الخراب في آخر سوق مدحت باشا،

كتب على بابه:

شامنا زادت سروراً وابتهاجاً بالمنى

فأتى التاريخ معيشاً بعد هذا للبنا

عمر إسماعيل باشا فيه حمام المنى

7 ـ الاقتصاد

وبعد أن تحدثنا عن مجتمع دمشق سنتحدث عن الاقتصاد في دمشق في ذلك القرن ومصادرنا في هذا الفصل أفكار من هنا وهناك في كتب القرن، ومن رسائل اقتصادية ألفها النابلسي تتناول جوانب من اقتصاد هذا القرن، وهي:

1 ـ علم الملاحة في علم الفلاحة.

2 ـ ورسالة في جواب سؤال ورد من القدس الشريف فيما يؤخذ من أهل الكفر من العوائد من الشمع والسكر والجوخ وغيره.

3 ـ رسالة تتعلق في بيان حكم التسعير.

4 ـ إشراق المعالم في أحكام المظالم.

5 ـ تطييب النفوس في حكم المقادم والروس.

6 ـ احترام الخبز.

من هذه الرسائل أمكنني أن أرسم صورة لاقتصاد دمشق في تلك الفترة بما فيه من تجارة وزراعة وصناعة.

أولاً: التجارة:

انحصرت التجارة الخارجية في ذلك القرن مع الفرنسيين ولكنها أخذت بالتقلص بسبب الثورات والاضطرابات الداخلية، مما جعل الفرنسيين ينقلون تجارتهم إلى صيدا.

وذكر البديري أن الحاجَّ الحلبي، والحاجّ الشامي، والحاجَّ العراقي، وحجاج العجم يجتمع في دمشق ثم ينطلق في موكب واحد إلى المزيريب، وأنهم يحضرون معهم أموالاً ذهبية ولؤلؤ أو أحجاراً كريمة ومعادن يبيعونها ويشترون غيرها، فيعمّ بين الناس البيع والشراء.

أما التجارة الداخلية فلم تكن تزيد عما يحمله الفلاحون من ضواحي دمشق إلى المدينة فيبيعون ويشترون، وقد سيطر الكساد على التجارة بنوعيها، وذلك بسبب الفقر والغلاء من جهة، واحتكار الولاة لأقوات الناس وتلاعبهم بالعملة من جهة أخرى، ويكفي أن نذكر بعض ما قاله الشعراء في هذا:

قال النابلسي:

وما جلّق في الشام والشام في ـأرض سوى إنسان عين

غلت بها الأسعار حتى علت وضوعفت أثمانها في الملا

وقد فشا القحط مدى أشهر

وطال حتى قيل لن يرحلا

وليحيي بن الملاح أرجوزة كاملة أسماها "قرة العين في فرح الزين" وصف فيها عرس زين الدين البكري مدح فيها بيت البكري وطلب في آخرها ثمناً لقصيدته، ولم يكن الثمن غير قطعة قماش، فقال:

أرجو منك جوخة سنيَّهْ

تفضّلاً يا أعظم البكريّة

من أي لون ثم أي جنسِ

تشاؤه فاسمح بطيب نفسِ

وجدتها منك عطاء وكرمْ

ولا تقل: لا، بعدما قُلت:

ثانياً: الزراعة:

كانت الزراعة قرنئذ متخلفة لسببين: الأول: لتطبيق الأساليب القديمة. والثاني: عرضتها للآفات الزراعية. وحين أرادوا معالجة هذا التخلف لم يجدوا إلا:

1 ـ الدعاء والاستغاثة.

2 ـ وجمع الجراد ودفنه.

3 ـ وجلب ماء السمرمر.

فمن الدعاء والاستغاثة ما فعله الشيخ إبراهيم الجباوي حين خرج بالطبول والأعلام مع تلامذته ومريديه إلى قبر السيدة زينب، وظلوا هناك طوال النهار يستغيثون ويدعون أن يكشف عنهم البلاء.

وبعد يومين ذهب أهل الميدان بطبول وأعلام قاصدين جامع المصلّى يدعون أن يرفع الله عنهم الجراد ويهلكه.

وألزم الوالي أسعد باشا العظم كل صاحب أرض أن يأتيه بقنطارين من الحمراء ليدفنها في مقبرة البرامكة.

فإن لم تنفع الطريقتان السابقتان أرسلوا إلى بلاد العجم وإلى بلدة سُمَيْرم تحديداً ليأتى من هناك بماء للسمرمر فيأخذونه ويعلقونه على رؤوس المناب، فتجتمع عليه طيور السمرمر التي تلتهم الحمراء.

قال النابلسي:

جاء ماء لدمشق

صفوه يشبه مرمر

فيه للناس انتفاع

حين طعم العيش مرمر

سيقول الناس أرّخ

قد أتى ماء السمرمر

ثالثاً: الصناعات والشعر:

ازدهرت الصناعات اليدوية في تلك الفترة، وكثرت حتى بلغت أربع منه صنعة وقد وردت أكثر هذه الصناعات في كتاب قاموس الصناعات الشامية الذي ألفه جمال الدين القاسمي. وما دمنا قد اعتمدنا على

الشعر في تعداد هذه الصناعات فإنه ـ أي الشعر ـ لم يذكر من هذه الصناعات إلا عشراً وهي: الثلاج والحلاق والحميماتي والسكري والسيوفي والطحان والعجان والحلواني والعطار.

فمن ذلك قول النابلسي في الثلج وبائعه الثلاج:

إنما الثلج ماء عين الحياة
وهو يطفي حرارة الحميات

أبيض بارد كمندوف قطن
وهو عند المحرور قطر

ومن ذلك قول السفرجلاني في العطار:

وردت عليّ في الحجون
أهدت لسمعي أطيب

وتأرجت أنفاسها فكأنما
جاءت بها في جونة العطار

8 ـ الأدب

ومن مقدمات الأدب الحركة الثقافية وهي في أمرين: في التعليم وحركة التأليف. وفي التعليم نحن بحاجة إلى أن نعرف شيئاً عن المدرسة وطرائق التعليم والمدرسين.

وقد كانت مراحل التعليم قرنئذ ثلاثاً: الأولى: في الكتاب أو المكتب، والثانية: في المسجد والثالثة: في الرحلة العلمية.

فأما المرحلة الأولى فكانت بمثابة المرحلة التحضيرية في أيامنا، لأنّ التلميذ يتعلم فيها حروف الهجاء وشيئاً من الحساب، وقراءة القرآن الكريم، وحين يختم القرآن تحتفل أسرته بذلك، فيطوف في المدينة كلها، كما يحفظ طرفاً من الحديث الشريف.

وذكر المرادي أن حسن المغربل افتتح في الشاغور مكتباً، يقال له مكتب الشيخ قاسم الفقيه، كما نقل لنا في موضع آخر اسم مكتب وان هو مكتب السنانية.

وقال النابلسي في ذكر المكتب:

طفلٌ رخيمُ الذلّ عُلِّقْتُه
من قبل أن يقرأ في المكتبِ

فإذا بلغ الطفل سن الحلم ارتاد المدارس والمساجد يستمع فيها إلى دروس أواخر الدولة العثمانية حوالي مئتين وأربعة وتسعين طالباً.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة التخصّص وإن صح التعبير، وهي تقوم على الرحلة إلى البلاد إلى علماء هذه البلاد، وأكثر البلدان اجتذاباً للطلبة عصرئن كانت مصر، لأنها كانت تضمّ كبار العلماء من مثل عبد الله الشبراوي وعبد الرؤوف البشبيشي، وعلي الشبراملسي ومحمد البقري، ومحمد البابلي، وأحمد الملوي، وعطية الأجهوري، وحسن المدابغي، وعيسى البراوي، وقصد طلاب العلم دمشق ليأخذوا عن عبد الغني الحنبلي.

وهناك علماء مقصودون في الحَرَمين،

وبلاد الروم، والقدس وغيرها من بلاد العرب والمسلمين وأما حركة التأليف فقد نشطت يومئذ نشاطاً عجيباً يدهش الباحث، ويكفي أن نذكر اسم النابلسي حتى تتراءى لنا آلاف الصفحات التي كتبها بخطه الناعم الدقيق، حتى إن المرادي أفرغ في سلكه صفحات كثيرات لتعداد أسماء كتبه، وكذلك فإن النابلسي نفسه عدد هذه الكتب أثناء رحلته "الحقيقة والمجاز في مرحلة الشام ومصر والحجاز" حين وصوله إلى صيدا فقد أجاز الشيخ رضوان يوسف الصباغ المصري الدمياطي المفتي أن يروي عنه جميع كتبه التي بلغ عددها (144) كتاباً، علماً بأنني أضفت في الهامش ما لم يذكر في هذه الإجازة من الكتب المحفوظة في ظاهرية دمشق فبلغت (128) كتاباً، فيكون المجموع (272) عنواناً.

وأكثر الكتب التي أُلّفت في ذلك القرن كتب فقه وحديث وتفسير وشعر وأدب وأصول، وفي ظاهرية دمشق حوالي تسعة عشر ديواناً مخطوطاً لشعراء ذلك القرن، لم يُطبع منها إلا ديوانان أحدهما للسفرجلاني والآخر للكيواني، وللنابلسي فيها ديوان مخطوط مؤلف من عدة أجزاء هي: ديوان الحقائق، ونفحة القبول في معراج الرسول، وخمرة بابل وغناء البلابل، وديوان المديح، ولم يطبع منه إلا القليل.

والمخطوطات الجغرافية التي أُلّفت في ذلك القرن نوعان: الأول عن مدينة دمشق، والثاني عن الرحلات.

ففي الكتب التي ألفت عن مدينة دمشق كتاب "الإشارات إلى أماكن الزيارات" للنابلسي والإعلام في فضائل الشام" للمنيني، و"البرق المتألق في محاسن جلق" للراعي، وتحفة الأمام من فضائل الشام" للبصروي، و"حدائق الإنعام في فضائل الشام" لابن عبد الرزاق.

وفي الرحلات ألف النابلسي عدة كتب عن رحلات قام بها إلى ما حول دمشق من بلدان ففي سنة (1100هـ /1688م) قام برحلة إلى البقاع وسماها رحلة الذهب الإبريز في رحلته بعلبك والبقاع العزيز، وفي سنة (1101هـ/ 1689م) قام برحلة إلى بيت المقدس وسماها الحضرة الأنيسة في الرحلة القدسية. وفي سنة (1106هـ/ 1695م) قام برحلته إلى الحجاز والشام ومصر وسماها "الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، والرابعة قام بها سنة (1112هـ/ 1700م) قام بها إلى طرابلس الشام وسماها: "التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية". وهناك رحالون آخرون مثل مصطفى البكري وعبد الله بن حسين بن مرعي وغيرهما.

وفي مجال الأدب يكفي أن نذكر كتاب "سلك الدرر" للمرادي، و"نفحة الريحانة" للمحبي "وذيل النفحة" للمحبي والسؤالاتي وسعيد السمان، "وتراجم بعض أعيان دمشق"

لابن شاشو.

وفي التاريخ "الباشات والقضاة" للمقار، "والوزراء الذين حكموا دمشق" لابن القاري "وتاريخ حسن العبد"، وحوادث دمشق اليومية" للبديري الحلاق.

وثمة كتب أخرى مختلفة مثل كتاب "بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا" لمحمد بن أحمد الكنجي.

"وإيضاح الدلالات في سماع الآلات" للنابلسي، و"الصلح بين الإخوان في إباحة الدخان"، للنابلسي أيضاً، و"السر المكنون في مدح النون" لمجهول.

أما الأدب ذاته فقد وجدنا في شعر هذا العرض أغراضاً تقليدية "فخرج عن المديح والوصف والهجاء والرثاء والغزل والحكمة، وإلى جانبها كان هناك أغراض مستجدة من مثل الإخوانيات، والشعر الديني كالتصوف والمدائح النبوية، والشعر التعليمي، وأدب الرحلات والقصة الشعرية، وشعر الحنين والاغتراب، ومدح المدن..

والتفصيل في ذلك يحتاج إلى بحث آخر لا يقل عن هذا البحث، ولكن لمن أراد متابعته فعليه بكتاب "شعر دمشق في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي" لكاتب هذه السطور، وهو من منشورات وزارة الثقافة السورية بدمشق سنة 2007م.

❑❑

دمشق وتاريخها العمراني والمعماري

محمد بشير زهدي

يحتفل الوطن العربي الكبير من أقصاه إلى أقصاه (بدمشق عاصمة للثقافة العربية هذا العام 2008م).

ويعتبر الشعب العربي من المحيط إلى الخليج مدينة دمشق قلب العروبة النابض، وموطن الفكر الإنساني، ومركز الحركة العلمية والإبداع الفني الأصيل.

وإذا كانت (مصر هبة نهر النيل)، فإن (واحة دمشق هبة نهر بردى) الذي وصفوه بنهر الذهب CHRISORRHOAS جذبت هذه الواحة الخصبة إليها أنظار رجال القوافل التجارية المختلفة المتجهة من الشمال إلى الجنوب. ومن الشرق إلى الغرب، وأغرتهم أهميتها الزراعية بالاستقرار فيها. وإن الآثار المختلفة المكتشفة في تل الصالحية وتل الرماد تدل على قدم تاريخ استقرار الإنسان القديم في هذه المنطقة التي شيدوا فيها (معبد حدد) رب المطر، وأقاموا حوله مباني المساكن المختلفة، ومارسوا حوله فعالياتهم الاقتصادية المتميزة.

وهكذا فقد نشأت نواة قرية صغيرة يعتبر تاريخ بداية بنائها من (أسرار تاريخ ما قبل التاريخ). وقد تميز موقعها بمواصفات متميزة منها ما يلي:

- خصب الأرض وذلك لموقعها قرب مجرى نهر بردى، في واحة تبدو كالزمردة الخضراء وسط رمال الصحراء الذهبية اللون.
- قابلية التوسع باستمرار.
- أهمية موقعها على الطرق التجارة العالمية التي تقطع البلاد من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب.

اسم دمشق في مختلف النصوص

وكان للصراع الدولي بين إمبراطوريات وممالك العالم القديم في هذه المنطقة الجغرافية أثره الكبير وتفسيره أسباب ذكر اسم

دمشق في مختلف النصوص المصرية والبابلية والآشورية والآرامية والعبرية والإغريقية واللاتينية.. وغيرها...

محاولات تفسير اسم دمشق :

تحدث كثير من الباحثين عن اسم (دمشق) وحاولوا تفسيره وذلك بالاعتماد على ما يلي:

- اسم باني مدينة دمشق، واعتباره أحد الأرباب أو الأبطال الأسطوريين...
- أو عن طريق الاشتقاق اللغوي من (فعل) أو (حادث ما)

ويستوي في هذه المحاولات الباحثون العرب والمسلمون وغيرهم...

وكان المؤرخ (ستيفانوس البيزنطي) في القرن السادس الميلادي قد أرجع اسم دمشق إلى أسطورة البطل (دامسكوس بن هرمس) الذي هاجر من مقاطعة (أركاديا) ليقيم في سورية التي بنى فيها مدينة عرفت باسمه.

ودلت الأساطير الإغريقية المختلفة على ميل الإنسان إلى معرفة أصول الأشياء وبداياتها وعندما كان يتعذر عليه معرفة تاريخ بدايتها، كان خياله يزوده بما يعوزه من قصص أسطورية طريفة ومختلفة، يدل تحليلها على مدى حب الإغريق هذه المنطقة الحضارية، ومحاولاتهم تأكيد صلاتهم بها، وذلك بتخيل إسهام أربابهم في نشوء مدنها، وذلك تأكيداً للتفاعل الحضاري المتبادل وأهميته.

دمشق جدّة المدن

تعتبر مدينة دمشق بمثابة (جدة المدن)، تحدثت عنها الكتب المقدسة وأقدم النصوص التاريخية المختلفة القديمة والحديثة.

وزار دمشق الكثيرون من الرحالة والرسميين، والشعراء والفنانين، والأدباء والمؤرخين، والتجار والدبلوماسيين، وتحدثوا عنها بكثير من الإعجاب والتقدير الكبير. واعتبرها (أبو الحسن الغرناطي) بمثابة (فردوس أرضي) يجعل السائح الغريب ينسى اغترابه عن وطنه، وفي ذلك يقول:

أما دمشق فجنة

ينسى بها الوطنَ

انظر بعينك هل ترى

إلا محباً أو حبيب

عائلات دمشق من أقطار العالم:

يكفي أن نستعرض أسماء عائلات دمشق في (دليل الهاتف) كي نستنتج أن أسماء هذه العائلات الكريمة من أسماء مختلف المحافظات وأقطار الوطن العربي الكبير بل والعالم. ومن هذه الأسماء (الأفغاني، والداغستاني، والأرناؤوط، والشاشاني، وخوست والقرملي... وغيرها...) مما يؤكد صدق تعبير (أبي الحسن الغرناطي) عن احترام الجميع مدينة دمشق

ورغبتهم في الإقامة في فردوسها، واللجوء إليها في الأزمات المختلفة.

ومن يدرس تاريخ الحضارة يستنتج أهمية دمشق الحضارية المتميزة، مما جعل الشاعر الكبير (أحمد شوقي 1868 ـ 1932) يعتبر بداية أمجاد العرب من دمشق، وفي ذلك يقول:

لولا دمشق لما كانت طليطلة

ولا زهت ببني العباس

عمران دمشق وعمارتها في عهود الآراميين (من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد حتى عام 732 ق.م):

كان خصب واحة دمشق قد جذب الأنظار إليها، مما جعل أنظار العرب تتجه إليها، وكانت هذه الهجرات لأسباب اقتصادية. وكانت تتم بشكل فردي أو جماعي.

وفي نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وصلت إلى سورية أفواج موجة العرب الآراميين الذين أسسوا فيها ممالكهم المختلفة. فاتسعت دمشق، وتزايد عدد سكانها وازدادت أهميتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وتذكر النصوص نبأ ظهور القائد الآرامي (رزون بن إليدع) الذي انفصل عن ملكه (حدد عزر)، واتجه إلى دمشق التي أقام فيها، وأسس فيها مملكته الآرامية التي كانت بانتظارها أحداث خطيرة.

ومهمات حضارية وقومية في عهود ملوكها الآراميين (وبخاصة رزون، وبرحدد، وحزائيل وغيرهم..) الذين ازدادت أهمية دمشق الحضارية والدولية في عهودهم، وغدت دمشق عاصمة أكبر الممالك الآرامية وأهمها في بداية الألف الأول قبل الميلاد، وقد أخذت على عاتقها ما يلي:

1. مهمة توحيد صفوف الآراميين في فترات تزايد خطر الجيوش الآشورية وزحفها إلى الجنوب.
2. الصمود أمام زحف جيوش الآشوريين المشهورة بالعنف

كل هذا تطلب ما يلي:

- تحصين مدينة دمشق والقصر الملكي الآرامي
- بناء ورشت صنع السلاح والعربات الحربية ومستودعات التموين...

وقد ذكر الملك الآشوري (شلمنصر الثالث) أنه قضى في (معركة قرقر) الشهيرة عام 853 ق.م على 1200 عربية حربية، و 1200 حصان، و 20000 مقاتلاً آرمياً من جنود ملك دمشق الآرامي.

وإن اكتشاف (منحوته بازلتية) ـ في أحد أساسات مبنى الجدار الشمالي للجامع الأموي تعود إلى عهود الآراميين ـ قد زودنا بمعلومات هامة ومفيدة عن (معبد حدد) في

دمشق، وموقعه في مكان الجامع الأموي بدمشق. كما زودنا بنموذج من روائع فن النحت الآرامي. تمثل هذه المنحوتة البازلتية (كائناً خرافياً) له (رأس إنسان) رمز الحكمة. (وجسم أسد) رمز القوة، و(جناحي نسر) رمز الانطلاق في الآفاق المختلفة.

كما أن اكتشاف (اللوحات العاجية) ـ التي كانت تزين عرش ملك دمشق الآرامي ـ في موقع (أرسلان طاش) قرب حلب قد زودنا بمعلومات هامة عن فن الآراميين وجمالياته ورموزه. تمثل هذه اللوحات مواضيع مختلفة مثل (وجه فتاة يرمز إلى الروح تطل على عالم الأحياء).

وإذا كانت كتب التاريخ تتحدث عن أخبار مملكة دمشق الآرامية وملوكها، فإن معلوماتنا عن تنظيمها العمراني وتاريخها المعماري ما زالت قليلة. وذلك لعدم القيام بأعمال التنقيب الأثري في موقع (تل السماكة) المرتفع عن سطح الأرض المجاورة... ويلاحظ هذا الارتفاع بوضوح في جنوب الشارع المستقيم قرب (سوق الزورية). كما يلاحظ ارتفاع الأرض عن سطح الأرض المجاورة في بداية (حي القيمرية) شرق الجامع الأموي بدمشق وربما كان هذا الارتفاع والتل الأثري يضم أسرار أطلال (أحياء مدينة دمشق الآرامية) وذلك بعدما قضى عليها جيش الملك الآشوري (تغلات بلا سر الثالث) عام 732 ق.م.

عدم اهتمام الكلدانيين 605 ـ 538 ق.م بعمران دمشق وعمارتها

سقطت دمشق في أيدي الكلدانيين عام 605 ق.م في عهد الملك (نبوخذ نصر 605 ـ 562 ق.م). ولم تشهد دمشق في عهودهم أي جهد عمراني أو معماري جدير أن يذكره لهم التاريخ. والجدير بالذكر أن ملكهم (نابونيد) كان يقيم في (واحة تيماء) مهتماً بالفلك والآثار وغيرها من الأمور في فترة كان فيها خصومهم الفرس الميديون والأخيمينيون يزدادون قوة ونفوذاً. وكان منجزاتهم في بلاد ما بين النهرين (برج بابل والحدائق المعلقة) التي تعتبر من عجائب العالم السبع.

دمشق في عهد الفرس الأخمينيين 538 ق.م – 333 ق.م

أدرك الفرس الأخيمينيون أهمية موقع دمشق، فجعلوها مركز ولاية ومقر قيادتهم العسكرية. وقد تحدث الجغرافي (سترابون 58 ق.م ـ 25م) عن أهمية دمشق في العصر الفارسي كأشهر مدينة في هذا القسم الغربي من قارة أسيا.

وبعد هزيمة ملك الفرس (داريوس الثالث كودومان 336 ق.م ـ 330م) في معركة (إيسوس) الشهيرة عام 333ق.م عهد

الاسكندر المكدوني 356 ق.م - 323م إلى قائده (بارمينيو) باحتلال دمشق، فوجد أسرة الملك الأخيميني في القصر الملكي. وفي (حديقة المتحف الوطني بدمشق) تاج عمود من حجر الجير الأبيض تزينه رؤوس ثيران - كبقية تيجان الأعمدة الفارسية - مكتشف في جزيرة أرواد.

عمران دمشق وعمارتها في العصر الهلنستي 323 ق.م – 64م:

خلد الإسكندر المكدوني انتصاره في معركة (إيسوس) بتأسيس مدينة أطلق عليها اسمه وإذا كان الإسكندر أسس في سورية مدينة (إسكندرونة) في موقع معركة إيسوس. فإنه أسس في مصر مدينة (الإسكندرية).

أدرك السلوقيون أهمية تأسيس مدن جديدة في هذه البلاد وذلك لطبع هذه البلاد المحتلة بطابعهم الإغريقي بمقدار ما يبنى فيها من مستعمرات كمدن حديثة. وبمقدار ما يبنى فيها من أحياء جديدة يقيم فيها أتباعهم المكدونيون في جوار المدن الكبرى القديمة مثل دمشق وحلب. وهكذا فقد أسس السلوقيون خلفاء الإسكندر - حياً جديداً في شرق مدينة دمشق الآرامية.

وإذا كان (معبد حدد) الآرامي في قلب مدينة دمشق الآرامية. فإن الحي الجديد قد شيدت مساكنه حول الساحة العامة (آغوار AGORA) ويعتقد أن موقع هذه الساحة العامة في (حي الجورة). في ساحة الدوامنة.

وقد تميز (المخطط التنظيمي لهذا الحي الجديد) بشوارعه المستقيمة المتقاطعة مع بعضها بزوايا قائمة تشكل (جزيرات سكنية) أو وحدات سكنية، مما جعل لهذا المخطط التنظيمي شكل (رقعة الشطرنج). ويتضمن (ساحة عامة) و(مسرحاً) يقع جانب (سوق مدحت باشا).

ولا حظ الباحثون أنه بقدر ما كانت (دمشق الآرامية) كثيرة السكان، وبحاجة إلى ساحات واسعة من الأرض يشيد عليها مباني مساكن العائلات الآرامية. فإن ذلك (الحي السكني المكدوني الجديد) كان ذا مساحة واسعة وتسكنه جماعات المرتزقة المكدونية التي غرسها السلوقيون في هذا الحي لدعم نظامها ومراقبة السكان الآراميين المحليين. أضف إلى ذلك محاولة طبع البلاد بطابعهم المدوني. ولكن منطق الحياة جعل كثيرين من المواطنين الآراميين ينتقلون تدريجياً إلى هذا الحي الجديد، فشكلوا فيه أكثرية سكانه، وطبعوه بطابعهم الآرامي المحلي في عصر كثرت فيه الحروب والصراعات بين السلوقيين والبطالة والأنباط والرومان وغيرهم... وكان فيه السلوقيون بحاجة ماسة إلى تأييد العرب الذين كانوا يشكلون قوة هامة في المنطقة. وإن كثرة الفتن في العاصمة السلوقية (أنطاكية) تفسّر قيام الملك السلوقي (أنطيوخس التاسع 121 ق.م - 96 ق.م) بمغادرة عاصمته. واتجاهه إلى دمشق التي

اتخذها عاصمة له.

تكاثر العرب الأنباط في دمشق وظهور حبهم الجديد فيها:

منذ بداية العصر الهلنستي، ظهرت قوة العرب الأنباط في جنوب بلاد الشام، وصارت لقوتهم الحربية والعسكرية أهميتها الكبيرة في تقرير مصير هذه المنطقة وذلك بعد انتصارهم على القائد المكدوني (أنتيجون) وابنه القائد (ديمتريوس)، وفي فترة تزايد ضعف السلوقيين وتنابذهم فيما بينهم، وضعف البطالة وفساد إدارتهم، وظهور خطر الملك الأرمني (تيجران)... مما جعل العرب الأنباط يدخلون مدينة دمشق ليس كأفراد ورجال أعمال كما كانوا في الماضي بل كقوة عربية نبطية اتخذت مدينة دمشق عاصمة لها في عهد الملك (الحارث الثالث 87 ق.م - 62 ق.م) وعهد الحارث الرابع.

وقد تطلبت إقامة هؤلاء العرب الأنباط في دمشق بناء مساكن جديدة شكلت حياً جديداً من أحياء مدينة دمشق عرف باسم (حي الأنباط). وربما كان اسم (حي النبطيون) - داخل منطقة الأسوار في جهة باب توما - من ذكريات تلك الفترة، ومن جهود أولئك العرب الأنباط وإسهامهم العمراني والمعماري في دمشق.

عمران دمشق ومبانيها المعمارية في العصر الروماني:

بعدما قضى القائد الروماني (بومبه 107 ق.م - 49 ق.م) على حكم السلوقيين نهائياً في سورية عام 645 ق.م أدرك القواد الرومان أهمية موقع دمشق في المنطقة، ومتطلباتها الحديثة الدفاعية والعمرانية والمعمارية والمائية... وغيرها. ولاحظوا أهمية خبرات سكانها العمرانية والمعمارية والفنية والجمالية. مما جعلهم يعتمدن على المهندسين المحليين في تحقيق مشاريعهم المختلفة في دمشق وغيرها من مناطق إمبراطوريتهم الواسعة. ومن أهم مشاريعهم العمرانية والمعمارية في دمشق ما يلي:

1ً - بناء سور حجري ضخم يحيط بمدينة دمشق ويضم ما يلي:

- المدينة الآرامية القديمة
- الحي المكدوني الذي أسسه المكدونيون في شرق المدينة الآرامية وذلك في العصر الهلنستي.
- المساكن المختلفة التي شيّدها العرب الأنباط في دمشق قرب باب توما وشكلت الحي النبطي.

وكان طول هذا السور الحجري الضخم الجديد /1500/م وعرضه /750/م ويضم أرضاً تقدّر مساحتها بنحو 1.5 هكتارات.

والجدير بالذكر أن هذا العصر الروماني

تبنى (شكل المخطط المنتظم) ـ الذي يشبه بوحداته السكنية وشوارعه المستقيمة المتقاطعة فيما بينها بزوايا قائمة (شكلت رقعة الشطرنج). فهناك شارعان رئيسيان. أحدهما يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب ويعرف باسم (DECUMANUS) ـ والآخر يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب ويسمى (CARDO) الذي يمكن تحديد موقعه عند (قوس التترابيل) قرب الكنيسة المريمية.

وكانت تحيط بهذين الشارعين الرئيسيين (أروقة) قائمة على أعمدة لها تيجان كورنثية.

وكانت هذه الأروقة الجميلة تتيح للمارين أمام المخازن المختلفة أن يتجنبوا مطر فصل الشتاء وأشعة شمس فصل الصيف. وكان المعمار قد اقتبس فكرة هذه الأروقة من ظلال الأشجار. وإن استقامة الشارع الممتد من غرب المدينة إلى شرقها جعلته يعرف باسم (الشارع المستقيم VIA RECTA) يتوسطه مبنى (قوس التترابيل) كي يرتاح عنده البصر عوضاً عن رؤية امتداد هذا الشارع إلى مالا نهاية.

ويعتبر (الباب الشرقي) من أجمل أبواب المدن يتميز بأهميته الدفاعية وجمالية ضخامة عمارته.

2ً- مشروع تحويل (معبد حدد الآرامي) إلى (معبد جوبيتير الدمشقي) المتميز بما يلي:

ـ سعة ساحته.

ـ ضخامة مبناه مما جعله من أشهر معابد العصر الروماني ويبدو (كمدينة مقدسة). والجدير بالذكر ظهور مواهب الشاب (آبولدور الدمشقي) أثناء تنفيذ هذا المشروع مما جعل الرومان يعهدون إليه بتنفيذ مشروع (ساحة تراجان) في روما. ومشروع بناء جسر على نهر الدانوب في رومانيا.

كان بمعنى (معبد جوبيتير الدمشقي) يتصل بالساحة العامة بشارع هام. وكان مخطط دمشق العمراني يتضمن مسرحاً لا يقل أهمية عن مسارح المدن الأخرى. أضف إلى ذلك (القصر) الذي ربما كان في موقع القلعة.

وقد تطلبت أحداث العصر في عهد الإمبراطور (ديوكليسيان 245 ـ 305) تأسيس ورشات صناعة الأسلحة وبناء المستودعات المختلفة.

3ً- مشروع قنوات المياه لتلبية متطلبات السكان المتزايد عددهم في العصر الروماني. وما زال (حي القنوات) في دمشق يذكرنا بتلك القنوات المائية الهامة. تلفت قناطرها الأنظار، وتثير الانتباه والتقدير والإعجاب...

وقد خصصت الأراضي الواقعة في جهة الشمال الشرقي من مدينة دمشق لتكون

(مقبرة الموتى) بعيدة عن المدينة وأسوارها.

4- **مشروع شبكة الطرق العديدة** المرصوفة المتجهة إلى قرى ريف دمشق ومدن العالم القديم.

كل هذا يدل على أن ذلك المهندس المعمار قد أخذ بعين الاعتبار كل المتطلبات العمرانية والمعمارية المختلفة

العمران والنهضة المعمارية في العصر البيزنطي في دمشق:

كان اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية كديانة رسمية قد تطلّب تحويل قسم من (معبد جوبيتير الدمشقي) إلى (كنيسة يوحنا المعمدان). وكانت (دار حنانيا) بمثابة كنيسة سكنية وشيدت أديرة هامة خارج أسوار دمشق. ومن أشهر هذه الأديرة (دير مران) على جبل قاسيون في موقع يطل على الربوة. وإن جمالية موقع (دير مران) جعلت أحد الشعراء يتغنى قائلاً

يا صباحاً بدير مران راقا

هجت منا القلوب والأحداقا

ومشت نسمة تؤمك حتى

رفعت بالعبير فيك رواقا

ونظرنا من ربوة الشام

قلبنا لم يزل له مشتاقا

وهناك مباني الأديرة المختلفة وبخاصة في معلولا وصيدنايا

وهناك (قصر هرقل) في سفح جبل قاسيون، عرف في العصر السلجوقي باسم (قصر شمس الملوك).

إسهام العرب الغساسنة في تزيين دمشق بالقصور:

وكان للعرب الغساسنة مساكنهم الكثيرة في دمشق وخارجها. وكان من أشهر قصورهم في دمشق (قصر البريص) بين سوق البزورية والبطريركية المريمية. ذكره الشاعر (حسان بن ثابت 563 - 674م) في مديح أمراء العرب الغساسنة قائلاً:

لله درّ عصابة نادمتهم

يوماً بجلّق في الزمان الأول

يُسقون من ورد (البريص)

بردى يصفّق بالرحيق

صراع الفرس والبيزنطيين وتساؤلات المجتمع عن سيد المنطقة:

استطاع الفرس الساسانيون أن يحتلوا سورية عام 612م مدة خمس عشرة سنة. وعندما استطاع الإمبراطور (هرقل 610م - 641م) أن يحرر سورية من الاحتلال الساساني ويطرد الفرس نهائياً منها، كان الناس يتساءلون: من سيسود العالم من جديد؟ ولم يفكر أحد منهم بأن القبائل العربية المتنازعة فيما بينها ستوحدها دعوة إنسانية

لبناء عالم جديد يقيم إنسانية جديدة.

دمشق واهتمام (الأمويين 661 ـ 749) بالعمران والعمارة:

بعدما تحررت دمشق من الحكم البيزنطي عام 635م، أقام فيها عدد من الأمراء العرب مع أبناء قبائلهم الذين سكنوا في عدد من القصور والدور في مختلف أحياء دمشق وضواحيها. وبعدما أصبحت دمشق عاصمة الدولة العربية، شهدت نهضة عمرانية ومعمارية تجلت في بناء القصور والدور في مختلف أحياء دمشق القديمة مثل:

ـ دار الإمارة: جنوب الجدار الجنوبي للجامع الأموي. وقد تميزت هذه الدار بقبة خضراء زمردية اللون مما جعلها تعرف باسم (قصر الخضراء) اعتبرت أول مبنى عربي إسلامي جديد في دمشق. وقد أصبح هذا المبنى فيما بعد (دار الشرفة) و(دار سك النقود) وأخيراً تحولت إلى (سوق الصاغة).

ـ وينسب إلى (يزيد بن معاوية بن أبي سفيان) مشروع قناة عرفت باسمه (نهر يزيد) الذي سهم فعلاً في امتداد البقعة الخضراء المساحات الواسعة في سفح جبل قاسيون في شمال (نهر ثورى).

وبعد انتقال الحكم من (سلالة معاوية) إلى سلالة (مروان بن الحكم)، شيدت قصور عديدة داخل أسوار دمشق وخارجها. ومن أشهر هذه المباني الأموية في دمشق ما يلي:

ـ دار عبد العزيز بن مروان وابنه (عمر بن عبد العزيز) في جوار الجدار الشمالي للجامع الأموي، في مكان (المدرسة الشميساطية) حالياً.

ـ قصر هشام بن عبد الملك، في مكان (المدرسة المجاهدية) في سوق القلبقجية.

ومن أشهر القصور الأموية خارج أسوار دمشق ما يلي:

ـ قصر الحجاج بن عبد الملك: أطلق اسم هذا القصر على حيّ ما زال يعرف باسم (حي قصر الحجاج).

ـ قصر عاتكة: أطلق اسمه على حي سكني جديد يعرف باسم (قصر عاتكة) أو (قبر عاتكة).

أضف إلى ذلك الاهتمام بموقع (دير مران) في سفح جبل قاسيون المطل على الربوة.

وإذا كانت مباني هذه القصور الأموية قد زالت، فإن مباني القصور الأموية العديدة المكتشفة في بادية الشام (مثل قصر الحير الغربي، وقصر الحير الشرقي. وقصر هشام في الرصافة، وقصر أسيس، وقصر هشام في أريحا...) قد تحدث عنها الأمير جعفر الحسني في مقالة القيم (قصور الأمويين في الديار الشامية. في مجلة (المجتمع العلمي العربي بدمشق شهر أيار وحزيران 1942 ص 214 ـ 230). وقد دلت هذه القصور

الأموية على ذوق معماري وفكر جمالي. كما أوضحت المتطلبات المختلفة لأبناء ذلك العصر.

وقد بلغ الاهتمام بالعمارة في العصر الأموي درجة جعلت المواطنين عصرئذٍ يتحدثون عن العمران والعمارة والمباني المعمارية عند لقائهم ببعضهم.

وينسب إلى الوليد بن عبد الملك فضل بناء أقدم المستشفيات في دمشق.

وتجدر الإشارة إلى الاهتمامات الرياضية وملاعب سباق الخيل ورياضة الفروسية في عصر كانت فيه شجاعة الفرسان وأخلاقهم موضوع التفاخر ومعيار التقدير.

ويعتبر تشييد مبنى الجامع الأموي الكبير في دمشق أهم الأعمال المعمارية في العصر الأموي وما بعده بل من روائع فن العمارة العالمية وعجائب العالم المعمارية، يعود فضل بنائه إلى (الوليد بن عبد الملك) عام 705 ـ 715م. وقد زين جدرانه بروائع فن الفسيفساء التي تمثل القصور الأموية وحدائقها ونهر بردى وجمال الطبيعة بأشجارها. مما جعل بعض السائحين يصفون مبنى هذا الجامع بأنه بمثابة (مشفى للروح).

دمشق في العصر العباسي:

ينسب إلى الخليفة (المأمون 813 ـ 833) فضل تحقيق مشروع (قناة نهر منين) إلى معسكره في سفح جبل قاسيون، وبناء مرصد فلكي، والمباشرة ببناء (قصر) بين دمشق وداريا. وقد وصف المأمون دمشق بأنها (خير مغني على وجه الأرض).

وأقام الخليفة (المتوكل 847 ـ 861) في القصر الذي بدأ المأمون بعمارته قرب داريا. وفكر في جعل عاصمته في دمشق. ونرى هذه الفكرة عند الخليفة (الواثق 842 847).

وفي العصر الفاطمي بني (جعفر بن فلاح) قصره في موقع (الدكه) في سفح جبل قاسيون على نهر يزيد. كما شيد أتباعه مساكنهم وأسواقهم وأحاطوها بالأسوار مما جعل موقعها يبدو شبه مدينة مستقلة.

وشيد (أبو الفرج محمد بن عبد الله بن المعلم (كهفاً) في جبل قاسيون يعرف حالياً باسم (مسجد الكهف). وأنشئت أول مدرسة للقرآن عام 444هـ وذلك بفضل (رشاد بن نظيف المقري الدمشقي).

وفي عهود الأتابكة استطاع (ظهير الدين طغتكين 497هـ ـ 522هـ) أن يجعل الحكم في أسرته مدة نحو نصف قرن. في فترة صراع الوطن ضد الفرنجة الصليبيين الغزاة. فشهدت دمشق نهضة معمارية.

وصمدت دمشق أمام حملة صليبية تألفت من جيوش ملك ألمانيا (كونراد الثالث) وملك فرنسا (لويس السابع) وملك القدس (بودوان الثالث).

وكان المواطنون يتطلعون إلى البطل (نور الدين بن عماد الدين زنكي ابن الأتابك آمدسنقر). وكان لانتصارات هذا البطل على الفرنجة الصليبيين أثرها الكبير في خلق شعور التفاؤل بقرب النصر.

دخل (نور الدين) دمشق عام 1154م. فشهدت دمشق نهضة عمرانية ومعمارية تجسدت بتشييد المباني العسكرية والدينية والمدنية المختلفة. ومن أهم هذه المنجزات ما يلي:

- قلعة دمشق في الزاوية الشمالية الغربية وذلك كدار إمارة.
- سور دمشق ودعمه بالأبراج التي منها (برج نور الدين) جنوب باب الجابية.
- ترميم أبواب دمشق. وفتح أبواب جديدة (باب السلام، وباب النصر، وباب الفرج) وذلك لتلبية المتطلبات المختلفة. وزوّد كلاً من هذه الأبواب (ببا شورة) أي (سويقة) يتموّن منها السكان في فترة الحصار.
- البيمارستان النوري: مستشفى للمرضى ومدرسة طب.
- المدرسة النورية في سوق الخياطين، دفن فيها السلطان نور الدين، وتميزت عمارة تربته بقبة مزينة بمقرنصات خارجية.
- حمام نور الدين في سوق البزورية يعتبر من أقدم حمامات دمشق.

وإن كثرة المدارس في دمشق في عهد السلطان نور الدين جعلت (هرتمن) يقول بأن دمشق أصبحت بمثابة (مدينة المدارس).

وبدأت (الحياة الفعالة تدب في الضواحي. وكان لهجرة (المقادسة) إلى دمشق بعد سقوط مدينتهم (القدس) في أيدي الفرنجة الصليبيين عام 1098م أثره في نشوء بلدة (الصالحية) في عهد السلطان نور الدين.

وتوسعت دمشق بظهور (حي العقيبة) في شمال سور دمشق القديمة.

وكان لشعور السلطان نور الدين بحاجة الطبقة الكادحة إلى منتزهات أثره في إعداد مصيف (الربوة) الذي تحدث عنه الشاعر قائلاً:

إن نور الدين لما أن رأى
في البساتين قصور
عمّر (الربوة) قصراً شاهقاً
نزهة مطلقة للفقراء

النهضة العمرانية والمعمارية في عهود الأيوبيون 1174 ـ 1259:

تابع السلطان (صلاح الدين الأيوبي 1137 ـ 1193) النهضة العمرانية والمعمارية في دمشق واتسعت (الصالحية) وامتدت جنوباً حتى اقتربت من أسوار دمشق التي تابع الأيوبيون ترميمها ودعمها بالأبراج

مثل (برج الصالح أيوب). كما شيدت (قلعة دمشق) في عهد (الملك العادل) في الزاوية الشمالية الغربية وذلك كدار إمارة.

ومن أشهر المباني الدينية التي تعود إلى عهود الأيوبيين ما يلي:

- جامع الحنابلة في (حي الصالحية): يتميز بمخططه الذي يشبه مخطط الجامع الأموي
- جامع الماردانية في (الجسر الأبيض) تميز مبناه بقبته الجميلة المؤلفة من مضلعين
- جامع التوبة (في حي العقيبة).

ومن المدارس التي شيدت في عهود الأيوبيين:

- المدرسة العمرية في حي الصالحية: كانت بمثابة جامعة هامة
- المدرسة العادلية الكبرى مقر مجمع اللغة العربية
- المدرسة الجهاركسية في حي الصالحية
- المدرسة العزيزية التي بقي منها تربة تضم ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي

وهناك مباني التراب ذات القباب الفخمة ومن أهمها:

- التربة الحانظية (في حي الميسات)
- تربة ابن المقدم (في حي الدحداح)
- التربة النجمية (في سوق صاروجة)
- تربة ست الشام (في جوار المدرسة الشامية في سوق صاروجة)

وهناك مباني الخانقاهات (أو الرباطات) المخصصة لجماعة الصوفية

وهناك مبنى (البيمارستان القيمري) في حي الصالحية

وهناك مباني القصور والدور المختلفة

واتسعت دمشق، وظهرت محلة (حكر السماق) غرب السور، في مكان شارع النصر. كما ظهرت في جهة الجنوب أهمية طريق (الميدان) المؤدية إلى حوران فالحجاز. مما أسهم في ظهور أحياء (الميدان) و(القبيبات) و(السويقة) و(التيروزي) وأهمية طريق داريا المؤدية إلى فلسطين فمصر.

وتعتبر قلعة دمشق من أهم المباني العسكرية بناها الملك العادل عام 599هـ/ 1202م. وقد تميزت بأبراجها المنيعة وعددها اثني عشر برجاً.

وإن أهمية هذه النهضة العمرانية والمعمارية جعلت المؤرخ (ابن تغري بردي) يعتبر (دمشق أعمر مدن العالم وأجملها) وذلك قبل حدوث (كارثة تيمورلنك) عام 1400م.

النهضة العمرانية والمعمارية في عهود المماليك 1259 – 1516:

جعل المماليك دمشق قاعدة هامة، فشهدت في عهد الملك (الظاهر بيبرس 1223 - 1277) الازدهار المعماري. وقد

تطلّب تزايد عدد سكان دمشق ظهور أحياء جديدة مثل (سوق صاروجه) الذي ينسب بناؤه إلى الأمير (صاروجه صارم الدين).

وهناك عدد من مباني الجوامع والمساجد مثل:

- جامع الورد في سوق صاروجه
- جامع تنكز في شارع النصر
- جامع يلبغا (كان مكان مجمع الباسل في المرجة ساحة الشهداء). وإن أهميته جعلت الشاعر (ابن حبيب الحلبي) ينشد قائلاً:

يمّم دمشق، ومل غربها
والمح معاني حسن جامع
من قال ـ من حسد ـ رأيت نظيره
بين الجوامع في البلاد فقد

وهناك ـ جامع الأقصاب (في حي السادات)

- وجامع منجك (في ميدان الحصى)
- وجامع التيروزي (في باب السريجة)
- وجامع القلعي (في سوق الصوف)
- وجامع هشام (في سوق الصوف)
- وجامع السنجقدار (في السنجقدار)
- وجامع التينبية (في حي الميدان الوسطاني)
- وجامع المعلق (في حي العمارة البرانية)

أضف إلى ذلك مئذنة قايتباي الغربية في الجامع الأموي بدمشق

وهناك المدارس العديدة مثل:

- المدرسة الظاهرية (مقابل المدرسة العادلية)
- المدرسة الصابونية (في باب الجابية)
- المدرسة الدلامية (في الجسر الأبيض شارع المقدم)
- المدرسة الجقمقية (شمال الجامع الأموي بدمشق أصبحت مقر متحف الخط الغربي)

وإن كثرة مدارس دمشق وأهميتها العلمية جعلت الأمير (ابن منقذ الكناني) ينشد قائلاً:

ومدارس لم تأتها في مشكل
إلا وجدت فتى يحل المشكلا

وهناك مباني دور القرآن مثل دار القرآن الرشائية...

وهناك أجمل (مباني السبل) مثل سبيل الخزنة في سوق القطن

وهناك مباني الحمامات مثل مبنى (الحمام التيروزي) في حي باب السريجة

وهناك مباني الترب مثل التربة التكريتية في حي الصالحية.

وهناك مباني القصور مثل (قصر الأبلق) (الذي بناه (الملك الظاهر بيبرس) وقد حل محله مبنى التكية السليمانية في العصر العثماني. وقد أسهم بناء قصر الأبلق المملوكي في إحياء المنطقة المجاورة،

وظهور أحياء جديدة مثل: (حي الخلخال) و(حي المنيبع) و(الشرف الأعلى) و(الشرف الأدنى).

النهضة العمرانية والمعمارية في العصر العثماني 1516 ـ 1918:

شيد في دمشق في بداية العصر العثماني المباني الآتية:

- التكية السليمية في حي الصالحية في عهد السلطان سليم الأول.
- التكية السليمانية (في مكان قصر الأبلق المملوكي) أنشأها السلطان سليمان القانوني.
- جامع الشيخ محي الدين في حي الصالحية أنشأه السلطان سليم الأول تقديراً للعالم الصوفي الكبير الشيخ محي الدين بن عربي.

وأسهم ولاة دمشق في تزيين دمشق بأجمل المباني المعمارية مثل:

- جامع الوالي مراد باشا النقشبندي في حي السويقة ـ طريق الميدان: تميز بقبته الجملية.
- جامع الوالي درويش باشا: يضم المبنى جامعاً ومكتباً ومدفناً وسبيلاً.
- جامع الوالي سنان باشا في باب الجابية له مئذنة مغطاة ببلاط الخزف الجميل وهناك مباني الخانات التي من أهمها ما يلي:
- خان أسعد باشا العظيم يعتبر من أجمل مباني الخانات في العالم علوه القباب الجميلة
- خان الجوخية
- خان الجمرك
- خان سليمان باشا...

وهناك مباني الأسواق التجارية الجميلة مثل سوق الحرير.. وغيره

وكان تجول (الحسان) في هذه الأسواق جعل الشاعر ينشد قائلاً:

عرّج ركابك عن دمشق فإنها
بلدٌ تذل له الأسوار وتخضع
ما بين (جابيها) و(باب
قمرٌ يغيب وألف بدر يطلع

وفي القرن الثامن عشر أخذ العثمانيون يختارون ولاة دمشق من عائلاتها مثل أسرة العظم وهناك مباني القصور مثل (مبنى قصر العظم)

ومباني الحمامات مثل (حمام فتحي) على طريق الميدان

ومباني المدارس مثل مدرسة سليمان باشا العظم ومدرسة عبد الله باشا العظم

وظهر تطور كبير على (مخطط مدينة دمشق). وذلك بعدما فتحت شوارع جديدة، وظهرت أسواق وأحياء حديثة مثل (حي القنوات).

وكما أن مجيء لاجئين (مثل الأكراد والكريتيين) قد أسهم في إعمار سفح جبل قاسيون وظهور (حي المهاجرين) في غرب الصالحية. و(حي ركن الدين) في شرق الصالحية.

أضف إلى ذلك مجيء اللاجئين الجزائريين وغيرهم من عرب المغرب الغربي مما أسهم في توسع (حي المغاربة) في (طريق الميدان) الذي ظهرت فيه الصناعات المختلفة العديدة لتلبية متطلبات قوافل الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنوّرة.

وبعدما زال الشعور بالخطر الخارجي، ردمت الخنادق المحيطة بالقلعة، وظهرت أسواق مثل (سوق الخجا) و(سوق الخيل).

ويعتبر (سوق الحميدية) من أجمل أسواق العالم. بني القسم الغربي منه في ولاية محمد باشا العظم في عهد السلطان عبد الحميد الأول، وبني القسم الشرقي منه في ولاية راشد ناشد باشا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وأطلق على هذه السوق اسم (سوق الحميدية) التي تبدو بمثابة معرض دائم لأجمل مصنوعات دمشق وتحفها ونفائسها وهناك سوق مدحت باشا وسوق علي باشا الموره لي التي كانت بمثابة معرض للفواكه النادرة والثمار اللذيذة المعروضة بطريقة فنية جذابة...

وكان لحكم إبراهيم باشا بن محمد علي باشا في سورية 1832 ـ 1840 أثره الكبير في انفتاح دمشق على الحضارة الأوروبية وعمارتها وتطوير العمارة المحلية. ومن أهم المباني التي شيدت في عهد الوالي حسين ناظم باشا ما يلي:

- الثكنة الحميدية (مبنى كلية الشريعة والحقوق حالياً)
- السرايا (مبنى وزارة الداخلية حالياً)
- دار البلدية (في ساحة المرجة شيد مكانها أحد المباني البرجية)
- دار العدل ومبنى البريد والهاتف (مكان مجمع الباسل في ساحة المرجة)
- مبنى المستشفى الوطني الذي قام بوظيفته الطبية مقام البيمارستان النوري وأصبح حالياً قاعة رضا سعيد للمحاضرات والنشاطات الثقافية المختلفة
- مبنى دار المعلمين (أصبح مقر وزارة التربية، ثم أصبح مقر وزارة السياحة حالياً علماً أنه كان مقر معهد تدريس الحقوق).
- مبنى ناظم باشا في حي المهاجرين (القصر الجمهوري سابقاً)
- مبنى عزة باشا العابد (المطل على ساحة المرجة)
- مبنى زيوار باشا (جنوب المستشفى الإيطالي، اتخذ مقراً لمعهد الطب عام 1903م وأصبح حالياً ثانوية جول جمال للإناث).

واتخذ (مكتب عنبر) مدرسة، وذلك قبل أن يتخذ مبنى المعرض ليكون ثانوية جودة الهاشمي وأصبح حالياً قصراً للثقافة.

وهناك مباني الفنادق المختلفة والمقاهي والمسارح والقصور والنوادي والجمعيات.. وغيرها مثل: فندق فكتوريا، ومقهى الورد، ومسرح زهرة دمشق، وقصر شمعايا، والنادي العربي...

وظهر (حي الحلبوني) الذي أسسه (حسن باشا الحلبوني) وشيد فيه قصره جانب مسجده.

وازدادت أهمية (حي القصاع). وكان مبنى (مستشفى فكتوريا الاسكوتلندي) أو الإنكليزي أول مبنى شيد في هذا الحي عام 1896 ثم شيد مبنى (مستشفى القديس لويس) عام 1904. ثم أقام اللاجئون الأرمن فيه
عام 1904.

واشتهر حي القيمرية بفعاليته الاقتصادية مما جعله يعرف باسم (الهند الصغيرة) وتميّز حي (سوق صاروجه) بجمال مبانيه ذات الطراز المعماري العثماني مما جعله يعرف باسم (استانبول الصغرى).

واعتبر مشروع (جر مياه عين الفيجة إلى دمشق) من أهم المشاريع التي تحققت في عهد الوالي حسين ناظم باشا. وقد تبنته فيما بعد (لجنة وطنية) عرفت باسم (لجنة مياه عين الفيجة) عام 1924.

وكان لتحالف الدولة العثمانية مع الإمبراطورية الألمانية أثره في ظهور مشاريع السكك الحديدية في سورية وتحقيق مشروع (خط دمشق - بيروت) و(دمشق - حوران - المدينة المنورة) ويعتبر مبنى محطة الحجاز من أجمل مباني العصر العثماني.

وفتحت في دمشق طرق حديثة تصل مدينة دمشق القديمة بالأحياء الحديثة. وقد عهد إلى شركة بلجيكية بإضاءة دمشق بالكهرباء، والقيام بتسيير (حافلات الترام) من المرجة إلى الميدانن ومن المرجة إلى الجسر الأبيض، ثم وصلت هذه الحافلات إلى حي الشيخ محي الدين، وإلى حي المهاجرين، ومن المرجة إلى حي القصاع، وأخيراً إلى (دوما)، وذلك قبل أن تحل سيارات الباصات نهائياً محل حافلات الترام.

وزينت ساحة المرجة بنصب برونزي تذكاري جميل وذلك بمناسبة الاحتفال بتمديد خطوط هاتف دمشق - المدينة المنورة عام 1911.

وظهرت أهمية الشارع الممتد من محطة الحجاز إلى سوق الحميدية، وعرف فيما بعد باسم (شارع النصر) نسبة إلى أحد أبواب دمشق القديمة (باب النصر) الذي كان قرب مدخل سوق الحميدية.

وبعدما كانت الصالحية بلدة منعزلة عن

مدينة دمشق القديمة، ظهرت المباني على طرفي طريق امتد من الصالحية إلى مدينة دمشق القديمة، وذلك بعد ظهور أحياء سكنية صغيرة حول أضرحة (شهداء) في حي عرف باسمهم (حي الشهداء) والجدير بالذكر أ، أول مبنى أنشئ خارج بوابة الصالحية كان (مبنى المستشفى العسكري) الذي يعود إلى عام 1865م حل محله مبنى سينما الحمراء والمباني المجاورة.

وتجدر الإشارة إلى الدراسات العمرانية التي تمت في بداية القرن العشرين وبخاصة (خريطة شرطة دمشق) التي كانت كمخطط طوبوغرافي وضعه مهندس في العصر العثماني يوضح بداية توسع دمشق خارج الأسوار وقد أعادت الجمعية الجغرافية السورية طباعة هذه الخريطة الهامة.

دمشق في فترة الانتداب 1920 ـ 1945

في فترة الانتداب الفرنسي، وضعت خريطة دمشق عام 1921 ـ 1924 كمخطط طوبوغرافي وضعته بلدية دمشق بإشراف (فيبرلوسيان WIEBERT LUCIEN). واهتمت سلطات الانتداب بتحسين شبكة الطرقات لتلبية حاجاتها إلى نقل قواتها العسكرية ففتحت شارع بغداد شمال مدينة دمشق، وذلك لفصل المدينة القديمة عن بساتينها التي كان يفيد منها المجاهدون في عملياتهم الجهادية.

وتألفت (مصلحة الأشغال العامة)، ووضع (مخطط دمشق) من قبل (دانجه) بمساعدة (ايكوشار) الذي كلف فيما بعد بإعداد مخطط تنظيمي لكل من (دمر) و(المزة) وتجدر الإشارة إلى إنجاز (أعمال المساحة) المفيد والمتميز بالدقة. أضف إلى ذلك الإحصاءات المفيدة المختلفة.

وتوسعت دمشق في جهة سفح جبل قاسيون. وبعدما كان (حي العفيف) منتزهاً يعرف باسم (منتزه السهم) الذي أنشد فيه الشاعر القيراطي قائلاً:

على نفسه فليبك من ضاع

وليس فه فيها نصيب ولا

أصبح هذا المنتزه حياً جديداً من أحياء دمشق الحديثة في سفح جبل قاسيون.

وفي عام 1935 وضع مخطط تنظيمي جديد لمدينة دمشق التي شهدت ظهور (حي الشعلان) وغيره.

توسع دمشق بعد جلاء القوات الأجنبية:

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وجلاء القوات الأجنبية عن أرض الوطن شهدت دمشق نهضة عمرانية ومعمارية متميزة. وظهرت أحياء سكنية حديثة ذات طابع أوروبي في غرب مدينة دمشق مثل: (حي أبو رمانة) و(حي المالكي)... وغيره.

كما ظهرت أحياء شعبية في مختلفة

ضواحي دمشق، ووصلت مبانيها السكنية إلى مختلفة القرى المجاورة (مثل القابون وبرزة، والتل ودمر، والمزة وقدسيا وكفر سوسة وحرستا.. غيرها)

وإن انتقال الكثيرين من مختلف المحافظات السورية إلى دمشق أدى إلى ظهور ما يعرف باسم (المخالفات السكنية).

وإن الأحداث المختلفة أدى إلى هجر الكثيرين من الأقطار العربية إلى دمشق وبخاصة لجوء الأخوة الفلسطينيين إلى دمشق مما أدى إلى ظهور (مخيم فلسطين) و(مخيم اليرموك).

وإن تضاعف عدد سكان دمشق أدى إلى ظهور أزمات سكنية أضف إلى ذلك أزمات في الخدمات وبخاصة المواصلات والمياه والكهرباء والهاتف والتموين والصحة والدراسة... وغيرها..

كل هذا تطلب مواجهة هذه القضايا المعاصرة، ووجوب إيجاد الحلول المناسبة لها، في عصر تميز بالصراع بين الجديد والقديم، وظهور متطلبات جديدة وعديدة رفعت الإنسان المعاصر إلى العمل المستمر. ورغم الجهود المتمثلة في المخطط التنظيمي لعام 1968، فقد تبين للمختصين أمور كثيرة تتطلب المعالجة الواعية.

مستقبل دمشق ودمشق المستقبل:

تميزت دمشق بتاريخها وتراثها المعماري وأمجادها. وتعكس مبانيها مراحل الحضارات المتعاقبة. مما جعلها بمثابة سجل للعمارة والعمران، و(متحف عمراني ومعماري) يهم كل من يتمتع بالحس الحضاري ويحرص على حفظ التراث المعماري والقومي والإنساني في عصر تطلب التطور المستمر ومواكبة مسيرة الحضارة العالمية المعاصرة.

إن العمارة مرآة الحضارة، وإن المباني المعمارية بمثابة الذاكرة الحضارية، مما يتطلب منا جميعاً المحافظة عليها، والتمسّك بهويتنا الحضارية وشخصيتنا القومية.

إن (دمشق الماضي) لها مركزها اللائق بها في الحاضر والمستقبل، مما يتطلب منا وضع (خطة دمشق المستقبل) من شأنها أن تلبّي طلبات الإنسان المعاصر وتحقق أمنياته السعيدة في عصر أصبح شعاره (السعادة للجميع).

وإن اتصال الأمم ببعضها أسهم جدياً في نمو السياحة الدولية وازدهارها. كما أسهم في تفاعل الثقافات في العالم، وإن خصائص دمشق المتميزة تجعل لها مستقبلاً مشرقاً.

والخلاصة:

تتميز دمشق بكونها المدينة العربية المتجددة الشباب. أسهمت الأجيال المتعاقبة في نشوئها وتطورها وازدهارها والدفاع عنها والمحافظة على تراثها العمراني والمعماري وإغنائه.

وإذا كان من حقنا جميعاً أن نفخر بدمشق، فإن من واجبنا جميعاً أن نعمل في سبيل المحافظة على تراثها وطابعها العربي الأصيل لتكون باستمرار إحدى (عواصم العالم القديم والحديث) وتكون تجربتنا في المحافظة على تراثها العمراني والمعماري تجربة رائدة تنسجم مع أمل مجتمعنا العربي في التقدم والتطور في الحاضر والغد السعيد.

من المراجع:

- محمد كرد علي: دمشق ـ مدينة السحر والشعر. سلسلة اقرأ ـ 16.
- صلاح المنجد: دمشق القديمة أسوارها أبراجها أبوابها دمشق 1945.
- جورج حداد: دمشق في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب (مجلة الحوليات 1951).
- عبد القادر الريحاوي: مدينة دمشق، تراثها ومعالمها التاريخية، دمشق 1969.
- بشير زهدي: دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور 1982.
- فاطمة جود الله: سوريا نبع الحضارات 1999.
- صلاح الدين محمد: الشام الجديدة 1996.
- منير كيال: الحمامات الدمشقية وتقاليدها 1964
- د. طلال عقيلي: الجامع في دمشق.

من الكتب المترجمة:

- كارل ولتسنجر وكارل واتسينجر: الآثار الإسلامية في مدينة دمشق تعريب قاسم طوير 1984.
- الفارس دارفيو: وصف دمشق في القرن السابع عشر. ترجمة أحمد ايبش 1982.
- دوروتيه زاك، دمشق، تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية ترجمة قاسم طوير

من المراجع الأجنبية:

J. SAUVAGET; MONUMENTS HISTORIQUES

J. SAUVAGET; ESQUISSE DUNE HISTOIRE DE LA VILLE DE DAMAS

❑❑

المكتبة الظاهرية صرح ثقافي من العصر المملوكي

غفران الناشف

أعزُ مكانٍ في الدُنى سَرُج سابحٍ

وخيرُ جليسٍ في الأَنامِ كتابُ

دمشق الشام كانت وستبقى على مرّ الأيام عاصمة للحضارة والثقافة، خالدة كخلود آثارها وأوابدها التاريخية موئل العلم والعلماء. ولعل انتشار المدارس بهذه المدينة الخالدة بدءاً من العصر المملوكي دليل وشاهد إثبات على ذلك.

وتعتبر المدرسة الظاهرية من أهم المدارس وأكثرها وضوحاً وأنطقها تاريخاً، فهي تحكي لنا عراقة الماضي في إعجاز تحفة معمارية لا تزال تقوم بوظيفتها إلى يومنا هذا.

وهذه إضاءة سريعة على أهم معلم أثري وكنز ثقافي في قلب القلب من دمشق القديمة، قبالة المدرسة العادلية، شمالي الجامع الأموي، إنَّها المدرسة الظاهرية درة المكتبات العربية والإسلامية، نظراً لما تحويه من مخطوطات قيمة وأمهات كتب المعارف الإنسانية. نسبت إلى الظاهر بيبرس أشهر ملوك المماليك الذين انشغلوا في بناء الصروح العلمية والمقابر عوضاً عن الدور والقصور نظراً لانشغالهم بخير الأمة.

أمّا الملك الظاهر فكانت الآراء مختلفة عن أصله إلا أن كتب التاريخ العربي ومنها (السلوك إلى معرفة دول الملوك) للمقريزي و(تاريخ الجيرتي) المشهور يوصلنا إلى حقيقة علمية مفادها أنه تركي من القبجاق (كازاخستان حالياً) بِيعَ في الرابعة عشرة من عمره في سوق الرقيق بدمشق، فاشتراه الأمير علاء الدين الصالحي البندقداري لينتقل بعدها إلى خدمة الملك الصالح أيوب بمصر الذي لقبه بركن الدين.

سَطَع نجم الظاهر البيبرس في سماء الدولة العربية أثناء الحملة الصليبية السابعة وتحديداً في موقعة المنصورة حيث قضى على الحملة وأسر قائدها الملك لويس التاسع، كما اشترك في موقعة (عين جالوت) الشهيرة 1260م وتعقب الجيش المغولي حتى دمشق وحلب، ليصل بعدها إلى دفة الحكم مُلقباً نفسه (الظاهر) وليستمر حكمه سبعة عشر عاماً ساد فيها العدل وتوطد الأمن وتمت فيه مقارعة الطامعين بالأراضي الإسلامية.

لقد حَظي الظاهر بيبرس باهتمام المؤرخين لما قام به على الصعيدين العسكري (قتال الصليبيين وطرد المغول) والفكري (بناء المدارس) وتعظيماً له وإجلالاً لدوره في التاريخ العربي الإسلامي. أفرد له المؤرخون السيرة الذاتية، ومنهم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) واختصرها شافع بن علي بكتاب (المناقب السرية في السيرة الظاهرية) وألف له عز الدين محمد بن علي بن شداد كتاباً أيضاً سماه (تاريخ الملك الظاهر).

وأهم ما جاء بهذه الكتب عن شخصية هذا الفارس النبيل محبته للعلم وتقربه من العلماء وإجلالهم وإكبارهم، فأنشأ المدرسة الظاهرية بالقاهرة واستمرَّ بناؤها عامين، وفكر أيضاً في إنشاء مدرسة بدمشق ولكن حلمه لم يتحقق حيث وافته المنية، فوصى ابنه ببناء المدرسة، أما البناء فيعود تاريخه إلى القرن الرابع الهجري حيث كان داراً لأحد الأشراف (أحمد بن حسن العقيقي) المتوفى سنة 378هـ.

ولما تولى السلطان نجم الدين الأيوبي (والد صلاح الدين) الحكم بدمشق اشتراها من ورثة العقيقي وجعلها مقراً لإقامة أولاده عند قدومهم إلى دمشق حيث نزل بها الملك العادل وأخوه السلطان صلاح الدين عندما دخل دمشق فاتحاً سنة 569هـ وأيضاً الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب (حيث بنى قبالتها من جهة الغرب سنة 591هـ مدرسة عظيمة البنيان وقبة لدفنه لا يفصلها عن الظاهرية غير الطريق حيث توفي سنة 615هـ ودفن بالقلعة ولم يكمل بناء قبته فأتمها ولده الملك المعظم عيسى وعند انتهاء البناء نَقَل تابوت والده من القلعة إلى تربته سنة 619هـ فسميت المدرسة والتربة بالعادلية الكبرى)، كما سكنتها ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين حتى توفيت سنة 643هـ.

وبعد أفول نجم الدولة الأيوبية انتقلت هذه الدار إلى الأمير فارس الدين أقطاي، ومن ورثته اشتراها الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس، وبنى فيها قبة لدفن والده، وأمر بجعلها مدرسة يؤمها طلاب العلم ثم عُزِلَ الملك السعيد كما عُزل أخوه بعده، وأصبح السلطان قلاوون حاكماً على دمشق، فأمر

باستمرار البناء في المدرسة حيث انتهى البناء سنة 676هـ. وفي السنة ذاتها وصلت أرملة الظاهر بيبرس ومعها جثمان ابنها السعيد فدفنته إلى جانب قبر أبيه.

بناء المدرسة الظاهرية آية باهرة من آيات فن العمارة العربية تتحدى الزمن والفناء بروعة وإحلال، وأجادت يد المهندس الفنان إبراهيم بن غانم بأجمل إبداع لتتألق لؤلؤة إلى جانب أخواتها وكلنا قرأ عن التحفة الفنية (القصر الأبلق) الذي شيده هذا المبدع للملك الظاهر أيضاً سنة 668هـ فكان بحق من عجائب الدنيا وبجدارة تحفة الزمان والمسمى (القصر الأبلق) المشرف على الميدان الأخضر الذي هدمه السلطان العثماني سليمان القانوني وبنى عليه التكية السليمانية.

وفتحت المدرسة أبوابها لأول مرة سنة 677هـ وبقيت خلال قرون مصاحبة علماء الشافعية والحنفية ومحدثيها الذين تتالوا بحمل عبء العلم والفقه وأمانة تعليمه للأجيال الناشئة فأحسنوا النهوض بها، وكانوا خيرة من وفى حق العلم والدين حتى كانت نهاية القرن الثالث عشر الهجري لتدخل المدرسة مرحلة جديدة حيث حولها العثمانيون إلى مدرسة ابتدائية حملت اسم الظاهر سنة 1294هـ.

المكتبة الظاهرية قدمت خدمات علمية لسبعة قرون ونيف

استمر الحال على هذا المنوال إلى أن هيأ الله لهذا البلد فئة مثقفة أنارت هذه الظلمة الداجية من الجهل والأمية التي أصابت الأمة العربية. وكان التغيير على يد رائد النهضة العلمية المصلح المرشد (الشيخ طاهر الجزائري) وزميله (الشيخ سليم الحجارمي) اللذين وافاهما الظرف السياسي والمناخ الثقافي بتعيين (مدحت باشا) والياً على الشام سنة 1295 ـ 1296هـ. وبناء على رغبتهما صدر قرار سنة 1295 بجمع الكتب والمخطوطات في مكتبة عامة يكون مقرها (تربة الملك الظاهر) وجمعت المئات منها وكان من أهم مصادرها المكتبات الخاصة والعامة وعددها عشراً وهي: مكتبة المدرسة العمرية ـ مكتبة المدرسة الشيمصانية ـ مكتبة المدرسة الياغوشية ـ مكتبة الأوقاف ـ مكتبة بين الخطابة في الجامع الأموي ـ مكتبة عبد الله باشا العظم ـ مكتبة سليمان باشا ـ مكتبة الملاعثمان الكردي ـ مكتبة مدرسة الخياطين ـ مكتبة المدرسة المرادية. هذا وقد كانت المحصلة الأولى 2453 كتاباً ومخطوطاً في شتى ضروب العلم والمعرفة، وتم افتتاح قاعة المطالعة سنة 1298هـ للعلماء وطالبي العلم ليتزودوا من كنوزها بخير زاد.

وبدأت أعداد الكتب تزداد نتيجة الشراء والاستهداء حتى بلغت سنة 1980م: 12

ألف مخطوطة و65 ألف كتاب و45 ألف مجلة.

وعندما قامت الحكومة العربية بدمشق (1918 - 1920) م دعيت الظاهرية باسم دار الكتب الظاهرية وأسند إلى مجمع اللغة العربية أمر الإشراف عليها، وتخرج بها ومنها علماء ومثقفون ومشايخ كان لهم دور القناديل التي أضاءت لهذه الأمة ليلها الدامس بالجهل والأمية، بدءاً من التعريب إلى المصطلحات وتحقيق المخطوطات وطبع الكتب التراثية النادرة.

يبلغ رواد المكتبة في العام الواحد وسطياً حوالي 45 ألف طالب علم من مختلف المستويات، ويبلغ عدد الكتب المعارة 30 ألف كتاب، ويزورها سنوياً سياح عرب وأجانب وسطياً أكثر من 10.000 سائح أما بالنسبة للكتب الموجودة اليوم فيها فيبلغ عددها حوالي 72 ألف كتاب، كما تضم المكتبة قسماً خاصاً للمجلات والدوريات القديمة والصحف الرسمية والجرائد الخاصة وتضم المكتبة اليوم قاعة خاصة للباحثين الذين يعدّون رسائلهم الجامعية، وقاعة كبيرة للمطالعة. تحمل اسم علم كبير كان رئيساً للمجمع العلامة مصطفى الشهابي وثلاثة مستودعات للمطبوعات والدوريات أما الكتب فهي مُدرّجة في فهارس علمية وفق أحدث أساليب التصنيف لتيسر لرواد المكتبة الحصول على المصادر بسهولة وسرعة.

والمكتبة في خزائنها كتب ذات أهمية علمية وقيمة تاريخية مثل كتاب (القانون في الطب) لابن سينا سنة 1593 و(الكليات) لأبي البقاء الكفوي طبع 1300م وتاريخ الدولة الإسلامية في المغرب لابن خلدون طبع سنة 1297م ولسان العرب لابن منظور طبع 1300م والأسماء والمصنفات طبع 1313م وحرصاً من المجمع على تلك المؤلفات العلمية والتراثية الهامة من التلف والضياع ولعدم توفر شروط الحفظ والحماية من الاهتراء وتآكل الورق، فقد تم نقل المخطوطات كلها وحوالي خمسة آلاف كتاب قيّم إلى مكتبة الأسد الأخت التوأم للظاهرية والتي تشاطرها المهمة الثقافية السامية في سنة 1980.

بناء الظاهرية روعة وجمال

أروع ما في المدرسة بوابتها الضخمة المزين سقفها بالمقرنصات البديعة، والتربة ذات القبة العالية التي تحتل الركن الشمالي الغربي وتضم قبري الظاهر وابنه الملك السعيد، وأجمل ما فيها المحراب الجميل بزخارفه الرائعة المكونة من الرخام والفسيفساء الرخامية والزجاجية، أما الضريح فله واجهة من أتحف ما بني في العصر المملوكي بدمشق مشيدة من الحجر المنحوت، وقد بني بحجارة بيضاء وصفراء، ويعلو الباب الرئيسي ثلاثة أسطر عريضة من الكتابة بخط الثلث المملوكي الجميل وتعلوه قبة نصف دائرية

نقشت عليها مقرنصات حجرية جميلة.

بقي أن نشير إلى أن مجمع اللغة العربية يقوم حالياً بمشروع كبير وهام للمكتبة حيث يتم استملاك أراضي ملاصقة للبناء، وعملية الترميم متواصلة بجهد وفنية عالية ليعاد إليها رونقها مما يؤهلها من جديد لاستمرار مهمتها الثقافية والتراثية مع الحفاظ على الطراز الهندسي والشكل المعماري الذي تتميز به هذه المكتبة، ولعل ترميم المدرسة العادلية كان خير إنجاز هندسي حضاري حافظ على الأصالة والتراث.

المراجع:

- القطوف الدانية. الجزء الثاني ـ القسم الأول. يضم مجمل آثار العلامة شاكر الفحام (رحمه الله) جمعها وصنفها وقدم لها الأستاذ محمود الأرناؤوط ـ طبع وزارة الثقافة، دمشق.
- دار الكتب الوطنية الظاهرية في دمشق الأستاذ محمد مروان مراد.

مجلة أصدقاء دمشق نشرة تشرين الثاني سنة 2007.

- المدرسة الظاهرية للأستاذة أسماء محاسني.
- تاريخ المجمع العلمي للأستاذ أحمد فتيح.

❑❑

التراث المغاربي بالمكتبة الظاهرية بدمشق
الشيخ طاهر الجزائري أنموذجاً
(1263 هـ - 1338 هـ /1844م - 1920م)

حمدادو بن عمر

تقديم

اشتهرت دمشق بمكتباتها الوقفية خاصة ما كان موقوفاً في المدارس والمساجد، وعلى مدى العصور الإسلامية كانت محتويات مكتباتها من المخصوصات والذخائر العلمية تفوق ما في مكتبات المدن الأخرى في الدولة الإسلامية، وبقيت منها بقية في القرن التاسع عشر، وضاع القسم الأكبر منها، فبعضها خطف من قبل المقيمين عليها من غير الشرفاء فضاع أكثره (ما بين نهب واختلاس، وإهداء للزلفى وكسب الخطوة لدى السلاطين) وكان لا بد من اتخاذ خطوة جادة للحفاظ على البقية الباقية من الكتب والمخطوطات قبل أن تتلاشى تلك المكتبات وتنطمس معالمها والتي لم يبق منها سوى بعضها بعد أن "كان عدد تلك الخزائن أيام عزها ينيف على الخمسين فهبط إلى العشرة" ويسر الله لهذه المهمة الشيخ طاهر الجزائري الذي أدرك حجم المصيبة وقرر أن يتصدى لمقاومتها(1).

وما كان الأمر يتسنى له القيام بهذا الأمر دون مشورة أهل العلم ومساندة ذوي السلطان، فالكتب موقوفة على أهل العلم والوقف في الإسلام له أحكام أصول، فلا بد حيال ذلك من مشاورة العلماء ومفاوضتهم لأخذ الموافقة على ما ارتأى فعله، من جمع ما تبقى من الكتب في تلك الخزائن، فأقرته طائفة منهم، ومساندة الوالي مدحت باشا الذي أمر بنقل الكتب والمخطوطات من المدارس، وأخذت الجمعية الخيرية على عاتقها هذا الأمر، فجمعت الكتب والمخطوطات وتم نقلها إلى قاعة خصصت لهذا لغرض في شطر من مدرسة الملك الظاهر بيبرس تحت القبة(2).

ولم يرق الأمر للقائمين على تلك الأوقاف

ومانعوا ممانعة عظيمة بلغت حد التهديد بالقتل إن لم يكف عن جمع الكتب، ولكنه استمر في عمله لإتمام ما عزم عليه ونقل ما كان موجوداً إلى مسجد الظاهر لتأسيس المكتبة الظاهرية.

وهكذا تأسست المكتبة الظاهرية كمكتبة عامة، وجعلت لها الحكومة إدارة خاصة وعينت لها قواماً وسنّت لها قانوناً يضمن صيانتها على غرار المكتبات الكبرى في دول العالم "ووضعوا لها شرائط المكاتب الكبرى وذلك عام 1879 فجاءت مؤلفة من 3453 كتاباً منوعة عدا الكراريس والأوراق المتفوقة وفق ما جاء في الفهرست المطبوع بعد سنة من افتتاحها للطلاب.

كما جُمعت لها الكتب والمخطوطات من عدد من خزائن الكتب أشهرها عشرة هي: المدرسة العمرية، مكتبة عب الله باشا العظم، مكتبة سليمان باشا العظم، مكتبة الملا عثمان الكردي، مكتبة الخياطين، مكتبة المرادية، مكتبة الشميصانية، مكتبة الياغوشية، مكتبة الأوقاف، مكتبة بيت الخطابة، بالإضافة إلى مكتبات أخرى لا تتعدى المصنفات المأخوذة منها خمسة أو ستة مصنفات من المكتبة الواحدة مثل المكتبة الأحمدية ومكتبة الكزبر. وإضافة إلى ما جمعه لها من خزائن الكتب فقد عمد إلى تزويدها بالكتب النافعة مما نُشر في الغرب ففي زمن رؤوف بك والي دمشق أوائل هذا القرن جمع لها بتزيين صديقيه الأستاذين الجزائري والبخاري نحو خمسمائة ليرة وابتاع لها كمية من المكتب(3).

وأصبحت المكتبة تشكل منارة سياحية وأثرية هامة حيث تتميز بأبنيتها المعمارية الجميلة والتي يؤمها السياح من كل أصقاع الدنيا ليتمتعوا بروعة هندستها. وعن الأبنية التي تشغلها هذه المكتبة فإن هذه المكتبة كانت عبارة عن مدارس لتخريج العلماء والباحثين حيث تضم بناءين أثريين هما من الأوابد الأثرية والمعالم السياحية في دمشق ويعتبران نموذجاً لطراز العمارة والهندسة البنائية في العهدين الأيوبي والمملوكي والداخل إلى باحتي المدرستين يستذكر أصحابهما ومن قام على إنشائهما فيعيش التاريخ حياً متجدداً حيث يشاهد أحداث طائفية كبيرة من العلماء والأعلام مثل ابن خلدون وابن مالك وابن يعيش وأبو شامة المقدسي وقد تخرجت من المدرستين أعداداً لا تحصى من طلبة علوم الدين والدنيا(4).

وأضافوا إن المكتبة الظاهرية التي تنسب إلى الظاهر بيبرس تضم بناءين هما المدرسة العادلية الكبرى ووضع أساسها السلطان نور الدين زنكي سنة 568 لدراسة الفقه الشافعي وأكمل بناء المدرسة الملك العادل الأيوبي وابنه الملك المعظم حيث ما زال ضريحاهما داخل غرفة خاصة في البناء المذكور وقد

اتخذت هذه المدرسة مقراً للمجمع العلمي بدمشق سنة 1919 وهو مجمع اللغة العربية اليوم. وتجدر بنا الإشارة إلى التنويه بمؤسس المكتبة ودوره في حفظ التراث، ومن ثم ذكر لأهم المخطوطات الجزائرية بالمكتبة الظاهرية بدمشق(5).

مؤسس المكتبة الظاهرية بدمشق:

هو طاهر بن محمد صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني، المشهور بالجزائري. هاجر والده من الجزائر إلى دمشق سنة 1263هـ (1847)، وكان من بيت علم وشرف، تولى قضاء المالكية، حيث كان فقيهها في دمشق ومفتيها في الشام.

ولد طاهر الجزائري في دمشق سنة 1852، وتعلم في مدارسها، حيث دخل المدرسة الجقمقية الإعدادية وتتلمذ على الأستاذ عبد الرحمن البستاني، فأخذ عنه العربية والفارسية والتركية ومبادئ العلوم، كما قرأ على أبيه أيضاً، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني، ولازمه إلى أن وافاه الأجل، وكان شيخه الميداني فقيهاً عارفاً بزمانه واسع النظر، معروفاً بوقوفه على لباب الشريعة وأسرارها، وببعده عن البدع وإتباع الأوهام والبعد عن حب الظهور والتفصح في المجالس، على قدم السلف الصالح بتقواه وزهده، وعلى نهجه سار تلميذه الجزائري فشب محباً للعلم على اختلاف فروعه خاصة علم الطبيعة، يفتش عن مصادره المطبوعة والمخطوطة ويقتنيها، ويتلقف بشوق ما يسمعه من أحاديث العلماء الذين تلقوا العلم في المدارس العالية أو الأجنبية، فإذا به يدخر حصيلة كبيرة قيمة من العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية والتاريخية والأثرية إلى جانب ما وعاه من علوم العربية والفقه(6).

أتقن الجزائري اللغة العربية وأتقن الفارسية والتركية، ونظم بالفارسية كما نظم بالعربية، وتعلم الفرنسية وتكلم بها، وكذلك تعلم السريانية والعبرانية والحبشية، وكان يعرف القبائلية البربرية لغة موطنه، وتعلم كثيراً من الخطوط القديمة كالكوفي والمشجر والعبراني غيرها ليتسنى له دراسة الآثار.

شغف الجزائري بالكتب المطبوعة والمخطوطة، وعرف الجيد من أصنافها، كما عرف طبقات المؤلفين وتراجم الرجال، وأماكن المخطوطات والنسخ المتفرقة منها في الخزائن الشرقية والغربية، وساعده على إتقان ذلك قوة حافظته.

تولى طاهر الجزائري التدريس في المدرسة الظاهرية بدمشق، والتقى بالوالي مدحت باشا الذي وجد عنده البغية التي يريدها من أجل إصلاح ولاية سورية ورآه ثقة. فهو يبحث عن أمثاله ليستعين بهم في نشر العلم وإصلاح التعليم، وخطط من الشيخ طاهر لنهضة علمية واسعة، واتفقا على أن خير نهج يؤدي إلى النهضة يقوم على محو

الأمية، وكون هذا بنشر التعليم الابتدائي من قبل هيئات أهلية لا تعتمد على الأساليب الحكومية، تجمع المال من الموسرين وتنفقها في الأغراض المقررة، فتثمر جهودها في أقصر وقت ما دامت مؤيدة بعطف الوالي ونفوذه.

كان الشيخ الجزائري عضواً في جمعية علمية اجتماعية أسسها بعض العلماء والوجهاء في دمشق، أطلقوا عليها اسم (الجمعية الخيرية)، وقد اعتُمد على هذه الجمعية في تنفيذ خطة النهضة العلمية، فدأب أعضاؤها على توعية الناس وبث حب العلم والترغيب فيه بين الشباب، كما قامت الجمعية بترميم وتجهيز المدارس الموقوفة على طلب العلم، وكذلك ملحقات بعض الجوامع والتكايا، فتم في بعض أشهر افتتاح نحو تسع مدارس في مدينة دمشق اثنتين منها للإناث.

عُين الشيخ طاهر الجزائري بناء على جهوده مفتشاً للمعارف في ولاية سورية، فبذل جهوداً إضافية جبارة في سبيل إصلاح أساليب التعليم، وكان يتعهد المعلمين بالنصح والإرشاد والتوجيه، ويسمع بشغف آراءهم في ابتكار أنجح الوسائل لتعليم الطلاب والدعوة إلى طلب العلم. وكان يسهر الليالي الطويلة عاكفاً على تأليف الكتب في مختلف العلوم الدينية والعربية والرياضية، مبسطاً أساليبها مختاراً ما تدل التجارب على نجاحه وسهولة تلقينه، وكان يشرف بنفسه على طبع كتبه في مطبعة الجمعية الخيرية.

عمل الشيخ طاهر الجزائري على تأسيس دور عامة للكتب في مختلف البلاد، فكان منها دار الكتب الوطنية الظاهرية - وهي اليوم ثروة كبرى من ثروات دمشق الوطنية - فجمع فيها البقية الباقية من الكتب والمخطوطات الموقوفة في مختلفة الجوامع والمدارس، فهددته أكلة أوقاف المدارس بالقتل إن لم يكف عن جمع الكتب في مكان واحد، لأنه استولى بسيف الحكومة على جميع ما أبقته أيدي النهب من الكتب المخطوطة.

كذلك أسس الشيخ الجزائري بمساعدة آل الخالدي في القدس مكتبة وطنية باسم (المكتبة الخالدية) ضمت كتب الشيخ راغب الخالدي وكتب أسرته، وجمع فيها مخطوطات وكتب أخرى قيمة.

بعد أن سجن الوالي مدحت باشا، أُعفي الشيخ طاهر الجزائري من منصبه الحكومي، وعُرض عليه وظيفة أخرى لا يكون له فيها اتصال بالناس فأبى، ولزم بيته شاغلاً أوقاته بالمطالعة والتأليف، وعاش على بيع الكتب حتى آخر أيامه إلى من يرجو حفظها عندهم وعدم خروجها من الشام، كما واصل تتبع نوادر الكتب والمخطوطات، وكان يدون خلاصة ما يطلع عليه من مذكرات بلغت

مجلدين ضخمين.

وكان يسافر بين حين وآخر إلى مختلف البلاد العثمانية والبلاد الشرقية والأوروبية، يجتمع بعلمائها ومفكريها باحثاً في كنوز المكتبات عن مخطوطات التراث العربي. كثر تردد طلاب العلم على الشيخ طاهر الجزائري، مما زاد نشاطه الاجتماعي، ونشر الدعوة للعلم، كما تحلقت حوله طبقة من شيوخ دمشق والعلماء النابهين فيها، فكان يتحفهم بالدروس العلمية والفكرية، والسياسية، ومركزه الأساسي الذي يقيم به دروسه كان مدرسة عبد الله باشا في دمشق(8).

قال الأمير الشهابي: (في تلك المدة التي قضاها الشيخ طاهر الجزائري بالشام، كان يتحلق حوله في دمشق صفوة من المتعلمين والنبهاء والمفكرين العرب، فتألفت من جمعهم أكبر حلقة أدبية وثقافية، كانت تدعو إلى تعليم العلوم العصرية، ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي، وآداب اللغة العربية، والتمسك بمحاسن الخلاق الدينية والأخذ بالصالح من المدنية الغربية).

فقد كان الشيخ الجزائري يدعو المسلمين إلى تعلم دينهم، والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الحسنة والأخلاق القويمة، وأن يفتحوا قلوبهم لعلوم الأوائل والأواخر على اختلاف ضروبها، وكان يأخذ بأصح الأدلة من الكتاب والسنة ويجتهد بعدها، ولطالما أعطى الحق للمعتزلة والإباضية والشيعة في مسائل تفرد بها وضيقها أهل السنة، وكان يتفنن في بث الأفكار الصحيحة في العامة والناشئة.

قضى حياته يكافح الأمية، ويحارب التعصب، ويحرص على تعليم أولاد الأغنياء خاصة، لأن عندهم المال والجاه وبالتالي تأثيرهم في مجتمعهم أكبر، وحث على أن يتعلم المتعلمون صناعة أخرى، وكثيراً ما يقول: (تعلموا العلم، وتعلموا معه صناعة تعيشون بها حتى لا تقفوا على أرباب السلطان، تستجدون الوظائف والجرايات، فإذا احتاجت الحكومات إليكم أخذتكم لخدمتها، واعملوا بالنزاهة والاستقامة، وأخلصوا لها وللأمة القصد).

كما كانت له آراء شتى هدفها نهضة الأمة، والأخذ بالعلم والأخلاق، وإحياء التراث، وعدم التزلف للحكام ومهاجمة العلماء الجامدين الذين يغلقون باب الاجتهاد، وكان يحذر من الوقوع في حبائل الاستعمار.

كان الشيخ الجزائري يلقن مبادئه ويلقح العقول بأفكاره من حيث لا يشعر المتعلِّم، وكثيراً ما كان يغشى مجالس بعض العلماء الذين يتوسم فيهم صفاء السريرة، فيَظهر بمظهر المستفيد، وغايته إفادتهم خلال الدرس لتنتشر أفكاره بطريق السراية من الأساتذة إلى التلاميذ.

وكان نهجه في التعليم التيسير على المتعلم، وإعطاءه لباب العلم دون التعمق بما

لا يفيد، والأخذ بالتدريج من البسائط إلى المركبات، وكان يحب اختصار المطولات من كتب الفنون ليسهلها على المبتدئين، ولئن كان في مذهبه الديني مجتهداً فقد كان في تأليفه مقلداً يمشي على آثار القدماء، ولا يحب التوسع والتعليق على آراء المؤلفين المجددين.

كما كان الشيخ الجزائري يشجع على إنشاء الصحف السياسية والاجتماعية، والمجلات العلمية والأدبية، وكان يدعو إلى تناول الصحف النافعة ويبتهج بها، وله شغف بالإطلاع عليها وتتبعها، خصوصاً التي تكثر من الترجمة عند الغرب واقتطاف ثمرات علومه.

قال فيه تلميذه الشيخ سعيد الباني: (جمع بين المعقول والمنقول، ومزج القديم بالحديث، أخذ من كل علم لبابه، ونبذ لفاظته، فكنت تجد منه العالم الديني والمدني والرياضي والطبيعي والسياسي والأديب والمؤرخ والأثري والاجتماعي والأخلاقي والكاتب والشاعر، فكان عنده من كل علم خبر... فهو دائرة المعارف، ومفتاح العلوم، وكشاف مصطلحات الفنون، وقاموس الأعلام)(9).

في سنة 1898 عُين الشيخ الجزائري مفتشاً لدور الكتب العامة في دمشق، فعاود سيرته الأولى مبشراً بمبادئه، فبث أفكاره بين معارفه ومؤيديه لمدة أربع سنوات، ثم لما كان اسم الشيخ لدى رجال الحكم في رأس الداعين إلى التحرر في وقت ازدادت في السياسة اضطراباً، رحل الشيخ الجزائري خفية إلى مصر التي كانت يومئذ تنعم بالاستقرار وبشيء من الحرية والأمن، حاملاً معه ما استطاع من كتب قيمة ومخطوطات نادرة.

اتصل الشيخ الجزائري في مصر بالعلماء الذين عرفوا فضله بغية الإفادة من خبرته، كما كانت بين الشيخ والمستشرقين صداقات يراسلهم ويراسلونه على اختلاف قومياتهم، وزاره كثير منهم في رحلاتهم إلى الشرق، يقتبس منهم ما ينفع المسلمين، ويُقبسهم ما يثبت سماحة الإسلام ومدنيته ومجد المسلمين وتمدنهم، وهذا ما جعله في عداد حلقات السلسلة التي تصل الشرق بالغرب، كما شهد له الكثيرون. كما شارك الجزائري في تحرير بعض الصحف المصرية، وكان يعكف في لياليه وأوقات فراغه على التأليف، فكان من أهم آثاره في تلك الفترة كتاب في الحديث (توجيه النظر إلى أصول الأثر)، جمع فيه زبدة ما جاء في كتب أصول الفقه ومصطلح الحديث من القواعد والفوائد بشكل يدل على سعة إطلاع وفهم عميق لأسرار الشريعة(10).

عاد إلى دمشق سنة 1919 بعد قيام الدولة العربية، فعينته الحكومة العربية مديراً

عاماً لدار الكتب الوطنية الظاهرية، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي، إلا أن إقامته لم تدم أكثر من أربعة أشهر بسبب مرضه.

وفاته:

استحكم فيه مرض الربو، وقبيل وفاته بشهر قفل راجعاً إلى دمشق، وانتقل إلى رحمة ربه يوم 14 ربيع الثاني 1338 هـ و5 كانون الثاني سنة 1920م ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق حسب وصيته. فقد اشتد به مرض الربو، فتوفي يوم الاثنين الموافق 5 كانون الثانية سنة 1920، ودفن في سفح قاسيون تنفيذاً لوصيته. ترك الشيخ الجزائري الكثير من المؤلفات التي تدل على علمه الغزير وثقافته الواسعة، وطُبعت أكثرها في حياته وبإشرافه.

مؤلفاته:

ومن تآليفه المطبوعة:

- الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية.
- منية الأذكياء في قصص الأنبياء.
- مد الراحة إلى أخذ المساحة.
- مدخل الطلاب إلى فن الحساب.
- الفوائد الجسام في معرفة ضواحي الأجسام.
- ورسالة في النحو وأخرى في البديع وثالثة في البيان ورابعة في العروض.
- وكتاب تسهيل المجاز إلى فن المعمى والألغاز.
- وشرح ديوان خطب ابن نباتة.
- ومختصر البيان والتبيين للجاحظ.
- أما المخطوط فيتمثل في:
- تفسيره الكبير ويدخل في أربعة مجلدات مخطوطة محفوظة في دار الكتب الظاهرية.

دور الشيخ طاهر في الحفاظ على المخطوطات:

ومن شدة خوف الشيخ الجزائري على الكتب والمخطوطات النادرة من الضياع شكى إلى والي دمشق آنذاك مدحت باشا الذي ينسب إليه سوق مدحت باشا التاريخي حيث أصدر الأخير قراراً بأن تجمع الكتب الوقفية جميعها في مكان واحد، وتم ذلك بالفعل وجمعت في المدرسة الظاهرية، وسميت في العهد العثماني بالمكتبة العمومية وكانت أول وأكبر مكتبة عرفت في ديار الشام بما حوته من نوادر الكتب والمخطوطات.

وتضم المكتبة ثلاث قاعات: قاعة الأمير مصطفى الشهابي وقاعة الشيخ طاهر الجزائري وقاعة خليل مردم ويؤم المكتبة الطلابية من المرحلة الإعدادية حتى الجامعية، أما قاعة مردم فهي خاصة بالباحثين والمؤلفين حيث توضع تحت تصرفهم كافة المراجع والمخطوطات والكتب

القيمة لإنجاز أبحاثهم.

ويبلغ رواد المكتبة في العام الواحد وسطياً حوالي 45 ألف طالب علم وتبلغ عدد الكتب المعارة في السنة الواحدة 30 ألف كتاب ويزورها سنوياً سياح عرب وأجانب يبلغ عددهم وسطياً 5000 سائح.

كما بلغ عدد الكتب الموجودة في المكتبة الظاهرية 72 ألف كتاب وما يقرب من 85 ألف مجلة مقسمة إلى أصول وفروع حسب علاقتها بذلك الأصل، وهذه الأصول عبارة عن ثمانية عشر صنفاً تضم 53 فرعاً جميعها في الخزائن.

أما قسم المخطوطات والحديث للقائمين على المكتبة فقد بلغت محتوياته 13 ألف مخطوط قديم ونادر وأقدم المخطوطات كتاب مسائل الإمام أحمد بن خليل المنسوخ في عام 260 هجري، وتضم المكتبة كذلك قسماً خاصاً بالصحف والمجلات وأمهات الكتب والدوريات والمعاجم.

أما المبنى الثاني من المكتبة الظاهرية والمقابل للمدرسة الظاهرية حيث يفصل بينهما زقاق فقط هو المدرسة العادلية التي ظلت على مدى سبع قرون ونصف تدرس اللغة العربية كما شهدت أحداثاً هامة.

وقسمها الملك العادل إلى قسمين قسم الفقه، وقسم للقراءات والعلوم العربية، وفي عهد نور الدين زنكي الملقب بالشهيد صارت مقراً للعلماء والفقهاء، وفي عام 1920 ميلادي تأسس فيها المجمع العلمي العربي وظل يشغل المدرسة حتى انتقاله لمقره الجديد قبل حوالي ربع قرن في حي المالكي بدمشق.

والمدرسة العادلية التي ما زالت ملكيتها تعود لمجمع اللغة العربية هي والظاهرية، يقوم المجمع حالياً بمشروع ترميم كبير في العادلية لينتقل بعدها الترميم إلى المدرسة الظاهرية.

تعلقه بالكتب وموسوعيته:

يصف محمد كرد علي شيخه بأنه مجموعة نفيسة من العلوم ومكتبة سيّارة ضمت خباياها المفسّر والمحدث والأصولي والفقيه والفيلسوف والأديب واللغوي والكاتب والشاعر والمؤرخ والأثري والطبيعي والرياضي والفلكي والاجتماعي والأخلاقي. فأية موسوعة تحوي من المعارف أكثر من هذا؟ ويقول في موضع آخر نقله عن الخطيب "كان يتقن علوم العربية، ويحفظ وقائع التاريخ، أتقن علوم الدين والدنيا.

أما تلميذه الآخر محمد سعيد الباني فيرى أنه في شمول معرفته وموسوعيته "قل من يدانيه من معاصريه بإحاطته وسعة اطلاعه، جمع بين المعقول والمنقول، ومزج القديم بالحديث، أخذ من كل علم لبابه ونبذ لفاظته" وبعد أن يعدّد العلوم التي ألم بها

أستاذه يقول "فهو دائرة المعارف، ومفتاح العلوم وكشاف مصطلحات الفنون وقاموس الأعلام".

كان كثير القراءات متنوعها تكاد قراءاته وفق شهادة معاصريه وتلامذته تغطي كل ما طبع في الشرق والغرب باللغة العربية أو ترجم إليها إضافة إلى المخطوطات التي ربما فاقت المطبوعات، لا ينسى ما يقرأ مهما طال به العهد، تساعده ملكة قوية في الحفظ وسريعة حتى يكاد يحفظ معظم ما يتصفحه ويتلوه، وكان دائم البحث عن الكتب ونوادر المخطوطات في المكتبات وخزائن الكتب، يرحل في طلبها ويتقنها "إذا زاد دخله عن حاجته أسرع إلى الوراقين يشتري بما عنده من مال ما يتنفع به"، فالكتب عنده أعز أصدقائه لا يمل من مجالستها والإطلاع عليها واكتشاف خبايها، يقرأها ويعيد قراءة الكتاب الجيد أكثر من مرة. يحملها معه أينما ذهب" وكانت جيوبه وأعبابه مفعمة على الدوام من الرسائل والدفاتر والجرائد والمجلات والكناشات والأوراق كأنها حانوت ورّاق وكان فراشه محاطاً بسور من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام"(11).

يقرأ الكتب والمخطوطات ويختصرها ويعلق عليها، ويكتب رأيه فيها في مذكرات يقول عنها محمد كرد علي أنها غريبة في بابها فبينما ينقل رأياً في التفسير إذا به ينقل جملاً طويلة في مذهب النشوء والارتقاء أو رأياً جديداً للماديين.

لقد هيأت له معرفته الواسعة بالكتب واطلاعه عليها أن يكون علماً من أعلام الببليوغرافيا يكاد ينفرد بين علماء الشرق والغرب في معرفة الكتب وما تحويه من علوم فيدل كل واحد من طلابه على ما يجب مطالعته من الكتب وفق استعداده.

يعرف الكتب ومؤلفيها وموضوعاتها وأبوابها التي تشتمل عليها وأرقامها في فهارس المكتبات. ففي رسالة إلى تلميذه محمد كرد علي ينصحه فيها بوصف بعض المخطوطات يتبين مدى معرفته بها يحفظ عنوان المخطوطة وموضعها ورقمها في الفهارس "أرجوزة ابن سيدة" وهي من قبيل الملح اللغوية في نمره، ومن الأدبيات المنظومة مع ديوان أبي العتاهية. ويعرف المخطوطات الموجودة في كل مكتبة من المكتبات ويصف شكلها المادي "المجمل في اللغة في الطاهرية نسخة ناقصة من الطرفين". ويعرف طريقة ترتيب مواد الكتب ويحفظ صورة سماع كل منها "الأربعون السلفية وهي مرتبة على البلدان، وممن سمعها على السلفي الملك الناصر صلاح الدين"(12).

كان يدرك أهمية الضبط الببليوغرافي ويدعو إلى الاهتمام بتسجيل أسماء الرجال الذين يرجع إليهم عند الخاصة فحين "اشتد به المرض كان يردد: اذكروا من عندكم من

الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد، ودونوا أسماءهم في جريدة لئلا تنسوهم"(13).

لقد أدرك الجزائري الفقيه والعالم وموسوعي المعرفة الذين تربى في بيت علم وأدب أن لا سبيل إلى إعادة الروح لهذه الأمة إلا بنشر العلم بين الناس وإحياء تراثهم العلمي وذيوعه بين الناس كافة. ومن هنا كان اهتمامه بإحياء وإنشاء المكتبات العامة، فسعى جاهداً في سبيل ذلك. وكان له الفضل في إنشاء الكثير من المكتبات الخاصة والعامة في دمشق والقدس وطرابلس وحلب وغيرها من الديار الشامية. ففي دمشق كان له فضل في إنشاء المكتبة الظاهرية، وفي القدس كانت له مساعدة وجهود في إنشاء المكتبة الخالدية أول مكتبة عامة في القدس في القرن التاسع عشر.

أهم المخطوطات الجزائرية والمغاربية بالمكتبة الظاهرية بدمشق:

تحظى المكتبة الظاهرية بكّم لا بأس به من المخطوطات الجزائرية والمغاربية يمكن حصرها بعضها فيما يلي:

- أحمد بن يحيى التلمساني، سكردان السلطان.
- أحمد بن محمد التلمساني المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض.
- الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.
- محي الدين أبو العباس أحمد بن علي القرشي المغربي المعروف بالبوني، كتاب في تعبير الرؤيا.
- أبو زيد عبد الرحمن بن أبي غالب بن عبد الرحمن الجادري المديوني الموقت في مسجد القرويين بفاس، رسالة في علم الرمل.
- محي الدين ابن أبي شكر المغربي، نبذة من كلام الفلاسفة.
- أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب، حواشي على رقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق.
- عبد الرحمن أبو القاسم المعروف بابن الخطيب، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس.
- ابن حزم الأندلسي رسالة في مداواة النفوس.
- إبراهيم بن محمد بن محمد المغربي الأندلسي، تمرين الناقلين في أحوال النيرين.
- أحمد الخفاجي، خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا.
- محمد الأندلسي، غريب القرآن.
- محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب في لسان العرب.

- أحمد بن ميرها القرطبي، المنتقى لأهل التقى.
- عبد المجيد بن عبدون الأندلسي، لجاجة الزهر وفريدة الدهر.

ومما يمكن الإشارة إليه هو أنّ للشيخ طاهر الجزائري كتاب التذكرة الطاهرية(14) يقع في أكثر من عشرين مجلداً تبحث في نوادر المخطوطات ومحل وجودها ومزاياها وأمثلة منها، وغير ذلك من المعلومات التي يستعين بها المحققون في تحرياتهم عن المخطوطات، غير أنّ هذه المدونة على حد علمنا أنها لا تزال غير منشورة(15).

وإنني أرجو من الله العلي القدير أن يلهمنا بفضله ومنه خدمة تراثنا العربي الإسلامي الذي يحظى بعلماء أجلاء خلفوا وراءهم ذخيرة لا يستهان بها في علوم جمة استفاد منها جيلنا ولا يزال ولله الحمد والمنة.

الهوامش:

(1) إبراهيم خوري، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، علم الهيئة وملحقاته، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، ط 1969. ص: 143.

(2) المرجع نفسه، ص: 144.

(3) المرجع نفسه، ص: 144.

(4) المرجع نفسه، ص: 145.

(5) المرجع نفسه، ص: 147.

(6) ياسين محمد السواس، فهرس مجامع المدرسة العمرية في دار الكتب الظاهرية بدمشق، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، ط 1، 1987. ص ص: 5 - 23.

(7) المرجع نفسه، ص: 15.

(8) رشيد الزوادي، التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي، "مجلة الحضارة الإسلامية" وهران. الجزائر. ع 1، 1993، ص ص: 327 - 339.

(9) المرجع نفسه، ص: 328.

(10) المرجع نفسه، ص: 330.

(11) المرجع نفسه، ص: 333.

(12) المرجع نفسه، ص: 336.

(13) المرجع نفسه، ص: 339.

(14) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة (1790 - 1930)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة الدراسات البيبليوغرافية. مطبعة فضالة المحمدية. المملكة المغربية. ط 1989. ص ص: 325 - 327.

(15) المرجع نفسه، ص: 326.

❑❑

المسرح في دمشق
بين الواقع والطموحات

د. نبيل الحفار

لنبدأ حديثنا بتأكيد حقيقة أن الفن المسرحي تأليفاً وعرضاً لا يمتلك في الوطن العربي تراثاً يمكن أن يستند إليه في تطوير حاضره ومستقبله.

لا شك في أن الحضارات القديمة في منطقتنا كالحضارة الفرعونية في وادي النيل والحضارة البابلية في وادي الرافدين قد عرفت أشكالاً متنوعة من المسرح الطقوسي الديني والدنيوي، وقد وصلتنا من تلك الأزمنة الغابرة مجموعة من النصوص التي تؤكد ذلك، كما كشفت الحفريات الآثارية عن مجموعة من الأبنية التي كانت تستخدم لتقديم العروض المسرحية أمام الجمهور ضمن حدود الدولة البابلية تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. أما فيما بعد هذا التاريخ فإننا لا نمتلك أية دلائل على وجود فن مسرحي بالمفهوم المتعارف عليه عالمياً. إلا أن هذا لا ينفي وجود ظواهر شبه مسرحية مرتبطة بالدين واحتفالات الخصب الموسمية والمناسبات الاجتماعية كالأعراس وغيرها، وهي ظواهر موجودة لدى كل الشعوب دون استثناء. أما المسرح بوصفه حدثاً فنياً يربط بين ممثل ومتفرج عن وعي في زمان ومكان محددين فإننا لم نعرفه كمنتجين له في المنطقة العربية إلاّ مع مارون النقاش ومسرحيته "البخيل" في منتصف القرن التاسع عشر.

هناك من الباحثين العرب والأجانب من يعزو غياب المسرح عن الحضارة العربية إلى أسباب دينية أو إلى حياة البداوة وعدم الاستقرار، ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه الآراء. لكن الثابت والمؤكد هو أن الحضارتين اليونانية ثم الرومانية خلال تواجدهما في منطقتنا لم تؤثرا في حضارتنا من جانب الفن المسرحي الذي كان متطوراً ومتنوع الأجناس والأشكال لديهما. أما الصروح المعمارية الرومانية التي تتخذ شكل المسرح شبه الدائري والمنتشرة خاصة على

طول السواحل العربية المتوسطية، فإنها لم تكن تستخدم لتقديم العروض المسرحية، وإنما لإقامة الاحتفالات السياسية والعسكرية ولعقد الاجتماعات العامة ولتقديم حفلات المصارعة وألعاب السيرك والسحر والاستعراضات المتنوعة بمناسبة الانتصارات العسكرية، وأحياناً كانت تقدم في نهاية هذه الاحتفالات بعض الاسكتشات المسرحية الخفيفة. وبالتالي فإن شعوب منطقتنا لم تتعرف على فن المسرح في طابعه اليوناني أو الروماني. أما بعد بزوغ الحضارة العربية الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي، ورغم ترجمة العرب لكتاب أرسطو "فن الشعر" فإنهم لم يستطيعوا تلمس حقيقة وفحوى هذا الجنس الفني الأدبي الذي تحدث عنه أرسطو بمصطلحي التراجيديا والكوميديا، إذ لم يكن بوسعهم التعرف عليه عبر الممارسة الفعلية لأن فن المسرح كعرض كان آنذاك غائباً كلياً شرقاًَ وغرباً.

مع النقاش والقباني وصنوع من الرواد بدأ المسرح العربي تطوره بانطلاقة قوية ومتينة مستندة إلى رؤية ثقافية فنية واضحة لدور المسرح في المجتمع العربي ولتأثيره تنويرياً وأخلاقياً، فتعرفنا على نصوص لهؤلاء الرواد منها المقتبس عن أعمال أجنبية ومنها ما استقى مادته من التراث العربي الأدبي والتاريخي ومنها ما عالج مواضيع من الواقع المعيش مباشرة.

وعلى الرغم من قلة هذه النصوص ومحدودية تأثير عروضها ضمن حيز ضيق من الجمهور، إلاّ أنها قد مهدت الطريق خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وخلقت أرضية متماسكة نوعاً ما لنمو التطورات المتنوعة اللاحقة التي ستزدهر بعدئذ في مصر خاصة، بسبب هجرة المسرحيين من بيروت ودمشق بسبب الظروف السياسية والدينية الصعبة إلى القاهرة، حيث كان الجو السياسي الاجتماعي والفني أكثر انفتاحاً وتقبلاً للجديد الوافد، فتطور المسرح الغنائي والكوميدي الشعبي متمثلاً بالشيخ سلامة حجازي وسيد درويش وعلي الكسار إلى جانب المسرح التراجيدي والاجتماعي المقتبس والمعرب متمثلاً بجورج أبيض ويوسف وهبه وغيرهم. وتلاحقت هذه التطورات باطراد متزامنة مع تطور الفن السينمائي، فكثرت دور العرض المسرحي وتأسس المعهد المتوسط ثم العالي للتمثيل وازدهر التأليف المسرحي بمختلف أجناسه متساوقاً مع التطورات الاقتصادية السياسية والاجتماعية الثقافية بحيث يمكننا القول بأن الحركة المسرحية قد تجذرت في أرض الواقع المصري، على الأقل في القاهرة وأخذ تأثيرها ينتشر إلى بقية البلدان العربية. والجدير بالذكر هنا هو أن المسرح المصري قد حسم منذ نشأته إشكالية الفصحى والعامية في

تأليف النص، معتبراً إياه جزءاً من مكونات العرض المسرحي، وأن لغة الشخصية يجب أن تعبر عن انتمائها الاجتماعي وتكوينها النفسي ومستواها الفكري قبل أن تُقيّم من المنظور الأدبي التقليدي للغة. ونتيجة لانتشار اللهجة المصرية وسهولة فهمها في جميع أنحاء الوطن العربي عن طريق السينما والإذاعة تم قبول اللهجة المصرية في المسرح أيضاً دون كبير نقاش حول موقعها في إطار فكرة القومية العربية. وهذا ما سنعود إليه بالنسبة للمسرح في سورية لاحقاً.

بعد أبي خليل القباني ظهر في سورية وحتى ما بعد الاستقلال بسنوات قليلة بعض الأسماء التي ساهمت في حركة التأليف للمسرح، ومن أهمها عبد الوهاب أبو السعود وخليل هنداوي ومراد السباعي، وبالعربية الفصحى طبعاً. لكن أعمال هؤلاء التي لم تقدم على المسرح سوى بضع مرات من قبل المدارس أو الأندية الاجتماعية والفنية لم تترك بصمة واضحة على مسيرة الحركة المسرحية في سورية. أما على صعيد الممارسة المسرحية الفعلية فقد تشكلت خلال هذه الفترة مجموعة من الفرق المسرحية التي تعتمد على الهواة من عشاق المسرح الذين سرعان ما تحولوا إلى الاحتراف مثل (فرقة حسن حمدان) في حلب و(فرقة محمد علي عبده) في دمشق، وذلك ما بين الحربين العالميتين. ثم جاءت (فرقة عبد اللطيف فتحي) و(فرقة اتحاد الفنانين) و(فرقة العهد الجديد) و(فرقة المسرح الحر) وكلها في دمشق. كانت معظم أعمال هذه الفرق مقتبسة عن أعمال فرنسية وإيطالية وتركية وباللهجة المحلية الحلبية والدمشقية. وعند الاقتباس عن المسرح المصري كان ممثلونا السوريون يتحدثون باللهجة المصرية، بل حتى باللهجة السودانية عند تشخيص دور (كشكش بيك). وقد كان عبد اللطيف فتحي وسعد الدين بقدونس أول من أدخل اللهجة الشامية حتى على الاقتباسات من المسرح المصري. والأماكن التي كانت تقدم عليها هذه الفرق عروضها كانت مزيجاً من صالة السينما والمسرح في الوقت نفسه، كما هو حال معظم الفرق الخاصة في دمشق اليوم، ولهذا كانت التجهيزات التقنية والديكورية فقيرة جداً. أما فن التمثيل فقد كان يحتذي النموذج المصري، إما في مبالغات يوسف وهبه التراجيدية المهيبة أو في واقعية نجيب الريحاني المحببة وغيرهما من أعمدة فن التمثيل المصري.

إن التوجهات الفنية الفكرية لهذه الفرق المحترفة كانت تتراوح ما بين تقديم الموعظة الأخلاقية المرتبطة غالباً بمفاهيم الشرف والشهامة والاستقامة وبين الكوميديا الاجتماعية الخفيفة التي تعتمد بشكل أساسي على عناصر الفارْس التهريجي بهدف تحقيق المتعة الآنية والترفيه المباشر. ونتيجة

لإشكاليات الإنتاج الصعبة وضعف المردود المادي كانت حياة هذه الفرق قصيرة لا تتجاوز السنوات المعدودة، وسرعان ما كان أفرادها يتركون هذه الفرقة لينضموا إلى فرقة أخرى ما زالت أفضل حالاً من سابقتها. واللافت للنظر هو أن عدداً كبيراً من هؤلاء الفنانين كان يعمل في التمثيل الإذاعي، مثل ممتاز الركابي وحكمت محسن وأنور البابا ويعقوب أبو غزالة وغيرهم. وما يلفت النظر أيضاً هو أن النصوص المسرحية التي قدمتها كل هذه الفرق لم تطبع ولم يتم تداولها، وبالتالي لم تحفظ في أي أرشيف يسهّل على الباحث العودة إليها ودراستها، والسبب هو كتابتها بالعامية. أما تلك المؤلفة بالفصحى والتي لم يكن لها تأثير فعلي على الحركة المسرحية وتطورها، فما زالت موجودة، يحتفى بإعادة طباعتها ولكأنها هي فقط ما يمثل تاريخ المسرح السوري.

على ضوء ما سبق عرضه نقول بأن المسرح السوري بإمكاناته الفقيرة وتوجهاته المتواضعة إلى جانب انعدام الخبرات الفنية والإطلاع على ما يجري على الساحة المسرحية عالمياً لم يتمكن من تأسيس أرضية اجتماعية يكسب من خلالها جمهوراً يطالب به ويدافع عنه كحاجة ثقافية فنية ضرورية. كما لم يظهر من بين هؤلاء الفنانين العاشقين للمسرح رجل مسرح حقيقي يحمل هماً ثقافياً فنياً ومتسلحاً بالخبرة والوعي الضروريين للنهوض بهذه الحركة إلى مشارف الفن الفاعل والأصيل.

بعد كل هذه الإرهاصات المتنوعة والمشتتة وأسوة بفرقة المسرح القومي في مصر تنادى فنانو المسرح في سورية أواخر عام 1959 إلى تأسيس فرقة قومية في دمشق تكون تابعة لوزارة الثقافة والإرشاد القومي وبتمويل منها، وذلك بهدف وضع الأسس الفنية والعلمية والتنظيمية لحركة مسرحية جادة وذات سيرورة.

وقد لبى هذه الدعوة عدد كبير من أعضاء الفرق المحترفة آنذاك بالإضافة إلى مجموعة من الهواة من طلبة جامعة دمشق، وفي العام التالي قدمت فرقة المسرح القومي عرضها الأول، وهو "براكساغورا" لأريستوفانس، باقتباس توفيق الحكيم وبإخراج رفيق الصبان العائد حديثاً من فرنسا بعد دراسته للقانون وإطلاعه الموسع على أجواء العمل المسرحي هناك، وبعد فترة بسيطة انضم إلى هذه الفرقة المخرج هاني صنوبر وهو من خريجي الولايات المتحدة وشريف خزندار من خريجي فرنسا إلى جانب أسعد فضة وعلي عقلة عرسان وخضر الشعار ومحمد الطيب من خريجي مصر وحسين إدلبي ويوسف حرب من خريجي النمسا ثم تتالت دفعات دارسي الإخراج في الدول الاشتراكية. وقد كان لهؤلاء جميعاً إلى هذا الحد أو ذاك دور بالغ الأهمية في ترسيخ

المفاهيم الفنية العلمية في العمل المسرحي من حيث التعامل مع تفسير النصوص الدرامية إخراجياً ومع فن التمثيل والديكور والإضاءة والموسيقى بالتعاون طبعاً مع مجموعة من المختصين في هذه الميادين، وكان الهدف المنشود دائماً هو الوصول إلى نوع من التكامل الفني في العمل المسرحي وتقديم رؤية بصرية سمعية تحمل خصوصية المسرح.

ولا يسعنا في هذه العجالة أن نقيّم أهمية أعمال كل ممن ساهموا في نشأة وتطور المسرح القومي على حده، ولكن لا شك بأن نتاجات المرحلة الأولى حتى حرب حزيران كانت في حينها ذات نكهة خاصة وأهمية استثنائية، نظراً لجدتها وجديتها ورصانتها الفنية على صعيد المسرح السوري، وكذلك لتنوع توجهاتها الفكرية وخبراتها التأليفية. فالواضح هو أن رواد المسرح القومي مثل الصبان وصنوبر وقلعي وعرسان وفضة كانوا يبغون تعريف الجمهور السوري في دمشق على تيارات وأشكال المسرح في العالم، ومن هنا كانت غالبية النصوص أجنبية مترجمة بعربية رصينة إلى جانب قلة من الأعمال العربية بالفصحى.

في البداية كانت فرقة المسرح القومي تعرض أعمالها في إحدى صالات السينما أو في المسرح العسكري، إلى أن دشن مسرح القباني ومن بعده تم تحويل سينما الحمراء إلى مسرح الحمراء، وهما حنئذ صالتا العرض الوحيدتان التابعتان لوزارة الثقافة واللتان كانتا تعانيان من نقص هائل في التجهيزات التقنية.

إثر حرب حزيران التي هزت المجتمع العربي على كافة الصعد وخلخلت الكثير من المفاهيم والقيم تعرض المسرح إلى ما يشبه الزلزال الذي ضعضع أركانه. وكانت النتيجة أن انكمش المسرح القومي على نفسه بقصد إعادة النظر في برنامجه وتوجهاته، في حين ظهرت على الساحة مجموعة من الأسماء والتيارات والمؤسسات المسرحية الجديدة ذات المفاهيم المغايرة لكل ما سبق والتي تريد للمسرح أن يلعب دوراً مؤثراً في الحياة السياسية والثقافية والتأسيس لوعي جديد بفاعلية الفن وضرورة تسييسه في إطار الحركة الاجتماعية العامة.

وفي عام 1969 دعا مجموعة من الكتاب والفنانين المسرحيين عبر نقابة الفنانين السوريين إلى إقامة مهرجان مسرحي عربي يكون بوتقة لتبادل الخبرات والتجارب المسرحية ولتبادل وجهات النظر حول حاضر ومستقبل المسرح العربي ودوره الفني الثقافي الاجتماعي. فكان أن انعقد المهرجان الأول في شهر نيسان من العام نفسه. وخلال الندوات الفكرية التي أقيمت على هامش الدورات الثلاث الأولى والتي نشرت أبحاثها ومداولاتها في مجلة المعرفة السورية احتدم

النقاش بين المسرحيين والمثقفين العرب حول الدور السياسي للمسرح، وعما إذا وجب اعتبار المسرح منبراً سياسياً لما لأدواته الأدبية والفنية من تأثير مباشر ينبع من حميمية اللقاء الآني بين العرض وجمهوره. وهنا تحديداً كان لمسرحية سعد الله ونوس "حفلة سمر من أجل 5 حزيران" دور المحرض على هذا السياق في التفكير. واللافت للنظر أن هذه المسرحية قد عرضت أولاً في بيروت ومن ثم 1970 في دمشق، من قبل فرقة خاصة، وليس من قبل المسرح القومي. وحتى عام 1975 ساد المسرحَ العربي مسرحُ التسييس الذي لبت طروحاته حاجات ملحة لدى المثقفين والفنانين والجمهور، بحيث انصبت مواضيع النصوص والعروض على القضية السياسية، ولكن على حساب الطموحات الفنية التي تشكل أحد جانبي جوهر العمل المسرحي. وفي تلك المرحلة ظهرت حركة المسرح العمالي وحركة المسرح الجامعي عبر أعمالهما ومهرجاناتهما السنوية كعاملين بالغي الأهمية في تشكيل صورة المسرح السوري وكادا أن يغطيا على عروض المسرح القومي الذي لم يتمكن من الخروج من أزمته في تعامله مع جمهور الظروف الاجتماعية والسياسية الجديدة لمرحلة ما بعد حرب حزيران، فتراجع تأثيره الفني والاجتماعي أمام الطروحات الجريئة ذات الأهمية الراهنة التي قادها شباب المسرح الجامعي والمسرح العمالي كتاباً ومخرجين وممثلين.

خلال هذا الزخم المسرحي تجلت الحاجة الماسة إلى ضرورة وجود صالات عرض جيدة التجهيز تقنياً وإلى ضرورة تجذير الثقافة والفن المسرحيين في صلب الممارسة، فبدأ العمل بمشروع مجمع المسرح القومي في ساحة الأمويين والذي يضم ثلاثة مسارح؛ ومن ثم في عام 1976 تم تأسيس مجلة "الحياة المسرحية" و"المعهد العالي للفنون المسرحية" كمرفقين أساسيين لتطوير العمل المسرحي علمياً وفنياً.

خلال المرحلة نفسها ظهرت كذلك على المستوى العربي الدعوة إلى تأصيل المسرح العربي والبحث عن هوية مميزة له؛ لكن معظم توجهات ممثلي هذه الدعوة انصبت على ضرورة الاتكاء على التراث العربي القديم أدبياً وتاريخياً ومعمارياً، مما أدى إلى تشتت الجهود المسرحية في معظم البلاد العربية التي تمتلك حركة مسرحية نشطة مثل سورية ولبنان والعراق ومصر وتونس والمغرب. لكن واقع الممارسة المسرحية أظهر مدى تخبط هذه الدعوة وأن الماضي لا يمكن ولا يجوز أن يكون بديلاً عن معاناة الحاضر الذي نعيشه. وكما أنهت نتائج حرب تشرين التحريرية المد السياسي في المسرح وحولت الاهتمام بالسياسة الخارجية نحو قضايا الواقع الداخلي، فإنها قلصت إلى

حد كبير من تأثير الدعوة التراثية إلى تأصيل المسرح العربي، فقد أثبتت النصوص المؤلفة والمقتبسة والمعدة إخراجياً أن المضامين التي تعالج قضايا المواطن العربي في واقعه هي التي تمنح المسرح العربي هويته التي تميزه عن المسارح الأخرى وأن الأشكال الفنية ملك للجميع وليست خاصة بشعب من الشعوب دون غيره، كما هو الحال على صعيد الرواية والقصة والقصيدة والفيلم. ومن هنا جاءت أعمال المسرح التجريبي في دمشق بين 1976 و 1980 بإشراف سعد الله ونوس وإخراج فواز الساجر محاولة جادة للبحث عن السبل الأمثل لتحقيق التواصل والتأثير المتبادل بين المرسل والمتلقي في المسرح عن طريق طرح ومعالجة مجموعة من القضايا الحياتية التي تلامس المواطن السوري في واقعه الراهن. وفي الوقت نفسه تتالت أعمال تخرج طلبة المعهد العالي للفنون المسرحية مؤكدة على الضرورة الحتمية للتأهيل الفني العلمي للممثل قبل أن ينخرط في ميدان الاحتراف ويواجه الجمهور العريض ناقلاً إليه رسالة العرض الفكرية والفنية بصورة مقنعة ومؤثرة.

منذ مطلع الثمانينات تضافرت مجموعة من العوامل والظروف التي أدت إلى تراجع تدريجي للحركة المسرحية في سورية ومصر بشكل خاص. وقد انعكس هذا التراجع على صعيد التأليف المسرحي كماً ونوعاً، وكذلك على صعيد المستوى الفني للعروض المسرحية. وأول هذه العوامل في رأيي هو الأزمة الاقتصادية الخانقة التي يعيشها المواطن ذو الدخل المحدود تجاه معدلات الغلاء المتسارعة الصعود، ومن بين هؤلاء طبعاً ممثلو وفنيو المسرح وكتابه ومخرجوه. وثاني هذه العوامل هو هَبّة الإنتاج التلفزيوني الخاص وتوسعها في سورية بشكل لافت للنظر في ظروف إنتاجية خاضعة لقوانين العرض والطلب وسوق التصدير إلى السعودية ودول الخليج. في ظل هذه الظروف وتحت إغراء الأجور المرتفعة نسبياً للعمل في الدراما التلفزيونية مع تحقيق الشهرة والانتشار السريع توجه جميع الممثلين والممثلات في سورية دون استثناء نحو التلفزيون مخلفين وراءهم خشبات المسارح القليلة فارغة، إلاّ من بعض المحاولات المتواضعة والهزيلة.

إن ممثلي وممثلات المسارح الرسمية لدينا هنم موظفون يتقاضون رواتب ثابتة كأي موظف آخر، سواء عملوا أم لا. وعددهم في المسرح القومي في دمشق فقط يتجاوز المئة وخمسين ممثلاً وممثلة. ولكن أين هم في عروضه المسرحية؟ وليس هناك من يحملهم ذنب غيابهم عن المسرح والتفاتهم إلى التلفزيون. فالممثل والمخرج والمؤلف والتقني لم يعد قادراً على أن يعيل نفسه من راتبه. كما أن الأنظمة المالية التي تخضع لها وزارة

الثقافة لا تسمح لها بتحويل دخل شباك التذاكر لكادر العمل المسرحي كمحفز ولو بسيط لإقناع الممثل وغيره بتكريس فنه للمسرح. وإذا قارنا بين دخل المؤلف من مسرحيته أو روايته أو مجموعة قصصه مع دخله من مسلسل تلفزيوني لفهمنا سبب التفات عدد كبير من مؤلفينا للكتابة للتلفزيون. أضف إلى ذلك أن قسماً كبيراً من الجمهور المسرحي نفسه قد انفض عن المسرح، أولاً لأن ما يقدمه المسرح حالياً غير مقنع فكرياً ولا يلبي تطلعات المشاهد جمالياً، وثانية لأن متابعة التلفزيون أقل كلفة وأكثر راحة وتنويعاً، خاصة مع انتشار المحطات الفضائية.

منذ سنوات ليست بعيدة توقف نشاط المسرح الجامعي، وكذلك نشاط المسرح العمالي سواء في العاصمة أم في المحافظات، وما يقدمه المسرح القومي حالياً ليس أكثر من رفع العتب.

لا شك بأن هناك الكثير من الأسباب الأخرى التي أوصلت المسرح إلى ما هو عليه حالياً وهي تحتاج إلى مناقشات مستفيضة كي يتم التوصل إلى تلك الحلول التي قد تساعد على انتشال المسرح من كبوته، كما لا بد من اتخاذ الكثير من الإجراءات الجريئة والسريعة، وخاصة على الصعيد المالي.

ومع ذلك فإن العرض المسرحي إن لم يكن حدثاً ثقافياً وفنياً متميزاً وممتعاً، ومغايراً في الوقت نفسه لأسلوب الدراما التلفزيونية فإنه لن يحقق استقطاب الجمهور حوله.

❑❑

تاريخ مدينة دمشق
للإمام الحافظ ابن عساكر الدمشقي
(تعريف مختصر)

محمود عبد القادر الأرناؤوط

ما من شك في أن الإمام الحافظ المؤرخ أبا القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، الشهير بابن عساكر، المتوفى سنة (571)هـ(1)، قد صنَّف مصنَّفه الكبير «تاريخ مدينة دمشق» فكان مفخرة لها على مرّ الأيام، وأثنى عليه العلماء وطلبة العلم من أيامه وإلى يوم الناس هذا(2).

وقد حفظ لنا ابن عساكر في كتابه «تاريخ مدينة دمشق» الجليل القدر، نصوصاً حديثية وتراجم منوعة على جانب كبير من الأهمية، إضافة لما احتوى عليه من الدرر والفوائد العزيزة في شتى أبواب العلم، وفي فروعه ودقائق شؤونه وأحواله، ومن هنا كان اهتمام مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيقه وإخراجه إخراجاً لائقاً به منذ عهد مؤسسه ورئيسه الأول العلَّامة المؤرخ الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله(3) وإلى عهد رئيسه الأخير أستاذنا الجليل العلَّامة الدكتور شاكر الفحام رحمه الله(4)، وتولى تحقيق الأجزاء التي صدرت منه محقَّقة التحقيق الصحيح الدقيق، جمهرة من العلماء والباحثين خلال ما يقرب من ستين عاماً(5).

ويقول العلَّامة المؤرخ الأستاذ محمد كرد علي معروفاً بـ«تاريخ مدينة دمشق» في تقديمه للمجلدة الأولى منه ص (د):

«ما حظيت مدينة في الإسلام بتاريخ لها يُضاهي تاريخ دمشق هذا، ففي المجلدتين الأولى والثانية تخطيط دمشق وسورها وأبوابها وخططها وأنهارها ومصانعها ومساجدها وآثارها وفضائلها وخصائصها وما يتصل بذلك من تقويمها وتخطيطها. وترجم المؤلِّف في بقية المجلدات لكل من يصحّ أن يُترجم له من أهل دمشق وخلفائها وأمرائها وحكامها وقضاتها وعلمائها وأدبائها وشعرائها، ممن ولد أو أقام بها أو زارها وحلَّ بها، منذ الفتح الإسلامي وإلى زمان المؤلِّف، وقد يترجم لمن كان قبل الإسلام. وبذلك جمع أعظم عدد من

رجال الثقافة الإسلامية وأعلام حضارة العرب. فجاء كتابه أشبه بمعلمة إسلامية مطولة.

وقد يكون تاريخ دمشق أوسع تواريخ المدن. وهو أيضاً من أوسع المصادر في تراجم الرجال. حتى ليجرّد منه كتب على حدة في موضوعات مختلفة، كولاة دمشق مثلاً وقضاتها وشعرائها. ومنه يُستخرج أحسن تاريخ لبني أمية سكتت معظم التواريخ عنه. وهو إلى ذلك حوى عدة كتب مستقلة، كما قالوا في وصف «تاريخ الرسل والملوك» للطبري. فكل طالب يظفر فيه بطلبته، ويجد فيه ما لا يجده في كتاب غيره. لأن ابن عساكر يمتاز بالتحري والبسط والاستقصاء وتتبع النوادر في سير المترجم لهم وأخبارهم. فلو رجعت مثلاً إلى ترجمة الجاحظ فيه لوجدتها أوسع وأمتع منها في تاريخ بغداد، وكذلك ترجمة أبي تمام، وهكذا.

وقد يؤخذ على ابن عساكر أنه جمع في أخبار الفضائل التي سردها في مفتتح «تاريخه» كثيراً من الضعيف، وكثيراً من الأساطير. وسبب ذلك أنه حرص على ألا يُخلي كتابه مما يفيد جميع الطبقات. وقد يسرد أشياء لا يعتقدها فيما نحسب، والعقل يمحص وينفي الزغل، وابن عساكر أعلم الناس بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والمؤرخ قد ينقل أخبار أهل النحل والمذاهب من دون أن ينفيها أو يقرّها فلا يستدل بذلك على أنه يعتقدها، وأي كتاب للمحدّثين والأقدمين سلم من نقد ومؤاخذة.

على أن العلم في القرن السادس كان غير ما هو عليه في هذا القرن. والمؤلِّف إنما كان يكتب في قرنٍ ما ارتقت فيه العلوم ارتقاءها لعهدنا، وما أَلِف المؤلّفون أن يدرسوا التاريخ كما أخذ المعاصرون يدرسونه.

ولعل العلماء بعد هذا، يغتبطون بنشر هذا السّفر البديع على هذه الصورة، من التحقيق والعناية».

ويقول أستاذنا الجليل العلّامة المحقّق الدكتور شاكر الفحام معرّفاً تعريفاً موجزاً بـ«تاريخ مدينة دمشق»(6):

«بلغ ابن عساكر في كتابه: «تاريخ مدينة دمشق» الذُروة في فنِّ تاريخ المدن، فيما روته لنا قصّة الحضارة العربية، على كثرة ما أَلّف المؤرخون والأخباريون في هذا الفنِّ المحبَّب. كانت دمشق محور هذا التاريخ، ولكن المؤلِّف مدّ من حدوده ليشمل الشام وما وراء الشام، وكأنما كان يريد منه أن يحكي لنا قصة العمران العربي بكلّ حياتها وحركتها، ناضرة، يترقرق فيها ماء الشباب. وترادف العلماء والمؤرخون والأدباء يقرؤون كتاب التاريخ، ويروونه، وينقلون عنه، ويتحدثون بأخباره. كانوا يزينون، بالاقتباس منه، مجالسهم وتآليفهم. وأقبلَ عشاق له، لم يَشْفِهم تدارسُه، فراحوا يختصرونه، وينتخبون منه، عرفنا منهم

أمثال: القاسم ابنه، والصفار، وأبي شامة، وقد اختصره مرتين، وأحمد بن عبد الدائم المقدسي، وابن منظور(7)، والذهبي، وابن قاضي شهبة، وتمتد السلسلة حتى تنتهي بنا إلى الشيخ عبد القادر بدران. وذيّل عليه آخرون في مقدّمتهم القاسم ابنه، وصدر الدين البكري، وعمر بن الحاجب، والقاسم بن محمد البرزالي»(8).

«ويأتي «تاريخ مدينة دمشق» على رأس المصنّفات التي ألّفها الحافظ ابن عساكر. والتأليف في تواريخ المدن مما درج عليه علماء العرب والمسلمين. وقد كثرت مؤلفاتهم في هذا الباب، إلا أن «تاريخ مدينة دمشق» هو الذروة في تاريخ المدن، لم يؤلف مثله في سعته وإحاطته، وقد فسح الحافظ لنفسه مجال القول فجعل موضوع كتابه «تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، وتسمية من حلّها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها» وهو كتاب «مشتمل على ذكر من حلّها من أماثل البرّية، واجتاز بها أو بأعمالها من ذوي الفضل والمزيّة، من أنبيائها وهداتها، وخلفائها وولاتها، وفقهائها وقضاتها ودُراتها، وقرائها، ونحاتها، وشعرائها ورواتها....» فجاء كتاباً جامعاً، حافلاً، لا يقتصر على ساكني دمشق بل يجاوزهم إلى كثير من أهل الشام، وما وراء الشام، طبقاً لما حدّه الإمام الحافظ، وأخذ به نفسه. وقد جهد جهده ليقدم من تضاعيف تراجمه ورواياته صورة لهذه الحضارة العربية الإسلامية ووجوه نشاطها.

وسلك ابن عساكر، وهو الحافظ المحدّث المتقن، في تأليفه «تاريخ مدينة دمشق» مسلك المحدّثين، فكان يورد الأخبار مزّينة بأسانيدها، ويتحرّى تحرّي المحدّث فيعيد الخبر مشفوعاً بالإسناد ليثبت أي تغيّر طرأ على لفظه مهما كان يسيراً، وتلك دقة عُرف بها المحدثون. ونظراً لسعة روايته وإحاطتها كانت تراجمه في كتابه تفوق مثيلاتها في كتب التراجم الأخرى في أغلب الأحيان.

لا نعلم متى بدأ ابن عساكر تأليف كتابه، ويقول الحافظ المنذري متحدّثاً عن ابن عساكر وكتابه: «ما أظن هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه، وشرع في الجمع من ذلك الوقت...». مهما يكن [من أمر] فقد صحَّت الرواية أنه بدأ بتأليف كتابه قبل عام 529هـ، ثم تمهل، فلما عاد إلى دمشق سنة 533هـ قام بالتحديث في جامع بني أمية، واستأنف التأليف في كتابه. ويذكر الحافظ في مقدمة الكتاب أن عوائق [الأيام] قد حالت بينه وبين إنجازه، فلما دخل الملك العادل نور الدِّين مدينة دمشق (في صفر سنة 549هـ) تهيأت الأسباب ليستتم الإمام الحافظ عمله في «التاريخ». إنه يقول في مقدمة كتابه: «ورَقي خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمقام، الكامل العادل الزَّاهد المجاهد المرابط

الهُمَام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام... وبلغني تشوّقه إلى الاستنجاز له والاستتمام، ليلمّ بمطالعة ما تيسّر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام»(9).

«وإن «تاريخ مدينة دمشق» ليدهش قارئه بكثرة تراجمه، وغزارة مادته وتنوعها، لقد ضمت دفتاه طبقات شتى لأصنافٍ من الخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء والقراء والنحاة والأدباء والشعراء والرواة وأشباههم، أشار إليها ابن عساكر في مقدمة كتابه، يمثل نشاطها مختلف وجوه الحضارة العربية الإسلامية في هذه المرحلة الخصبة من حياة بلاد الشام في نحو من ستة قرون. إنه التاريخ العظيم الذي جمع فأوعى، حوى أسفاراً في سفر، وكتباً في كتاب، ولم يكن بدّ من أن تتجه الأنظار إلى استخراج موضوعاته المتعددة، وإفراد كل منها على حدته»(10).

«وهو نَمَطٌ من التأليف خاصٌ بهذه الحضارة؛ لبنائه على علم من علومها، لم تشارك الأمةَ الإسلاميةَ فيه أمَّةٌ من الأمم، ألا وهو علم الرواية، أحدُ شطري العلم في هذه الأمَّة، وقسيمه ونظيره عند الأثبات من أهل الرَّوِيَّة والتَّدَبُر والتَّحصيل، إذ كان العِلمُ عندهم عَقلاً ونَقْلاً، وروايةً ودرايةً، وأثراً يؤثر، وفكراً ينظر ويتدبَّر»(11).

الاسم التام لـ«تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر، وذكر ترتيب مادته:

واسم «تاريخ مدينة دمشق» التام هو «تاريخ مدينة دمشق حماها الله وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأوائل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها».

وقد افتتح ابن عساكر الكتاب بمقدمة مختصرة قيمة قال فيها:

«... أما بعد، فإني كنتُ بدأتُ قديماً بالاعتزام لسؤال من قابلت سؤاله بالامتثال والالتزام، على جمع تاريخ لمدينة دمشق أم الشام، حمى الله ربوعها من الدثور والانقصام، وسلّم جُرعها من كيد قاصد يهمّ بالاختصام، فيه ذكر مَنْ حلّها من الأماثل والأعلام، فبدأتُ به عازماً على الإنجاز له والإتمام، فعاقت عن إنجازه وإتمامه عوائق الأيام من شُدْه الخاطر وكلال الناظر وتعاقب الآلام.

وبدأت بذكر من اسمه منهم أحمد، لأن الابتداء بمن وافق اسمه اسم المصطفى أحمد، ثم ذكرتهم بعد ذلك على ترتيب الحروف مع اعتبار الحرف الثاني والثالث تسهيلاً للوقوف، وكذلك أيضاً اعتبرت الحروف في أسماء آبائهم وأجدادهم، ولم أرتبهم على طبقات أزمانهم أو كثرة أعدادهم، ولا على قدر علوهم في الدرجات والرتب، ولا لشرفهم في الأفعال والنَّسَب، وأردفتهم بمن عرف بكيته، ولم أقف على حقيقة تسميته، ثم

بمن ذكر بنسبته، وبمن لم يسمَّ في روايته، وأتبعتهم بذكر النسوة المذكورات، والإماء الشواعر المشهورات، وقدمت قبل جميع ذلك جملة من الأخيار في شرف الشام وفضله، وبعض ما حفظ من مناقب سكانه وأهله، وما خصّوا به دون أهل الأقطار، وامتازوا به على سائر سكان الأمصار، ما خلا سكان الحرمين، وجيران المسجدين المعظّمين. وبوَّبت ذلك جميعه تبويباً ورتبتهُ في مواضعه ترتيباً، وذلك مبلغ علمي وغاية جهدي، على ما وقع إليَّ أو ثبت عندي. فمن وقف فيه على تقصير أو خلل، أو عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه في ذلك متطولاً، وليُصْلح منه ما يحتاج إلى إصلاح متفضلاً، فالتقصير من الأوصاف البشرية، وليست الإحاطة بالعلم إلا لبارئ البريَّة، فهو الذي وسع كل شيء علماً، واحصى مخلوقاته عينا واسما، ومع ذلك فمن ذكرت أقل ممن أهملت، وما أصبت في ذكره أكثر مما أغفلت، وليس يخلو من فائدة من الفوائد المستفادة، وذكر حكاية من الحكايات المستحسنة المستجادة، لما جَمَعه من الأخبار الجامعة وانطوى عليه من الآثار اللامعة، وحواه من الأذكار النافعة، وتضمّنه من الأشعار الرائعة مما يرغب فيه لحسنه الراغب ويستفيد لعزته أو جودته الطالب. والله سبحانه ييسر جمعه على من جمعه، وينفع به من رواه ومن سمعه، إنه جدير بإجابة دعائي قدير على تحقيق رجائي، وهو ولي كل خير، ودافع كل سوء وضير، والهادي في القول لصوابه، ولا حول ولا قوة إلا به.

فصدفتُ عن العمل فيه برهة من الأعوام، حتى كثُر عليّ في إهماله وتركه لوم اللوام وتحشيم من تحشيمه سبب لوجود الاحتشام، وظهر ذكر شروعي فيه حتى خرج عن حد الاكتتام، وانتشر الحديث فيه بين الخواص والعوام، وتطلع إلى مطالعته أولو النهي وذوو الأحكام، ورقي خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمقام، الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي ابن آق سنقر ناصر الإمام ـ أدام الله ظل دولته على كافة الأنام، وأبقاه مسلمًاً من الأسواء منصور الأعلام، منتقماً من عُداة المسلمين الكَفَرَة الطغام، معظماً لحملة الدِّين بإظهار الإكرام لهم والاحترام،منعماً عليهم بإدرار الإحسان إليهم والأنعام، عافياً عن ذنوب ذوي الإساءات والاجترام، بانياً للمساجد والمدارس والأسوار ومكاتب الأيتام، راضياً بأخذ الحلال، رافضاً لاكتساب الحطام، آمراً بالمعروف، زاجراً عن ارتكاب الحرام، ناصراً للملهوف وقاهراً للظالم العسوف بالانتقام، قامعاً لأرباب البدع بالإبعاد لهم والإرغام، خالعاً لقلوب الكفرة بالجرأة عليهم والإقدام ـ وبلغني تشوقه إلى الإستنجاز له والاستتماء، ليُلمّ بمطالعة ما تيسَّر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه

راجياً الظفر بالتمام، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام، مبادراً ما يحول دون المراد من حلول الحِمام، مع كون الكبر مظنّة العجز ومطيَّة الأسقام، وضعف البصر حائلاً دون الإتقان له والإحكام. والله سبحانه المعين فيه بلطفه على بلوغ المرام.

وهو كتاب مشتمل على ذكر من حَلَّها من أماثل البرية اجتاز بها أو بأعمالها من ذوي الفضل والمزيد من أنبيائها وهداتها وخلفائها وولاتها وفقهائها وقضائها وعلمائها ودُراتها وقرائها ونحاتها وشعرائها ورواتها من أمنائها وأثباتها ما فيهم من هجاء وقدح، وإيراد ما ذكروه من تعديل وجرح، وحكاية ما نقل عنهم من جد ومزح، وبعض ما قوع إليَّ من رواياتهم، وتعريف ما عرفت من موالدهم ووفياتهم»(12).

وقد أتبع ابن عساكر مقدمته للكتاب بذكر باب في أصل اشتقاق تسمية الشام عن العالمين بالنقل والعارفين بأصول الكلام، ثم بباب تحدث فيه عن تاريخ بناء مدينة دمشق ومعرفة من بناها وحكاية الأقوال في ذلك تسليماً لمن حكاها، ثم بباب في اشتقاق اسم التاريخ وأوصله وسببه وذكر الفائدة الداعية إلى العناية به، ومما قال فيه:

«قرأت بخط شيخنا أبي الفرج غيث بن علي بن عبد السلام الصوري قال: قرأت في «كتاب الخراج» تأليف أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب قال: تاريخ كل شيء آخره، وهو في الوقت غايته والموضع الذي انتهى إليه. يُقال فلان تاريخ قومه أي إليه ينتهي شرفهم. ويُقال ورَّخت الكتاب توريخاً أورخته تاريخاً، اللغة الأولى لتميم والثانية لقيس. ولكل مملكة وأهل ملّة تاريخ. وجماع القول في تواريخهم أنهم يؤرخون بالوقت الذي تحدث فيه حوادث مشهورة عامة.

قال تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهِلَّة، قل هي مواقيت للناس والحج﴾(13) فبالأهلة تدرك عدة الأعوام ويعلم مبلغ ما مضى من الليالي والأيام، وتُعرف أوقات الحج والصيام، ويعتبر بعض شرائع الإسلام، كانقضاء عُدد النساء من بعولتهن ومدة حملهن ووضع أجنَّتهن، ووقت محل الديون اللازمات، وتصرّم مدد عقود الإجارات، واختلاف الفصول والأوقات، وبها تحد حوادث الأمم الخاليات»(14).

ثم أورد حديث رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ جعل هذه الأهلة مواقيت للناس، صوموا لرؤيتهوأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم فأتمّوا العُدَّة»(15).

ثم ذكر باباً في مبتدأ التاريخ ومصطلح الأمم على التواريخ، وأورد فيه حديثاً عن النبي ﷺ من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه يقول فيه: «إن جبريل حدّثه قال: مضى من الدنيا ستة آلاف وسبع مائة سنة. قال: وكل قطرة مطر تنزل من السماء موكل بها ملك من الملائكة يضعها موضعها. قال: ونبأ في

الأرض الأنبياء مائة ألف وأربعون ألفاً وثلاث مائة من المرسلين، حتى جاء محمد ﷺ خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعده. قال: وما في من الدنيا إلا كما بقي من النهار إذا غلبت الشمس وبقي حمرة الشمس على الحيطان»(16).

ثم أفرد باباً ذكر فيه اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في التاريخ وما نقل من الاتفاق منهم. ثم أفرد باباً آخر ذكر فيه تاريخ الهجرة واختصر في ذكره للشهرة. ثم أفرد باباً للقول المشهور في اشتقاق تسمية الأيام والشهور. ثم أفرد باباً تحدث فيه عن السبب الذي حمل الأئمة والشيوخ على أن قيدوا المواليد وأرّخوا التواريخ. ثم أفرد باباً لما ورد من ذكر حثّ المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته على سكنى الشام، وإخباره بتكفّل الله عزّ وجلّ بمن سكنه من أهل الإسلام.

وهكذا توالت الأبواب المتصلة بأمور هامة تتصل بالشام عامة ودمشق منها على وجه الخصوص مما هو مرفوع وموقوف وله في نظر المشتغل بالعلم قيمة علمية كبرى، وقد استغرق ذلك المجلدة الأولى من «تاريخ مدينة دمشق» بتمامها وقسماً كبيراً من المجلدة الثانية، ولولا خشية الإطالة لسردت أسماءها جميعاً.

ثم انتقل ابن عساكر في القسم الثاني من المجلدة الثانية من الكتاب للكلام على وصف دمشق في عصره في عصره وصفاً طبوغرافياً، فتحدث عن سورها وأبوابها وحاراتها وأسواقها ومساجدها ومدارسها وبيمارستاناتها وفروع نهرها وبساتينها، وغير ذلك مما له صله بأمر وصفها.

أهمية تراجم «تاريخ مدينة دمشق»:

وأتبع ابن عساكر ذلك بإيراد تراجم الأعلام الذين ذكرهم في الكتاب، وأفتتح تراجم الكتاب بالترجمة النبوية الشريفة، وهي من أوسع وأهم ما كتب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم،وقد استفاد منها جميع من في ألف السيرة النبوية الشريفة من بعده، ثم انتقل للترجمة لمن اسمه (أحمد) ثم (إبراهيم). وهكذا توالت التراجم في الكتاب إلى نهاية حرف الياء للرجال وفيهم عدد كبير من الصحابة(17) والتابعين وأتباع التابعين، والخلفاء، والوزراء، والقادة والعلماء، والأدباء، والشعراء، والفقهاء، والمحدثون، والأئمة، والمؤذنون، وغيرهم من الأعلام مشهورهم ومغمورهم.

وختم ابن عساكر الكتاب بإيراد تراجم النساء ورتبها على حروف المعجم أيضاً، وفيها تنوع كبير كتنوع تراجم الرجال التي سبق الكلام عليها، ومجموع تراجم الأعلام عنده في الكتاب يقترب من أربعة عشر ألف ترجمة.

الأهمية الأدبية لتاريخ مدينة دمشق:

وتتجلى الأهمية الأدبية لتاريخ مدينة دمشق في أمور، أهمها:

1- أنَّ اهتمام ابن عساكر بترجمة الشعراء، والأدباء، وعلماء العربية كاهتمامه بغيرهم من أصناف الناس، أمثال المُحَدِّثين، والفقهاء، ورجال الدولة، وأهل القضاء.

2- دِقَّتهُ في الرواية: فهو حين يروي الشعر يرويه على درجةٍ عاليةٍ من الدِّقَّة والضبط، حتى إنك لتراه ينصّ في كثيرٍ من الأحيان على اختلاف الرواية بين الفاء والواو من حروف العطف، كلّ ذلك ممَّا لا نكاد نجده عند كثيرٍ من الأدباء والمؤلِّفين، فلقد جرت عادتهم، في الكثير الغالب، أن يتجوَّزوا في رواية الأشعار والأخبار ما لا يتجوَّزون في غيرها من الأحاديث والآثار. أما الحافظ ابن عساكر فالأمران عنده سواء. والسبب في ذلك أنه مُحَدِّثٌ حافظٌ من أثبات الحفَّاظ يعرف لكل علم قيمته.

3- أن كثيراً من موارده قد اندثر، ولم يوقَف له اليوم على أثر، فهو ينقل في أحيانٍ كثيرةٍ عن كتبٍ مفقودةٍ، أو مجهولةٍ في زماننا، يكتفي بذكر مؤلِّفيها أحياناً، ويغفل أسماءهم أحياناً أخرى.

4- أن بعض مروياته من الشعر والأخبار كانت مشافهةً لأصحابها أو معاينةً دونما وساطةٍ، وذلك كروايته عن الشاعر الأمير أُسامة بن مُنْقِذ.

5- أنك تجد عنده من تراجم المقلّين والأغمار ومروياتهم الشعرية ما يَعْسُرُ الوقوف عليه في مصادر أخرى من مثل: (إبراهيم السّديد، وإبراهيم العُقَيلي، وإبراهيم بن وضّاح الجُمَحي، وأَسْبَاط بن واصل الشّيباني، والأُقَيْبِل القَيْني، وإمام بن أَقْوَم).

6- غزارة مادته العلمية والأدبية، ولاسيما ما يتعلق منها بتراجم الشعراء وأخبارهم، وذكر نُبَذٍ من أشعارهم ومرويّاتهم.

7- أنه عندما يتناول الشاعر بالترجمة لا بدّ أن يتحفَك بجديدٍ أو يُطرفك بغريب، كخبرٍ لم تقف عليه من قبلُ، أو روايةٍ لم تألفها بعدُ، أو ضبطٍ للاسم أو تقييدٍ له، أو شرحٍ للغريب، أو تفنيدٍ، أو استقصاءٍ في ذكر الإسناد أو النسب، مما لا تجده عند الكثرة من المؤلِّفين متصلاً بسبب»(18).

الجانب الحديثي عند الحافظ ابن عساكر، وأثر المحيط الأسري في تكوين شخصية العلمية:

مما لا شك فيه أن للمحيط الأسري الذي نشأ فيه ابن عساكر أكبر الأثر - بعد فضل الله عزَّ وجل - في تكوين شخصيته العلمية، فقد ولد في بيت قضاء وحديث وفقه، وكان أهل هذا البيت من كبار علماء دمشق وقضاتها، فما رأى ابن عساكر منذ نشأته غير العلماء وما وعى غير العلم، وكان أبوه الحسن بن هبة الله ابن الحسين شيخاً صالحاً، صحب الفقيه نصراً المقدسي وسمع منه (صحيح البخاري)، وأجاز له أبو الفضل بن خَيرون(19).

ويروي ابن عساكر أن أباه رأى رؤيا

فُسِّر معناها له بأنه يولد لك ولد يحيي الله به السُّنَّة، وأن أمَّهُ لمَّا حملت به رأت في منامها قائلاً يقول: تلدين غلاماً يكون له شأن(20)، وكان له خالان أوتيا طرفاً واسعاً من العلم، وتوليا قضاء دمشق، وكان أخوه الأكبر هبة الله بن الحسن بن هبة الله حافظاً فقيهاً ثقة(21). فترك هذا المحيط الذي عاش في أكبر الأثر في سلوكه وشؤون حياته، فقد كان مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كل جمعة، ويختم في رمضان كل يوم، ويعتكف في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار، يحيي ليلة النصف والعيدين بالصلاة والتسبيح، ويحاسب نفسه على كل لحظة في غير طاعة(22)، ولا غرو بأن الذي يعيش في مثل هذه الأسرة تتفتح مواهبه، وتنشط قريحته، وتتطلع نفسه إلى تحقيق أحاسن الأعمال، فمدارسة العلم في البيت والأسرة ترتقي بالأطفال والأولاد إلى آفاق عالية سامية، فيكبرون وتكبر معهم آمالهم وتطلعاتهم في الحياة، ويظهر من بينهم أفراد يفوقون أبناء عصرهم فطنة وذكاء وألمعية، وهذا ما كان من أمر ابن عساكر الذي تطلعت نفسه إلى الإتيان بما لم يأت به أبناء عصره في خدمة السُّنَّة النبوية المطهرة.

دراسته للحديث النَّبَوي بأصوله وفروعه في دمشق وخارجها:

سمع ابن عساكر سنة 555هـ باعتناء أبيه وأخيه الإمام صائن الدين هبة الله من أبي القاسم النَّسيب(23) وقوام بن زيد(24) وشُبَيْع بن قيراط(25)، وأبي طاهر الحِنّائي(26)، وأبي الحسن بن المَوَازيني(27) وطبقتهم بدمشق.

ورحل سنة عشرين وخمس مئة، فسمع أبا القاسم بن الحُصَين(28)، وأبا الحسن الدِّيْنَوَري(29)، وأبا العزّ بن كادِش(30)، وأبا الغالب بن البنّا(31)، وأبا عبد الله البارع(32)، وقاضي المرستان(33) وطبقتهم ببغداد.

وعبد الله بن محمد الغَزَّال بمكَّة(34). وعمر بن إبراهيم الزيدي(35) بالكوفة.

وأبا عبد الله الفراوي(36) وهبة الله بن السَّيِّدي(37) وعبد المنعم بن القُشيري(38) وطبقتهم بنيسابور.

وسعيد بن أبي الرّجاء(39). والحُسين بن عبد الملك الخلاَّل(40). وطبقتهما بأصبهان.

ويوسف بن أيوب الهَمَذَاني الزاهد(41) بمرو. وتميم بن أبي سعيد الجُرْجَاني(42) وطبقته بهرَاة.

وبلغ عدد شيوخه ألفاً وثلاث مئة شيخ، ونيِّفاً وثمانين امرأة.

وهذا التحصيل الذي حصل عليه بعد الدراسة في دمشق والرحلة إلى خارجها، جعله ينصرف بكلِّيته نحو الحديث النبوي، وينهج نهج المُحَدِّثين في جميع أموره وأحواله، وقد أكسبه ذلك خيرة واسعة في شؤون السُّنَّة النبوية وما يتصل بها، وانعكس ذلك على معظم مؤلفاته العلمية التي خلَّفها، وعلى الخصوص منها (تاريخ مدينة دمشق) وقد بناه بنياناً حديثياً كاملاً، بحيث أورد جميع الروايات المتصلة بالأحاديث والآثار والأخبار بالأسانيد المتصلة من شيوخه وإلى أصحاب تلك الروايات، فتراه يورد ترجمة المترجم له في كتابه ويفصِّل في شؤون سيرته وأحواله، ويتحدث عن شيوخه وتلامذته، ثم ينتقل إلى إيراد أخباره ورواياتها بالأسانيد، وتستوي في ذلك تراجم المُحَدِّثين والفقهاء والقُرَّاء والأدباء والشعراء والأمراء والأعيان، وبعض تلك الأسانيد صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف بسبب الانقطاع أو الإرسال أو لوجود راو أو أكثر من المتكلم فيهم بين رجال السَّند، وهذا لا يقدح في أمر الحافظ ابن عساكر ولا يقلل من شأنه، لأن إيراد لأحاديث والأخبار بالأسانيد يرفَع العهدة عن المؤلف إذ كان حاله حال الخبير النقَّاد الذي لا تخفى عليه العلل القادحة بالمتون أو الأسانيد، ولقد أثنى على ابن عساكر جميع العلماء بالحديث ممن عاصره أو جاء في العصور التي تلته،

وشهدوا له بالإمامة وسَعَة الدائرة في الحديث والتاريخ والرجال»(43).

«وبعد: فـ«تاريخ مدينة دمشق» عِدادهُ في دواوين الأدب والشعر والأخبار، عِدادهُ في كتب التاريخ والتراجم والآثار، لما يزخر به من مادةٍ غزيرةٍ في تراجم الشعراء والأدباء، مع العناية بإيراد نماذج من أشعارهم، ونقل أطراف من مروياتهم وأخبارهم»(44).

وقد نشر مجمع اللغة العربية بدمشق قسماً كبيراً منه، ومازال القسم الآخر غير المنشور منه ينتظر همم الغيورين على تراث أمتنا ليخرجوه إلى عالم المطبوعات بعد أن طال انتظار أهل العلم وطلبته لرؤيته وقد اكتمل عقده منشوراً وصادراً عن هذا الصرح العلمي الكبير.

وفي الختام أقول: مهما قيل في هذا السّفر العظيم من الكلام، سيجد الباحثون على مرّ الأيام مجالاً للكلام الكثير في وصفه ودراسة كل جزئية من جزئياته العلمية والأدبية والتاريخية والحديثية، فهو بحر عظيم زاخر، وهل يختصر الكلام أو ينتهي في وصف البحر؟ لا أدعي ذلك بكل تأكيد.

الهوامش

(1) انظر الدراسة التي تناولت سيرته ومصنّفاته في صدر الجزء الأول من «معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر، الصادر عن دار الفكر بدمشق، استخراج وتحقيق صديقي الفاضل الدكتور حسام الدين فرفور، وإشراف أستاذنا العلّامة الدكتور شاكر الفحام رحمه الله، وكتابي «عناقيد ثقافية» ص (45 – 50) طبع دار المأمون للتراث بدمشق.

(2) عن مقدمتي لكتاب «تكملة مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (3/1) طبع دار الفكر بدمشق.

(3) انظر ترجمته ومصادرها في كتابي «أعلام التراث في العصر الحديث» ص (82- 84) طبع مكتبة دار العروبة بالكويت ودار ابن العماد ببيروت، وكان مجمع اللغة العربية بدمشق يعرف بـ«المجمع العلمي العربي».

(4) انظر مسرد سيرته في كتاب تكريمه الذي أصدره اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

(5) عن تقديمي للجزء الخاص بـ(ترجمة أبي هريرة رضي الله عنه) من «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر، بتحقيق الأستاذ ياسين محمود الخطيب ومراجعتي وتقديمي، طبع دار صادر ببيروت. بتصرف يسير.

(6) عن كتاب «القطوف الدانية» الذي يضم مجمل آثار العلاَمة الدكتور شاكر الفحام، طبع الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2007م.

(7) وقد قمت باستخراج وتحقيق تكملة لـ«مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور مؤلّفة من ستة أجزاء، وشاركني العمل في تحقيها الأساتذة: د. رياض عبد الحميد مراد، أكرم البوشي، ياسين محمود

الخطيب، أديب محمد الغزاوي، وألحق بها جزء للفهارس العامة، وقد صدرت «التكملة» بتمامها عن دار الفكر بدمشق.

(8) تجد الحديث المفصّل في وصف تاريخ مدينة دمشق، ومخطوطاته، وترجمة المؤلف ابن عساكر، في المقدّمة الضافية التي قدّم بها الأستاذ الدكتور صلاح الدِّين المنجد بين يدي المجلدة الأولى التي نشرها من تاريخ ابن عساكر.

(9) عن تقديم أستاذنا العلّامة الدكتور شاكر الفحام رحمه الله لـ«معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر (4/1- 5) طبع دار الفكر بدمشق بتصرف يسير.

(10) عن تقديم أستاذنا العلّامة الدكتور شاكر الفحام رحمه الله لـ«معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» (7/1).

(11) عن مقدمة الصديق الدكتور حسام الدين فرفور لـ«معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» (9/1).

(12) عن «تاريخ مدينة دمشق» (3/1 – 5) بتحقيق الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.

(13) سورة البقرة: الآية (189).

(14) عن «تاريخ مدينة دمشق» (21/1) طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.

(15) عن «تاريخ مدينة دمشق» (23/1) طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.

(16) عن «تاريخ مدينة دمشق» (24/1) طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.

(17) وقد كان لي شرف الإسهام بتحقيق الجزء الخاص بترجمة (علي بن أبي طالب ﷺ) من أجزائه والتقديم له، وهو قيد الطبع الآن في مجمع اللغة العربية بدمشق وسيصدر قريباً إن شاء الله تعالى.

(18) عن مقدمة الصديق الدكتور حسام الدين فرفور لكتاب «معجم الشعراء من مدينة دمشق» لابن عساكر (12/1 - 13) طبع دار الفكر بدمشق.

(19) تراجم ابن عساكر ص150 تصرف.

(20) سير أعلام النبلاء 562/20 بتصر يسير.

(21) شذرات الذهب 343/6 وتراجم ابن عساكر ص150 – 151.

(22) سير أعلام النبلاء 562/20.

(23) هو أبو القاسم علي بن إبراهيم بن العبَّاس الحسيني الدمشقي الخطيب، الرئيس، المُحَدِّث، صاحب الأجزاء العشرين التي خرَّجها له الخطيب، توفي سنة (508هـ) شذرات الذهب 37/6 – 38).

(24) هو قوام بن زيد البكري الدمشقي المُرِّيّ، أبو الفرج، المتوفى سنة (509هـ). مختصر تاريخ دمشق (21/ 92) وسير أعلام النبلاء 295/19) وقد تحرفت (المُرّي) فيه إلى (المِزّي) فلتصحح.

(25) هو أبو الوحش سُبَيع بن المسَلِّم الدمشقي، المقرئ الضرير، ويعرف بابن قيراط، وقرأ لابن عامر الأهوزي، ورشأ، وروى الحديث عنهما، وعن عبد الوهاب بن برهان، وكان يقرئ من السّحر إلى الظهر، توفي في شعبان سنة (508هـ). ينظر مشيخة ابن عساكر 69 آو شذرات الذهب 36/6.

(26) هو أبو طاهر بن محمد بن الحسين بن

محمد الحنائي الدمشقي، من أهل بيت حديث وعدالة وسُنَّة وصدق، توفي سنة (510هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 436/19 وشذرات الذهب 47/6.

(27) هو أبو الحسن علي بن الحسن السلّمي، العالم المسند القمرئ الثقة، شيخ دمشق، مات سنة (514هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 437/19 وشذرات الذهب 75/6.

(28) هو: هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن العباس بن الحصين الشّيباني الهمذاني البغدادي، مسند العراق، مات سنة (525هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 536/19 والعبر 66/4 وشذرات الذهب 127/6.

(29) هو: علي بن عبد الواحد بن أحمد الدِّينوري البغدادي، أبو الحسن، الشيخ المُعَمَّرُ الصدوق، مات سنة (521هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 529/19، والعبر 50/4 وشذرات الذهب 105/6.

(30) هو: أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن كادش السُّلَمي العُكبري، أبو العزّ، الشيخ الكبير، المتوفى، سنة (526هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 558/19 والعبر 68/4 وشذرات الذهب 129/6.

(31) هو أحمد بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنَّا البغدادي الحنبلي أبو غالب، الشيخ الصالح الثقة، مسند بغداد، مات سنة (527هـ). ينظر تذكرة الحفاظ 1288/4 وسير أعلام النبلاء 603/19 والعبر 71/4 وشذرات الذهب 132/6.

(32) هو: أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب البغدادي الدبَّاس، المقرئ البارع، الأريب الشاعر، وهو من ذرية أبي القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد، مات سنة (524هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 533/19 والعبر 56/4 وشذارت الذهب 114/6.

(33) هو: أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد بن عبد الله الأنصاري البغدادي الحنبلي البزَّاز، قاضي المارستان، ومسند العراق، مات سنة (535هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 23/20 والعبر 96/4 وشذرات الذهب 177/6.

(34) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن الغَزَال المصري، المجاور بمكة: شيخ صالح مقرئ مات سنة (524هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 557/19 والعبر 56/4 والعقد الثمين 242/5 وشذرات الذهب 115/6.

(35) هو أبو بركات عمر بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي الزَّيدي الكوفي العلّامة المقرئ النحوي، عالم الكوفة، وشيخ الزيدية. مات سنة (539هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 145/20 والعبر 108/4 وشذرات الذهب 200/6.

(36) هو أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الصاعدي النيسابوري الفُراوي، الشيخ الإمام، مسند خراسان، فقيه الحرم، قيل فيه: الفُراوي ألف رواي، أي يعدل ألف راو. مات سنة (530هـ). ينظر

سير أعلام النبلاء 615/19 والعبر 83/4 وشذرات الذهب 157/6.

(37) هو هبة الله بن سهل بن عمر البسطامي النيسابوري السَّيِّدي، أبو محمد، الإمام الصالح العابد، مسند وقته، المتوفى سنة (533هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 14/20 والعبر 93/4 وشذرات الذهب 170/6.

(38) هو: عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوزان القشيري النيسابوري أبو المظفَّر، الإمام المُسنِدُ المَعَّمر مات سنة (532هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 623/19 والعبر 88/4 وشذرات الذهب 164/6.

(39) هو: سعيد بن أبي الرّجاء محمد بن أبي منصور بكر، الأصبهاني الصَّيرفي الخلاَّل السِّمْسار، أبو الفرج، الشيخ الصالح، العالم الثقة، بقية المشايخ، مات سنة (532هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 622/19 والعبر 87/4 وشذرات الذهب 163/6.

(40) هو: أبو عبد الله الحسين بن عبد الملك بن الحسين بن محمد بن علي الأصبهاني الخلاَّل الإمام الصدوق، مسند أصبهان، شيخ العربية، بقية السَّلف، مات سنة (532هـ).

(41) هو أبو يعقوب يوسف بن حسين بن وَهْرَة الهمذاني الصوفي، شيخ مرو، وبقية مشايخ الطريق العاملين. مات (535هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 66/20 والعبر 97/4 وشذرات الذهب 181/6.

(42) هو أبو القاسم تميم بن أبي سعيد الجُرجاني، الشيخ الفاضل المؤدِّب، مسند هَرَاة، المتوفى سنة (531هـ) أو (530هـ). ينظر سير أعلام النبلاء 20/20 والعبر 85/4 وشذرات الذهب 159/6.

(43) عن مقدمة الصديق الدكتور حسام الدين فرفور لـ «معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» (1/81 – 86).

(44) عن مقدمة الصديق الدكتور حسام الدين فرفور لـ «معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر (12/1) طبع دار الفكر بدمشق.

❑❑

مختصر تاريخ دمشق
للعلاّمة اللغوي جمال الدين بن منظور المصري الإفريقي وتكملته

حسن إسماعيل مروة

مقدمة

ودمشق الخالدة تدلف نحو خط النهاية لعام زفّت فيه عروساً للثقافة، وعاصمة ومؤئلاً لها، لابد من الوقوف مع الذات، لطرح مجموعة من التساؤلات، ولتقرير بعضٍ من الحقائق، فيها مصارحة ومكاشفة، فيها مراجعة ومحاسبة.

لا نجلد الذات بسياط النقد العابث الهادم، ولا نسرح مع حلم وردي على فراش الادِّعاء والغرور..

فالنقد غير المبرر وغير المعلل وغير المشفوع بالحلول والآراء والمكاشفات المناسبة لم يكن يوماً سبيلاً إلى الارتقاء والتطوير.

وكذا الهروب من الواقع، وقلب الحقائق، وتسمية الأشياء بغيرها مسمياتها لم يكن يوماً ـ ولن يكون ـ بلسماً لجراح كبريائنا المكلومة بالجهل والتخلف والتمزق واللامبالاة.

أقول: ونحن نودع هذه المناسبة التي طال انتظارها، ولا ندري إن كان جيلنا سيعيش دورتها الجديدة عندما تأتي مرة أخرى..

نتساءل:

ـ ما الذي كان يحدونا ـ جميعاً ـ ونحن نعيش أيام دمشق ونعمل من أجلها:

حبُّ دمشق أم حبُّ الذات؟ الحرص على أن تظهر دمشق بأحلى حللها أم نظهر نحن بأبهى مظاهرنا؟!.

ـ ما المهم يا ترى؛ شهادة دمشق بتطورها.. ثقافة وجمالاً، نظافة وانضباطاً وطُهراً.. أم شهادة أولي الأمر لكلام وأُمنيات ووعود لن تتحقق؟!

ـ هل دخلنا البيوت من أبوابها، وأطلقنا على الأشياء مسمياتها الحقيقية، وتسلَّمنا بالحبِّ الصادق والعزيمة التي لا تلين، مستثمرين الوقت والجهد والمال كل في طريقه تماماً، من غير خداع ولا غشّ ولا مواربة..؟!

في هذا الخضم المتلاطم الحائر يحلو لي أن أتقدَّم بهذه الكلمات التي تحمل في أثنائها أطيب المشاعر تارة، ومرَّ العتب تارة أخرى، يحلو لي أن أعرض لكتاب هو من خير الكتب، ومفخرة الكتب..

إنه ((مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر)) لابن منظور وتكملته.

من أجل الولوج إلى هذا العرض لابد من الوقوف قليلاً مع الكتاب الأم ((تاريخ دمشق لابن عساكر)) مع المؤلف ومع الكتاب. مسجلين شيئاً من العتب المحب. لننتقل بعدها إلى الكلام على المختصر وتكملته، مسجلين شيئاً من الشكر الرقيق.

1 ـ تاريخ دمشق لابن عساكر.

أ ـ المؤلف: الإمام العلامة الحافظ، محدّث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الدمشقي الشافعي، الملقب بعد وفاته بابن عساكر(1).

ـ ولد في أول المحرم عام (499 هـ) بدمشق، سمع فيها سنة (505 هـ)، ثم ارتحل إلى العراق سنة (520 هـ). أقام ببغداد خمسة أعوام، حجّ في أثنائها عام (521 هـ).

ـ حصل العلم ببغداد، وسمع بمكة وبالمدينة، وبأصبهان، وبنيسابور، وبمرو، وبهرات، وبالكوفة وبهمذان وتبريز والموصل. حتى وصل عدد شيوخه الذين ذكره في معجمه إلى (1300) شيخ بالسماع، و(46) شيخاً أنشدوه، و(290) بالإجازة، ما عدا شيخاته من النساء اللواتي بلغن بضعاً وثمانين امرأة أفرد لهن معجماً صغيراً، صرح الذهبيُّ في كتابه السير (2) أنه سمعه.

ـ حدث ابن عساكر في مواضع متعددة، فقد حدث ببغداد والحجاز وأصبهان ونيسابور، ومن هنا كان عدد تلامذته كثيراً.

ـ مات سنة (571 هـ) وله من العمر ثنتان وسبعون عاماً، حضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن بباب الصغير.

ـ صنّف الكثير، من ذلك (تاريخه) في ثمان مئة جزء، والجزء عشرون ورقة، فيكون (16000) ورقة.

وقد وسمه بـ (تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها).

وهو من أعظم وأوعب ما أُلِّف في تاريخ المدن، حذا فيه ابن عساكر حذو الخطيب البغدادي (3) من كتابه المشتهر (تاريخ بغداد) وجعله على نسقه، لكنه بزّه حجماً ونفعاً. إذ يقع في ثمانين مجلداً.

ترجم فيه للأعيان والعلماء والمشاهير ممن سكن دمشق أو اجتاز بها منذ زمن الصحابة حتى عصره، بل إنه ترجم لبعض الأقدمين كـ (سليمان وشعيب عليهما السلام).

رتب أسماء المترجمين ترتيباً ألفبائياً، مقدماً تراجم من اسمه (أحمد) تيمناً باسم النبي ﷺ، مقتفياً أثر المحدّثين من حيث العناية بالسند كالعناية بالخبر.

افتتح كتابه بذكر فضائل الشام وخططها، ثم أورد شيئاً من السيرة النبوية المباركة.

وكرّت بعد ذلك تراجم الرجال والنساء

من علماء هذه الأمة وعالماتها، والمشتهرين فيها. وقد تبنى مجمع اللغة العربية بدمشق مشروع طبع هذا السفر العظيم، في عهد رئيسه الأول الأستاذ محمد كرد علي ـ رحمه الله ـ وهو أحقّ الهيئات به، وأولاها.

طبع المجلد الأول منه عام 1951م، والقسم الأول من المجلد الثاني عام 1954، كلاهما بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، وتتابع صدور المجلدات في مدد متباينة بعناية الشيخ محمد أحمد دهمان والدكتور شكري فيصل، والأساتذة: رياض عبد الحميد مراد، وروحية النحاس، ومطاع الطرابيشي، وسكينة الشهابي، رحم الله من قضى منهم، ومتَّع الباقين بالصحة والعافية ونفعنا بهم.

ومازال الكتاب من يومها يتعثر تارةً، ويسير سير السلحفاة تارة أخرى، ومازال سؤال يتردد في صدري يضرم فيه النار، ويثير فيه الدهشة والأسى، وهو: ((لو كان لواشنطن أو لندن أو باريس أو برلين كتابٌ كهذا الكتاب هل كانت تتراخى همم أهلها وأرباب الشأن فيها كل هذا التراخي، وتتقاعس كل هذا التقاعس عن إخراجه...؟!)).

ولنلاحظ: أول مجلد منه طبع عام 1951م.. ومازال يحبو.

كنت على يقين من أن المعنيين بالثقافة وشأنها، وبدمشق وتاريخها، لن يتركوا مناسبة ((دمشق عاصمة الثقافة العربية)) و((دمشق حاضنة اللغة العربية)) تمرّ من غير أن يسجّلوا مأثرةً خالدة في صفحات اهتمامهم واعتزازهم بلغتهم وتاريخهم وتراثهم، وتراث دمشق الخالد الذي هو جزء منه، وما تمَّ فعلاً على أرض الواقع أننا غنّينا لدمشق، ورقصنا لها في الساحات، وجَّهنا تحية لابن دمشق نزار قباني بليالٍ غنائية متتابعة.. ولم نكلف أنفسنا إصدار طبعة شعبية من أعماله، تكون بين أيدي الناس.

وهاهي المناسبة تمرّ مسرعة، مودّعة إيانا صوب القدس الجريح، وقد اختيرت عاصمة للثقافة العربية للعام 2009م.

والسؤال مازال حائراً يلذعني، بل نبت إلى جواره سؤال آخر أشدّ مرارة وتعبيراً عن الخيبة هو: ((أهكذا تورد يا سعدُ الإبل..؟!)).

تاريخ ابن عساكر ـ مكانته وأصداؤه:

≥ عكف على هذا السفر العظيم ثلة من العلماء الأجلاء قديماً وحديثاً يستقون من معينه العذب فقد:

1 ـ استلَّ منه أستاذنا الكبير سعيد الأفغاني ـ رحمه الله ـ ترجمتين الأولى لابن حزم الظاهري، والثانية للسيدة عائشة رضي الله عنها.

2 ـ وكذا أُفرد بالطبع منه ترجمة علي بن أبي طالب ﵁، نشرها محمد باقر المحمودي، ثم حققها وعلق عليها: رياض

عبد الحميد مراد ومحمود الأرناؤوط، وياسين محمود الخطيب وهي تحت الطبع الآن في مجمع اللغة العربية بدمشق، وترجمة الإمام الزُّهري بتحقيق شكر الله بن نعمة الله قوجاني، وترجمه الصحابي الجليل أبي هريرة، بتحقيق ياسين محمود الخطيب، ومراجعة وتقديم محمود الأرناؤوط.

3 ـ وآخر الأعمال الجليلة في أيامنا هذه ما يقوم الدكتور حسام الدين فرفور ومعه لفيف من المحققين الأفاضل بفعله، وهو استلال معجم للشعراء الوارد ذكرهم في هذا الكتاب ما عدا بعض المسانيد التي يصدرها المهتمون بهذا الفن ـ فن الحديث ـ تباعاً.

≥ تناول تاريخ دمشق بالعناية والاهتمام والدرس، فئة من العلماء، ولكن بطريقة تختلف عما فعله السادة المذكورون من قبل؛ إذ لم يكتفوا بتناول جانب من الجوانب وفن من الفنون، بل تناولوا الكتاب كله بالتهذيب والاختصار، منهم:

1 ـ الإمام الذهبي الذي اختصره في عشرة مجلدات، وذكر الحافظ شمس الدين السخاوي المتوفّى سنة (902 هـ) في كتابه (الإعلان بالتوبيخ ص 631) أنه قد رآه.

وعلى ما بذلنا من جهد لم نقع له على أثر.

2 ـ الشيخ عبد القادر بَدْران الدماني الحنبلي، المتوفّى سنة (1346 هـ ـ 1927م) هذبه بثلاثة عشر جزءاً، طبع منها سبعة، ولا تزال الباقية مخطوطة.

3 ـ الإمام العلامة اللغوي جمال الدين بن المكرّم ابن منظور، صاحب (لسان العرب) وغيره من الروائع، قام باختصاره بتسعة وعشرين جزءاً.

4 ـ الأستاذ محمود الأرناؤوط ـ متعنا الله بحياته وعلمه ـ قام يشاركه لفيف من الأفاضل بتكملة المختصر. بستة مجلدات.

وسوف يكون كلامنا على (المختصر) و(التكملة) ـ إن شاء الله ـ نسأله تعالى أن يرزقنا الإتقان في العمل، والسداد في الرأي، إنه خير مسؤول.

2 ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر للإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور.

أولاً ــ ابن منظور (4).

أ ـ اسمه ونسبه: هو جمال أبو الفضل محمد بن مكرّم ـ بتشديد الراء ـ بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي.

ولد أول سنة (630 هـ) في طرابلس الغرب، وقيل: إنه ولد في مصر، وقد رجح بعضهم ولادته في طرابلس؛ لأن جدّه الأعلى: رويفع بن ثابت الأنصاري (5) كان حاكماً عليها، وفيها مات. وقيل غير ذلك.

وأسرته مازالت إلى يومنا الحاضر، وما

زال أعقابهم (آل المكرّم) إلى اليوم بتاجوراء التابعة لطرابلس الغرب.

ويجب ألا يفوتنا هنا أن ابن منظور تولّى قضاء طرابلس الغرب.

أما من أين له (المصري) فأقول: إنه قطع معظم فتوته وشبابه في مصر يتلقى العلوم عن علمائها.

ب ـ حياته العلمية:

نشأ على حبِّ العلم صغيراً، فما كاد يفتح عينيه على الحياة، حتى وقعتا على العلماء والأفاضل يرتادون بيت والده، وهو الفتى الفطن الذكي، مما ترك أثراً في حياته.

يقول ابن منظور في مقدمة كتابه: (نثار الأزهار في الليل والنهار) يصور لنا تلك المرحلة:

((كنت في أيام الوالد ـ رحمه الله ـ أرى تردّد العقلاء إليه وتهافت الأدباء عليه، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي العبسي (6) في جملتهم، وأنا في سنّ الطفولة لا أدري ما يقولونه، ولا أشاركهم فيما يلقونه، غير أني كنت أسمعه يذكر للوالد كتاباً صنَّفه، أفنى فيه عمره، واستغرق دهره، وأنه سماه (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) (7) وأنه لم يجمع ما جمعه في كتاب.

وكنت شديد الشوق إلى الوقوف عليه، وتوفي الوالد في سنة 645 هـ، وشغلت عن الكتاب)) ولكنه حصل بعدئذ ـ سنة 690 هـ ـ على أجزاء متفرقة من مسوّدته فرتبه وهذبه وكان ما ذكرناه من خبره.

ولم يذكر له مترجموه من الشيوخ إلا أربعاً، وهم:

1 ـ مرتضى بن أبي الجود حاتم بن المسلم الحارثي (8)، المتوفّى سنة 634 هـ.

2 ـ عبد الرحيم بن يوسف بن هبة الله بن الطفيل (9)، المتوفّى سنة 637 هـ.

3 ـ يوسف بن عبد المعطي بن منصور بن المخيّلي (10)، المتوفّى سنة 642 هـ.

4 ـ علي بن الحسين بن علي بن منصور البغدادي الحنبلي (11)، المتوفّى سنة 643 هـ.

ومما يستوقف المرء أن هؤلاء المشايخ ماتوا جميعاً قبل أن يبلغ الحلم، ثم لحق بهم أبوه سنة 645 هـ. فهل جرفته الحياة بعدها بمشاغلها ومشكلاتها، فلم يأخذ عن أحد سوى هؤلاء؟..

وكذا لم يذكروا له من التلاميذ إلا أربعاً، وهم:

1 ـ ابنه قطب الدين.

2 ـ علم الدين البرزالي (12)، المتوفّى سنة 739 هـ.

3 ـ تقي الدين السُّبكي (13)، المتوفّى سنة 756 هـ.

4 ـ الشمس الذهبي (14)، المتوفّى سنة 748 هـ.

له بعض من الشعر، لا يخلو من دعابة وظرف، فمنه: [من الخفيف]

ضَعْ كتابي إذا أتاكَ إلى الأر
ضِ وقلِّبه في يَدَيْك لماما
فعلى خَتْمه وفي جانبيه
قُبَلٌ قد وضعْتُهنَّ تؤاما
كان قصدي بها مباشرةَ الأر
ضِ وكفّيك بالتثامي إذا ما

وقال: [من البسيط]

الناسُ قد أثموا فينا بظنِّهمُ
وصدَّقوا بالذي أدري وتدرينا
ماذا يضرّك في تصديق قولهمُ
بأن نحقِّقَ ما فينا يظنُّونا
حمْلي وحمْلك ذنباً واحداً ثقةً
بالعفو أجملُ من إثمِ الورى فينا

وقال: [من السريع]

بالله إن جزتَ بِوَادي الأراك
وقبَّلَتْ أغصانُهُ الخضرُ فاكْ
ابعثْ إلى الملوك من بعْضه
فإنني ـ والله ـ ما لي سواكْ (15)

ويقولون: إنه كان يتشيّع بلا رفض، وهذا ما يسوقه بعض الدارسين لإسقاطه ما أسقطه من تراجم، التي جُمعت في التكملة كما سيأتي.

كما أنه عمي في آخر عمره.

توفاه الله في شعبان سنة 711 هـ.

جـ ـ مؤلفاته:

توزعت مؤلفات ابن منظور في شعبتين:

1 ـ جمع الأخبار والمواد والفوائد وترتيبها وتبويبها، منها لسان العرب.

2 ـ اختصار المطولات ومنها تاريخ ابن عساكر.

إلا أنه كان مغرىً باختصار المطولات إغراءً لفت إليه أنظار معاصريه ومن جاء بعدهم حتى إن الصلاح الصفدي قال فيه: ((ما أعرف في كتب الأدب شيئاً من المطولات إلا وقد اختصره جمال الدين بن المكرّم ـ رحمه الله تعالى ـ فمّما اختصره: كتاب (الأغاني) ورتبه على حروف المعجم، وكتاب (الحيوان) للجاحظ فيما أظن، و(اليتيمة) للثعالبي، و(الذخيرة) لابن بسام، و(نشوان المحاضرة) و(مفردات) ابن البيطار، واختر (تاريخ ابن عساكر) و(تاريخ الخطيب) (16) ، و(ذيل) ابن النجار عليه، واختصر كتاب التيفاشي وسماه (سرور النفس) في عشرة كبار، وجمع بين (صحاح) الجوهري و(المحكم) لابن سيده وكتاب الأزهري فجاء في سبعة وعشرين مجلداً

وسماه (لسان العرب)، وأراني ولده قطب الدين أول النسخة)). (17)

ثانياً ـ المختصر

يمثل هذا الكتاب لبنة هامة في جدار تراثنا الغني، وتأتي أهميته من تقصير الجهات الثقافية المختصة في حقّ الأصل (تاريخ ابن عساكر). إذ استطاع هذا المختصر أن يسدَّ ثغرة ويفي بالغرض، ومن كون ابن منظور عالماً راسخ القدم في هذا الفن (فن الاختصار).

لكل ما تقدم رأت دار الفكر للنشر والتوزيع بدمشق، ممثلة بمديرها العام الأستاذ محمد عدنان سالم، رأت أن تقدِّم هذا الكتاب خدمة للتراث عامة ولابن عساكر ودمشق خاصة، لعل بعض الينبوع يقوم مقام النهر.

من أجل ذلك وضعت خطة موحدة شاملة لتحقيق الكتاب، ثم انتدبت طائفة من المحققين، وأوكلت إليهم مهمة تحقيقه وإخراجه إلى حيِّز الوجود.. أذكر من هؤلاء (مع تقديري للألقاب) **الأساتذة:**

إبراهيم الزيبق، مأمون صاغرجي

إبراهيم صالح، محمد مطيع الحافظ، أحمد راتب حموش، محمد ناجي العمر، رياض عبد الحميد مراد، نزار أباظة

والسيدات:

روحية النحاس، سكينة الشهابي، وفاء تقي الدين

وعندما استوى الكتاب على سوقه دفعته الدار إلى ثلّة من الباحثين العاملين في هذا الفن، وأسندت إليهم مهمة فهرسته فهرسة فنية حديثة، تخدم الكتاب، وتقدم كل ما فيه للقارئ بسهولة ويسر. وهم الأساتذة:

محمود الأرناؤوط ، رياض عبد الحميد مراد، حسن إسماعيل مروة، وليد يوسف العاني

محمد مطيع الحافظ، ياسين محمود الخطيب

أ ـ نهج ابن منظور في الاختصار:

1 ـ إثبات الاسم المترجم ونسبه، والتعريف به، والمدن التي دخلها وتلقّى العلم فيها، كما ورد في التاريخ الكبير تماماً.

2 ـ حذف من روى عنهم المترجَم ومن روى عنه.

3 ـ حذف الأسانيد، والاكتفاء بواحد منها أحياناً.

4 ـ اختيار الخبر الأطول والأكمل، وربما حذف المكرر في أغلب الأحيان.

5 ـ عدم الإخلال بالأصل بإضافةٍ أو حذفٍ، مهما كان ذلك يسيراً، وخصوصاً الشعر.

6 ـ فيه كير من التراجم التي لا نجدها في النسخة الأم من تاريخ ابن عساكر، لما أصابه من خرم وسقط وطمس.

ب ـ النّسخ الخطّية المعتمدة في تحقيق المختصر وإخراجه:

هي نسخة خطية واحدة، وهي مصورة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، كان المعهد قد صوّرها من مكتبة أحمد الثالث، ومكتبة كوبريلي وغيرهما، وكلُّها في تركية.

وهناك جزء من النسخة نفسها في مكتبة غوتا برقم (1776) وكل هذا بخط ابن منظور نفسه. مقياس النسخة (24 × 18)، في كل ورقة (21) سطراً، وفي كل سطر (11) كلمة.

الخط الذي كتبت به نسخي مقروء معظمه، ما عدا بعض الحروف كالفاء والواو، والسمة البارزة لهذه النسخة أنها في معظمها غير منقوطة، وغير مضبوطة.

تقع هذه النسخة في تسعة وعشرين جزءاً، نرى على كل غلاف جزء تمليكات، منها: لابن حجّي، ولابن الطّحان، ولمحمد بن إقبال العلائي، وعلى بعضها وقف لمكتبة أحمد الثالث.

جـ ـ منهج التحقيق:

نهج الأساتذة المحققون المنهج العلمي المتبع في فن التحقيق، فكان أن:

1 ـ اعتمدوا تقسيم ابن منظور للأجزاء، وابن منظور تابع ابن عساكر في التقسيم نفسه.

2 ـ التزموا المنهج من حيث تفصيل النص وتقسيمه بعلامات الترقيم المناسبة، وأسهموا في ضبط النص، ولاسيما القرآن الكريم والحديث الشريف، والأشعار، وما يُشكل على القارئ من الأعلام والمواضع.

3 ـ اجتزؤوا التعليقات، واقتصروا منها على ما يخدم الكتاب، ويوضح ما استغلق فهمه.

4 ـ انبرى بعض المحققين منهم إلى اختصار الأجزاء التي ضاعت من المختصر، على نهج ابن منظور وإليكم بيانَ ذلك وتوضيحه:

الأجزاء: الرابع، والتاسع عشر، والرابع والعشرون. اختصره الأستاذ إبراهيم صالح.

الأجزاء: الثالث عشر، والخامس عشر، والحادي والعشرون، والثامن والعشرون. اختصرتها/ أ. سكينة الشهابي.

الجزء الثاني والعشرون، اختصرته أ. وفاء تقي الدين.

5 ـ أفردوا كل جزء بثبت تسرد فيه مصادر التحقيق، يليه فهرس المترجم لهم في هذا الجزء.

د ـ فهارس المختصر:

كي يكون الكتاب ـ كما أسلفت ـ كنزاً مفتوحاً مشاعَ الفائدة لابد له من فهرسة فنية،

تعتمد الأسلوب الحديث. وهذا ما فعله الأساتذة المفهرسون، حيث صنعوا فهارس تفصيلية جاؤوا فيها بكل عجيبة، وكانت على النحو الآتي:

1 ـ فهرس الآيات القرآنية.
2 ـ فهرس الأحاديث والآثار.
3 ـ فهرس الآثار والأقوال.
4 ـ فهرس التراجم.
5 ـ فهرس مجاهيل الرجال.
6 ـ فهرس المجهولات من النساء.
7 ـ فهرس الأقوام والقبائل.
8 ـ فهرس الكتب والرسائل الواردة في المتن.
9 ـ فهرس المقيدات (يهتم بضبط الألفاظ المشكلة).
10 ـ فهرس الأعلام غير المترجم لهم في الكتاب.
11 ـ فهرس الأماكن والبلدان.
12 ـ فهرس الأشعار.
13 ـ فهرس الأمثال والحكم.
14 ـ الفهرس التاريخي.
15 ـ فهرس أدوات النبي ﷺ.
16 ـ فهرس الفوائد.
17 ـ فهرس غريب اللغة.
18 ـ فهرس التطبيعات والاستدراكات.

هـ ـ ما يؤخذ على المختصر:

إن من أبرز ما يؤخذ على المختصر أنه:

1 ـ سقط من مخطوطته بعض الأجزاء لجزوم حصلت فيها، لكن حرص الدار على تمامه، وحصافة الأساتذة المحققين، وصبرهم وحسن أدائهم، كل ذلك ساعد على سد هذه الثغرة، وتدارك هذه المثلبة بإتمام النقص.

2 ـ وتبقى مثلبة أخرى وهي الأهم في نظري، ألا وهي إسقاط ابن منظور لكثير من التراجم، وكلُّها تراجم نافعة صالحة، لا يجوز مجال إسقاطها، منها ما هو لبعض الصحابة الكرام، ومنها ما هو لبعض التابعين العظام، ومنها ما هو لأعلام ذوي خطر وشأن.

لماذا سقطت هكذا مصادفة..؟ الله وحده يعلم الجهر وما يخفى.

ومن أجل سدّ هذه الثغرات انتدبت دار الفكر العامرة من جديد ثلة من النخبة الذين امتازوا بعلم ودراية في هذا الفن، وكان للبعض منهم اليد الطولى من قبلُ في إعداد المختصر وفهارسه.

أوكلت إلى هذه الثلّة مهمَّة استدراك ما أسقطه ابن منظور من مختصره فكانت "التكملة".

ثالثاً ـ تكملة مختصر تاريخ دمشق لابن منظور

لقد قام الأستاذ الباحث محمود الأرناؤوط يساعده ثلّة من أصحابه العاملين في هذا الفن بتكملة مختصر تاريخ دمشق الجليل، ليوضع بين يدي الأجيال، ولسدّ ثغرة كانت فاغرة في بنيان تراثنا.

أ ـ منهج التكملة:

جمع الأستاذ محمود الأرناؤوط ورفاقه كلّ ما أسقطه ابن منظور من تراجم، ورتبوها وبوّبوها، متابعين بذلك ابن منظور شكلاً ومضموناً.

حذفوا الأسانيد، مكتفين براوي الحديث، أو الأثر أو الخبر.

تركوا المكررات كما هي، من غير حذف، لما لها من أهمية للباحثين، وكان ابن منظور قد حذف المكررات في مختصره.

قاموا بربط التراجم الواردة في التكملة بالأصل المستخرجة منه.

خرَّجوا الأحاديث، وأثبتوا حكم العلماء فيها.

شرحوا ما يمكن أن يكون صعباً أو يستغلق على الفهم من الألفاظ.

قيّدوا الأعلام وضبطوها، ولاسيما المُشْكل منها.

وأخيراً قاموا بإعداد فهارس فنية للتكملة.

ب ـ حجم العمل:

جاءت "التكملة" في ستة أجزاء في ثلاثة مجلدات، وألحق بها مجلد ضم الفهارس الفنية، وقد بلغ مجموع التراجم المستدركة ما يقرب من ثلاثة آلاف ترجمة، فجاءت كأنها قطعةً من المختصر الأم شكلاً ومضموناً.

أما عن حجم التراجم المستدركة فقد تفاوتت ما بين طويلة وقصيرة ومتوسطة.

جـ ـ أنموذج لترجمة من التراجمات:

حرف الألف

1 ـ أحمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن بكران بن شعيب بن ليث أبو الحسن الأرتاحي التغلبي القاضي النيربي.

سمع أبا الحسن الحنائي، سمع منه أبو محمد بن صابر، وذكر أنه سأله عن مولده فقال: ولدت سنة عشر وأربع مئة، وقال: هو ثقة، لم يكن الحديث من شأنه.

وذكر أبو محمد الأكفاني أن أبا الحسين أحمد بن علي بن أحمد الأرتاحي التغلبي توفي يوم الأحد السادس والعشرين من صفر بدمشق، سنة ست وثمانين وأربع مئة. وكذا ذكر أبو محمد بن صابر.

وفي الختام:

هذا عرض لكتاب تاريخ دمشق ومختصره وتكملة المختصر، قدمته في هذه المناسبة الغالية، مناسبة، اختيار دمشق عاصمة للثقافة العربية لهذا العام، وليت شعري إن لم تكن دمشق عاصمة الثقافة العربية، بل الإنسانية، هذا العام، وكل عام فأي المدن أحرى وأجدر بأن تكون؟!

أليست أقدم مدينة مازالت مأهولة في التاريخ؟!

أليست الأوابد الأثرية تعلو شامخة فيها بعضها إلى جانب بعض تروي حكاية من

عبروا، ومن مختلف الأعراق والأجيال والأطياف؟!

أما كانت - ومازالت - البوتقة التي ينصهر فيها الجميع لينتج خليط متجانس متآلف عجيب؟! أما كانت وما زالت الظل الحاني والركن الدافئ يمتد من يتفيأ ظلاله بأسباب الحياة والراحة؟!

دمت لنا يا شام يا شامة الدنيا، ومازال أبناؤك أوفياء لك.

ولابد لي قبل الوداع من كلمة وفاء وعرفان أوجهها إلى الأستاذ محمد عدنان سالم مدير دار الفكر العظيم للطباعة والنشر بدمشق، لما أولى في مشاريعه عامة دمشق وكلّ ما يتعلق بها، ولاسيما مختصر كتابها العظيم (تاريخ دمشق) كل اهتمام وعناية، لم يبخل بمال، ولم يضنّ بوقت، وأشدّ على يد أخي وصديقي الباحث الأستاذ محمود الأرناؤوط، الذي نذر نفسه لخدمة تراث الأسلاف، ناسياً نفسه وأهله، مضحياً بحظوظهما من الدنيا ليتفرّغ لتلك المهمة الشريفة، فجزاه الله عن تراث الأمة خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الحواشي

1 - له ترجمة في: المنتظم لابن الجوزي 261/10، ومعجم الأدباء لياقوت 73/13 - 87، والبداية والنهاية لابن كثير 272/14 - 274، وسير أعلام النبلاء 554/20. وثمة مصادر ترجمته التي تفوق الحصر.

2 - انظر سير أعلام النبلاء 556/20

3 - الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، العلامة المفتي، الحافظ الناقد، محدث الوقت، وخاتمة الحفاظ. ولد سنة (392 هـ)، ومات سنة (463 هـ) بعد عمر حافل بطلب العلم وتدريسه، وتصنيف المصنفات. انظر سير أعلام النبلاء 2470/18. وثمة مصادر ترجمته.

4 - له ترجمة في: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي 39/4، والدرر الكامنة لابن حجر 31/5، وشذرات الذهب 49/8 ومقدمة مختصر تاريخ دمشق 15/1 - 16. وثمة مصادر ترجمته.

5 - أميرٌ له صحبة ورواية، نزل مصر واختطّ بها، وولي طرابلس الغرب لمعاوية في سنة (46) هـ، وتوفي ببرقة سنة (56) هـ. وقبره معروف بها إلى اليوم. راجع طبقات ابن سعد 354/4، وسير أعلام النبلاء 36/3.

6 - توفي سنة 651 هـ، له ترجمة في الأعلام 273/1

7 - هو: موسوعة كبيرة اختصرها ابن منظور، وسمي الجزء الأول منها: (نثار الأزهار في الليل والنهار)، المصدر السابق

8 - له ترجمة في العبر 140/5

9 - المصدر نفسه 153/5.

10 - المصدر نفسه 173/5.

11 - المصدر نفسه 178./5

12 - له ترجمة في البداية والنهاية 288/16.

13 - المصدر نفسه 377/16.

14 - المصدر نفسه 340/16.

15 - في قوله (سواك) تورية لطيفة، فهي تعني: ما

لي غيرك، وليس لديَّ سواك. ولا يخفى أن الشاعر أراد المعنى الأول.

16 ـ يعني تاريخ بغداد.

17 ـ انظر أعيان العصر للصفدي 273/5.

مصادر هذا البحث

الكتب

الأعلام، للزركلي

أعيان العصر وأعوان النصر، للصلاح الصفدي

البداية والنهاية (ط دار ابن كثير)،لابن كثير بتحقيق طائفة من المحققين

تاريخ بغداد،للخطيب البغدادي

تاريخ دمشق، لابن عساكر

تكملة مختصر ابن منظور، أ. محمود الأرناؤوط ورفاقه

الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني

سير أعلام النبلاء، للشمس الذهبي

شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي بتحقيق محمود الأرناؤوط

الطبقات الكبرى، لابن سعد

العبر، للشمس الذهبي

ابن عساكر في ذكرى ولادته، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، لابن منظور

معجم الأدباء، لياقوت الحموي

المنتظم، لابن الجوزي

الدوريات

≤ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

❑❑

معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر
(تعريف مختصر)

د.حسام الدِّين فرفور *

مقدمة

لا يختلف اثنان من الدارسين من عرب ومستعربين أن «تاريخ مدينة دمشق» للإمام الحافظ ابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة 571هـ/ 1176م يعد في الطبقة الأولى من تواريخ البلدان، وأجمع مصنّف منها على الإطلاق لما جاء فيه من وصف شامل لهذه الحاضرة العظيمة من حواضر العرب والمسلمين، ومن ذكر لمن سكنها أو حلَّ بها أو مرَّ بها من أعلام العلماء والأدباء وسواهم من أعيان القرون الستة التي أرَّخ لها ابن عساكر في معلمته الكبرى ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن ابن عساكر قد أفرغ في هذا الكتاب العظيم علمه وتحصيله ورواياته الشفوية، حتى بلغ به في التصنيف الذروة العليا، وأصبح مصدراً ومرجعاً لا يستغني عنه كل من رغب بدراسة تاريخ هذه المدينة العظيمة في أي جانب من الجوانب التي لها صلة بتاريخها المجيد من الزمن الذي كان فيه وإلى أيامنا هذه، ويمكن استخراج عدد كبير من المصنفات المتعلقة بجوانب مختلفة من أمور العلم والحديث والتاريخ والأدب والشعر وتراجم الأعلام منه. وقد تنبه لهذا الأمر العالم المحقّق الدكتور صلاح الدِّين المنجد فاستخرج أسماء أعلام بني أمية من «تاريخ مدينة دمشق» وأودعها في مصنّف سماه «معجم بني أمية من تاريخ دمشق» ونشره في مستهل النصف الثاني من القرن الميلادي الماضي، فانتفع الباحثون به على ما فيه من نقص كبير. وحين كنت أعدّ العدة للإقدام على تقديم رسالة لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة دمشق، خطر في بالي أمر الإقدام على استخراج تراجم الشعراء من «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر وإخراجها محقَّقة مدقّقة مفردة في مصنَّف مستقل يسهم في خدمة الشعر خدمة محمودة ينتفع

* رئيس قسم التخصص والدراسات التخصصية بمعهد الفتح الإسلامي بدمشق.

بها المشتغلون به. فعرضت فكرتي على أستاذي العلَّامة المحقّق المدقّق المُتَفنن الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية وأحد كبار أستاذة قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق آنذاك، فاستحسنها استحساناً عظيماً وشجعني على الإقدام على نقلها إلى خير التنفيذ، فطلبت منه – رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه – أن يتفضل بالإشراف على عملي في إعداد الرسالة، فوافق على ذلك، واقترح علي أن أقتصر على قسم منه لتقديمه في الرسالة محقّقاً مدقّقاً، واستكمال العمل بتحقيقه عقب الفراغ من تقديم الرسالة للمناقشة، فسررت لاقتراحه ونفذته في الرسالة التي عملت بها سنوات عدة بإشرافه رحمه الله وأحسن إليه، ولست هنا في معرض الكلام على إعداد الرسالة والثناء على الجهود العظيمة التي بذلها – رحمه الله – في إشرافه على عملي آنذاك فذلك مما يحتاج إلى مقالة خاصة، وإنما للتعريف بـ «معجم الشعراء من تاريخ دمشق» الذي اقترن اسمي به منذ ذلك الوقت(1)، نزولاً عند رغبة أسرة تحرير مجلة الموقف الأدبي أخذت على عاتقها أمر إخراج عدد خاص عن دمشق بمناسبة الاحتفال بها عاصمة للثقافة العربية هذا العام 2008م. ورأيت من المفيد أن أعرّف بأجزاء «المعجم» جميعها تعريفاً مختصراً ألفت الأنظار فيه إلى قيمة مادته العلمية والأدبية فقط دون الخوض في الجوانب المتصلة بأمر تحقيقه والجهود التي بذلت فيه فذلك مكانه الدراسة التي تصدرت الجزء الأول من أجزاء «المعجم» فأقول وبالله التوفيق:

يتألف الجزء الأول من «المعجم» من قسمين:

الأول منهما الدراسة وتقع في (181) صفحة وتتألف مقدمة موجزة تم الحديث عن المعجم وتحقيقه من جوانب مختلفة، وتلاها مخطط الدراسة، ثم الكلام على عصر ابن عساكر، ثم ترجمة مطولة لابن عساكر تناولت شخصيته من جوانب مختلفة، أعقبها تعريف مفصّل بتاريخ دمشق ومخطوطاته ومختصراته، وبما تم نشره منه في مجمع اللغة العربية بدمشق، وقد تصدر قسم الدراسة تقديم حافل لأستاذي الجليل العلَّامة الدكتور شاكر الفحام رحمه الله.

والثاني منها القسم المحقّق من تراجم «المعجم» التي احتوت عليها رسالتي لنيل درجة الماجستير، وهي تراجم لتسعة وأربعين شاعراً من الشعراء القدامى، وهم(2) (أبو الطّيب المتنبي) و(أحمد بن الحسين بن حيدرة الأُطرابلسي) و(أحمد بن حمدون الكاتب)، و(أحمد بن سالم المرّي) و(أحمد بن سليمان الفخري) و(أحمد ابن عبيد الموازيني)، و(أحمد بن محمد بن الحسن الصّنوري) و(أحمد بن محمد بن علي ابن صدقة التغلبي المعروف بابن الخيّاط)

و(أحمد بن محمد بن فضالة) و(أحمد بن منير الأطرابلسي الرفاء) و(إبراهيم بن سعيد الإسكندارني المعروف بالسَّديد) و(إبراهيم بن صالح العُقيلي) و(إبراهيم بن عثمان الكلبي الغزي) و(إبراهيم بن هرمة) و(إبراهيم بن وضّاح الجمحي) و(أبو نخيلة بن حرز الحّماني) و(أجلح بن منصور الكندي) و(أحمر بن سالم المرّي) و(إدريس بن يزيد النابلسي) و(وآدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الأموي) و(أرطاة بن زفر بن شدَّاد المعروف بابن سهيلة) و(أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني) و(أسباط بن واصل الشيباني الزاهد) و(إسحاق بن حسان الخزيمي) و(إسماعيل بن علي العين زربي) و(أسود ابن قطبة التميمي) و(أشجع بن عمرو السّلمي) و(أشهب بن ثور بن حارثة الحنظلي النَّهشلي) و(أعنس بن عثمان المداني) و(أُقيبل القيني) و(إمام بن أقوم النمري) و(امرؤ القيس) و(أمية بن أبي الصّلت) و(أمية بن أبي عائذ العمري) و(أنيف العذري) و(أوس بن ثعلبة التيمي) و(أيمن بن خريم الأسدي) و(بشر ابن النكث) و(بشير بن عبد الله السلمي) و(بشير – ويقال شبر – بن منقذ الشني العبقسي) و(بلال بن جرير بن عطية بن الخطفي التميمي اليربوعي) و(بيهس بن صهيب الجرمي) و(تمام بن حبيب بن أوس الطّائي) و(توفيق بن محمد بن الحسين الأطرابلسي) و(جرير بن عطية بن الخطفي أبو حرزة البصري) و(حموح بن عمر الفهمي) و(جميل بثينة) و(جناح بن روح بن جناح) و(جواس بن القعطل بن سويد الكلبي).

ويضم الجزء الثاني من أجزاء «المعجم» واحداً وخمسين ترجمة من تراجم الشعراء وهم:

(حاتم الطائي) و(حارثة بن بدر بن حصين الغُداني التّميمي البصري) و(حارثة بن النمر) و(الحارث بن خالد بن العاص القرشي المخزومي) و(أبو فراس الحمداني) و(أبو تمام حبيب بن أوس الطَّائي) و(الحجَّاج بن علاط السُّلَمي البَهزي) و(حجوة بن مدرك الغسّاني) و(حرملة بن المنذر بن معدي كرب الطَّائي) و(حسان بن أبان البعلبكي) و(حسان بن ثابت الخزرجي شاعر رسول الله ﷺ) و(الحسن بن جعفر بن سعيد البعلبكي المعروف بابن بريك) و(الحسن ابن أبي الحسن الأرموي المعروف بملك النحاة) و(الحسن بن رجاء الحصاري الكاتب) و(الحسن بن سعيد الشاتاني) و(الحسن بن عبد الله السلمي المعرّي) و(الحسن بن علي الأطرابلسي) و(الحسن بن علي الأسدي) و(الحسن بن مخلد الكاتب) و(الحسن بن مسعود بن الوزير) و(والحسن بن وهب بن سعيد الكاتب) و(الحسن بن هانىء المعروف بأبي نواس) و(الحسن بن علي الموصلي المعروف بابن يعيش)

و(الحسين بن الأشعث الكندي الطّبراني) و(الحسين بن الضّحّاك المعروف بالخليع) و(الحسين بن عبد الله بن حصينة المعرّي) و(الحسين ابن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي) و(الحسين بن عبد الرحيم بن الوليد الكلابي المعروف بابن أبي الزلازل) و(الحسين بن عبد السلام المصري الملقب بالجمل) و(الحسين بن عُبيد الكلابي) و(الحسين بن علي بن الحسين بن بهرام الوزير) و(الحسين بن علي بن كوجك) و(الحسين بن محمد المعروف بالمستور) و(الحسين بن مطير بن مكمّل) و(الحسين العطار) و(حصين بن المنذر الرقاشي) و(حفص الأموي) و(الحكم بن الحارث الفهمي) و(الحكم بن عبدل بن جبلة الكوفي) و(الحكم بن معمر بن قنبر بن ححاش الخضري) و(الحكم بن الوليد القرشي) و(حلحلة بن قيس الفزاري) و(حمّاد بن عمر بن يونس المعروف بعجرد) و(حمدون بن إسماعيل بن داود النديم) و(حمزة بن أسد التميمي المعروف بابن القلانسي العميد) و(حمزة بن بيض الحنفي) و(حمزة بن علي بن العين زربي) و(حُميد بن ثور) و(حميد بن مالك بن مغيث الكناني المنقذي الملقب بمكين الدولة) و(حيي بن هزال السعدي).

وسأكتفي بسرد أسماء من ذكرتهم من الشعراء فيما تقدم من الكلام وعددهم مئة لتقديم فكرة عن تراجم شعراء «معجم الشعراء» موضوع هذه المقالة، علماً بأن عدد تراجم الشعراء والشاعرات الذين ذكرهم ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» والذين انتقلت تراجمهم بنصوصها التامة قد تجاوز أربع مئة ترجمة في أجزائه الثمانية التي تبعها جزء خاص بالفهارس العامة وهو قيد الإعداد للطبع وسيصدر قريباً(3).

أهم حسنات «معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق»:

ومن أهم حسنات «المعجم» موضوع هذه المقالة التعريفية المختصرة به، هي:

1- أنه يحتوي على ثلاثة أنواع من التراجم، المطولة، والمتوسطة، والمختصرة لمشاهير الشعراء ومغموريهم إلى منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. وأما التراجم المطولة فهي غالباً لشعراء كبار من شعراء الأمة في تلك القرون الزاهية، ومن حسناتها الهامة وجود أبيات كثيرة لأصحابها في ثناياها لم ترد في دواوينهم المطبوعة طبعات مختلفة. وأما التراجم المتوسطة والمختصرة فهي لشعراء أغلبهم من المغمورين الذين لم تطرق أسماؤهم سمع كثير من الناس ومن هنا تكمن أهميتها، لأن المشاهير يمكن الوقوف على نصوص تراجمهم في كثير من المصادر المتوافرة بين أيدي الدارسين، وأما المغمورين فقد يبحث المرء عن تراجمهم

بحثاً طويلاً إلى أن يصل إلى الإمساك بخيط حرير يوصله إليهم.

2- أن أجزاءه مجتمعة قد ضمت آلافاً من أبيات الشعر التراثي الراقي مما يصح الاستشهاد به لشعراء تلك الفترة وشاعراتها أيضاً، وقد اخترت نماذج منها من أماكن متفرقة في جميع أجزاء «المعجم» لتقديم فكرة موجزة عنه للقراء الكرام وجعلتها في ملحق اختتمت به هذه المقالة.

3- أن الأخبار الواردة في ثنايا تراجمه بمجملها – قد ساقها ابن عساكر في كتابه بأسانيد متصلة منه إلى أصحابها من الشعراء التي وردت تراجمهم في جميع أجزاء «المعجم» الأمر الذي يعزّز الثقة بها في نفوس أهل العلم والأدب، وفي نفوس المهتمين بشؤون الشعر القديم بصورة خاصة.

4- أن تراجم كثيرة من تراجم «المعجم» قد ضمت عدداً كبيراً من الأحاديث والآثار التي تسهم في تقديم صورة هامة عن مشاركة الشعراء في شؤون الحديث والأثر، الأمر الذي يؤكد تداخل أمور العلم، والأدب عند أسلافنا المتقدمين.

5- ومن حسنات «المعجم» الهامة أيضاً إشراف أستاذنا الجليل العلَّامة الدكتور شاكر الفحام رحمه الله على إعداد دراسته وتحقيق أجزائه، فقد كان لهذا العالم الكبير دور عظيم في وصول أجزاء «المعجم» إلى ما وصلت إليه تحقيقاً وتدقيقاً وتصحيحاً لبعض النصوص العويصة التي أعجزنا أمر الوصول بها إلى جادة الصواب، رحمه الله برحمته الواسعة وجزاه عنا وعن جميع من عمل تحت إشرافه من زملائنا الباحثين الذين سبقونا أو لحقوا بنا خير الجزاء، وجعل مقامه في علّيين يوم الدِّين.

6- ومن حسنات «المعجم» الهامة أيضاً تعدد اختصاصات أعضاء اللجنة التي شاركتني العمل بتحقيق أجزاء «المعجم» من جزئه الثاني وإلى جزئه الثامن والأخير، فحظي «المعجم» بذلك على أحسن ما لدى كل واحد منا في مجال اختصاصه، وذلك ما أشار إليه أستاذنا الدكتور شاكر الفحام رحمه الله في تقديمه المثبت في صدر الجزء الأول من أجزاء «المعجم».

مختارات من الأبيات الشعرية الواردة في أجزاء المعجم(4):

فمن الجزء الأول وقع اختياري على الأبيات التالية:

أحمد بن محمد أبو بكر الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي: ص(202):

أساكنة القبرِ السلوُّ محرم
علينا إلى أن نستوي في المساكن
لئن ضُمَّن القبر الكريم كريمتي
لأكرم مضمونٍ وأكرم ضامن

ومن ص (202):

آنس الله وحشْتكْ
رحم الله وحدتكْ
أنتِ في صحبة البلى
أحسن الله صحبتك

أحمد بن منير أبو الحسين الأطرابلسي الرَّفَّاء ص(215):

لا ترض عن دنياك ما أدناك
دَنَسٍ وكن طيفاً حلا ثم انجلى
وصِلِ الهجير بهجر قومٍ كلما
أمطرتهم عسلاً جنوا لك حنظلا

امرؤ القيس بن حُجر آكل المرار ص (318):

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا
وحلّت سليمى بطن قَوٍّ فَعرعَرا
ولما بدت حوران والآل دونها
نظرت فلم تنظر بعينيك فنظرا

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها
ولابن جريج كان في حمص أنكرا

ومن ص (341):

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العذاب والحشف البالي
نظرت إليها والنجوم كأنها
قناديل رهبان تشب لقَفَّالِ

ومن ص(343):

كلما اشتد خضوعي
لجوى بين ضلوعي
ركضت في حلبتي خد
يَّ خيل من دموعي

أمية بن أبي الصلت أبو عثمان الثقفي ص (367):

والشمس تطلع كل آخر ليلة
حمراءَ يصبح لونها يتوردُ
ليست بطالعة لها في رِسلها
إلا معذبة وإلا تَجَلَّدُ

جرير بن عطية بن الخطفي ص(428):

إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

ص (428):

ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون

ومن ص(429):

إن العيون التي في طرفها

قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

ومن ص(429):

فغض الطرف إنك من غير

فلا كعباً بلغت ولا كلابا

جميل بن عبد الله بن معمر أبو عمرو العذري ص (440):

فما روضة بالحزن جاد قَرَارها

نجاء من الوسميِّ أو ديمٌ هطلُ

بأطيب من أردان بثنة مَوهناً

ألا بل لريّاها على الروضة

ومن ص(446):

طرقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليس

حينُ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

ومن ص(446):

لكل حديث عندهن بشاشة

وكل قَتيل عندهن شهيد

ألا ليت ريعان الشباب جديدُ ودهراً

ودهراً تولى يابثين يعود

ومن الجزء الثاني وقع اختياري على الأبيات التالية:

أبو سفانة حاتم بن عبد الله ابن الحشرج الطائي ص(20):

فلا تطبخي قِدري وسترِكِ دونها

عليّ إذاً ما تطبخينَ حَرامُ

ومن ص (20):

أمارِسُ نفسي البخل حتى

وأتركُ نفسي الجودَ لا أستشيرُها

ولا تشتكيني جارتي، غير أنها

إذا غاب عنها بَعلُها، لا أزورها

سيبلُغُها خيري، ويرجعُ بعلها

إليها، ولم تُقْصر عليَّ سُتورها

ومن ص (27):

فلا الجود يفني المال قبل

ولا البخل في مال الشحيح يزيدُ

فلا تلتمس مالاً بعيشٍ مُقَتَّرٍ

لكل غدٍ رزقٌ يعود جديدُ

ومن ص (31):

دعا بائساً شبهَ الجنون وما به

جنونٌ ولكن كيدُ أمرٍ يُحاولهُ

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً

رَشدتُ ولم أقعدْ إليه أسائلهُ
فقمت إلى البَرْكِ الهِجانِ أُعدُّها
لِوجبةِ حقٍّ نازلٍ أنا فاعلهْ

ص (31):

ما ضر جاراً لي أجاوره
ألا يكونَ لبابه سِتر
أغضي إذا ما حارتي برزت
حتى يواري جارتي الخِدر

ومن ص (33):

فقد علمَ الأقوامُ لو أن حاتماً
أراد ثراءَ المال كان له وَفْرُ
عُنينا مع الأقوام بالفقر والغنى
وكلاً سقانيهِ من كأسها الدهرُ
فما زادنا بَأْواً على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفَقْرُ

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان البعلي الحمداني الأمير الشاعر أنشد لنفسه: ص (61):

ما كنتَ مذ كنت إلا طوع خلاني
ليست مفارقة الخلّان من شاني
يجني فأصفح عنه حانياً أبداً
لا شيء أحسن من حان على

ومن ص (64):

مصابي جليل والعزاء جميل
ودائيَ ما بين الضلوع دخيلُ
جراح وأسرو اشتياق وغربة
أحمّل إني بعدها لحمول
تطول بيَ الساعات وهي
وفي كل دهر لا يسرك طولُ
تناساني الأصحابُ إلا عصابةً
ستلحق بالأخرى غداً وتحولُ
أقلب طرفي لا أرى غير
يميل مع النعماء حيث تميل

أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ص(74):

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له
حتى ظننت قوافيه ستقتتلُ

ومن ص (82):

وطول مقام المرء في الحيّ
لديباجتيه فاغترب تتجدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زيدت
إلى الناس أن ليست عليهم

أبو عبد الرحمن أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي شاعر رسول الله ﷺ: ص (144):

هجوت محمداً فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاءُ
فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاءُ
أتهجوه ولست له بكفء
فشرُّكما لخيركما الفداءُ

ومن ص(146):

حصان رزان ما تزن بريبة
وتصبح غَرثى من لحوم

ومن ص (180):

لله در عصابة نادمتهم
يوماً بجلَّق في الزمان الأوّلِ
يُغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبلِ

أبو نواس الحسن بن هانىء ص (287):

لما حج أبو نواس لبى فقال:

إلهنا ما أَعدَلكْ
مليك كل من ملكْ
لبيك قد لبيت لكْ
لبيك إن الحمد لكْ
والملك لا شريك لكْ
ما خاب عبد سألكْ
أنت له حيث سلكْ
لولاك يارب هلك
لبيك إن الحمد لك
والملكَ لا شريك لك
يا مخطئا ما أغفلك
عجّل وبادر أملك
واختم بخير عملك

حماد عجرد أبو عمر ص (393):

إني أحبك فاعلمي
إن لم تكوني تعلمينا
حباً أقل قليله
كجميع حبِّ العالمينا

ومن الجزء الثالث وقع اختياري على الأبيات التالية:

خداش بن بشر بن خالد أبو يزيد التميمي المجاشعي المعروف بالبعيث، سمي البعيث لهذا البيت ص (10):

تبعَّث مني ما تبعَّث بعدما
أُمِرَّت قواي واستتمَّ عزيمي

خويلد بن خالد بن مُحَرِّث أبو ذؤيب الهذلي ص (48):

خَطبٌ أجلُّ أناخ بالإسلام
بين النخيل ومعقد الآطام

قبِض النبيُّ محمد فعيوننا

تذري الدموع عليه بالتسجام

وقال في الاستعفاف: ص(52):

من يسألِ الناسَ يحرموه

وسائلُ الله لا يخيب

ومن ص (53):

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيتَ كلَّ تميمة لا تنفعُ

وتجلّدي للشامتين أريهم

أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

حتى كأني للحوادث مروة

بصفا المشرَّق كل يوم تُقْرَعُ

والنفس راغبة إذا رغبتها

وإذا تُرد إلى قليل تَقنعُ

دِعبل بن علي بن رزين أبو علي الخزاعي ص (88):

دع عنك ذكر الزمان فات مطلبه

واقذف برجلك من متن الجهالات

واقصد بكل مديح أنت قائله

نحو الهداة بني بيت الكرامات

ومن ص (89):

لا تعجبي يا هند من رجل

ضحك المشيب برأسه فبكى

لا تأخذوا بظلامتي أحداً

عيني وقلبي في دمي اشتركا

ومن ص (90 – 91):

وداعك مثل وداع الحياة

وفقدُك مثل افتقاد الديمْ

عليك السلام فكم من وفاء

أفارق منك وكم من كرمْ

ومن ص (90– 91):

عليك سلام الله وقفاً فإنني

رأيت الكريم الحر ليس لـه عمرُ

ومن ص(101 – 102):

ألم تر أني مذ ثلاثون حجةً

أروح وأغدو دائم الحسرات

وآل رسول الله يخف جسومها

وآل زياد غُلَّظُ القَصَرات

بنات زياد في ا لقصور مصونة

وبنت رسول الله في الفلوات

ذو النون بن إبراهيم أبو الفياض الإخميني الزَّاهد ص (191):

حُبُّكَ قد أَرَّقَن

وزاد قلبي سقما قلبي إلى ما ساءني داع
كتمتُ في القلب وفي الـ يكثر أسقامي وأوجـاعي
ـأَحشاء حتى انكتما كيف احتراسـي من عدوي إذا
لا تهتك السِّتر الذي كان عـدوي بين أضـــلاعي
ألبستني تكرّما
ضَيَّعت نفسي سَيّدي
فردَّها مسلّما

ومن ص (191):

أنتَ في غفلةٍ وقلبك ساهي
نفد العمر والذنوب كما هي
جمة حصلت عليك جميعاً
في كتاب وأنت عن ذاك لاهي
لم تبادِرْ بتوبة منك حتّى
صرت شـيخاً فحَبْلُك اليوم واهي
فاجتهدْ في فكاك نفسك واحذر
يـوم تبدو السماتُ فوق الجباه

ومن ص194

أنخنـا في فنائك يا إلهي
إليك معرضـين بلا اعتلالِ
فَسُسْمنا كيف شئت ولا تكلنا
إلى تدبيرنا يا ذا المعالي

ومن ص (194):

ربيعة بن أُنيف بن شُرَيح – مسكين الدارمي ص (202):

أنا مسكينٌ لمـــن أنكرني
ولمن يعرفُنـــي جدُّ نطقْ
لا أبيعُ النّاسَ عـرضي إنني
لو أبيعُ الناسَ عرضي لنفق

ومن ص (203):

أخاك أخاك إنْ مَنْ لا أخا له
كساع إلى الهيجـا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم
وهل ينـهض البازي بغير جناح
وما طالبُ الحاجـاتِ إلا
وما نال شيئاً طَالبُ كَنجاح

رؤبة بن العجاج واسمه عبد الله بن رؤبة بن لبيد ص (244):

إن بَنيــكَ لكرامٌ مَجَدَهْ

وَلَو دَعَوْتَ لأَتَوْكَ حَفْدَهْ
عجّاجُ ما أَنْتَ بـأرضِ مَأْسَدَهْ

ن ص (244):

أيها الشامت المعير بالشَّيْـ
ـب أقلّنا بالشباب افتخارا
قد لبستُ الشبابَ غَضَّاً طَرِيَّاً
فوجدتُ الشبابَ ثَوباً مُعارا

زفر بن الحارث أبو عبد الله الكلابي ص (263):

وقد ينبت المرعى على دمن
وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا
أبيني سلاحي لا أبا لك إنني
أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أيذهب يوم واحد إن أسأته
بصالح أيامي وحسن بلائيا

زهير بن جناب بن هبل الكلبي ص (278):

وكم من مُقلّ لا يقل ومكثر
مُقلّ وإن كانت كثيراً أباعره
وكم قاتلٍ إبنَ بنِ بنتٍ هو ابنه
وقد هدم البيت الذي هو عامره
فأودى عموداه ورثت حبالـه
وأصلح أولاه وأفسد آخره

زياد بن سليم – أبو أمامة العبدي المعروف بزياد الأعجم ص (287):

سألناه الجزيل فما تلكّا
وأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا
فأحسن ثم عدت له فعادا
مراراً لا أعود إليه إلا
تبسّم ضاحكاً ورمى السوادا

زياد بن معاوية بن ضباب أبو أمامة المعروف بالنابغة الذبياني ص (291):

كليني لهـم يا أميمة ناصب
وليل أُقاسيه بطيء الكواكب
حلفت يميناً غـير ذي مَثْنَوِيَّةٍ
ولا علمَ إلا حسنُ ظنٍّ بصاحبِ
عليَّ لعمروٍ نعمة بعد نعمة
لوالده ليست بذات عقارب

ومن ص (295):

حلفتُ فلـم أتركْ لنفسكَ ريبةً
وليليس وراء الله لكمُ مَذْهَبُ

ومن ص (295):

أتيتكَ عاريـاً خَلَقاً ثيابي
على وَجَلٍ تُظَنُّ بـي الظُّنونُ
وألفيتُ الأمـانة لم تخنها
كذلك كان نوح لا يخونُ

سعيد بن العاص بن أميّة أبو أحيحة القرشي الأموي ص (341):

يـا راكباً إمّا عَرَضْـ
ـتَ فبلغن قومي بريـدا
فلأمدحَنَّ الوافديـ
ـنَ بمدحـة تأتي شرودا
حسنا دوائرها أُحَبِّـ
ـرُها فتَحْسَبها بُرودا
عثمان أو عفان أو
أبلـغ مغلغلة أسيدا

ومن ص(342):

أخوك الذي إن تجن يوماً عظيمة
يَبِتْ ساهراً والمستذيقون رقّـدُ
وكان ابن عم المـرء يحمي دمـاره
ويمنعـه حين الفرائض ترعدُ

عيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أبو عبد الرحمن الأنصاري ص (345):

يالَقومي للهجر بعد التَّصَافي
وتنائي الجميع بعد ائتلاف
ما شجا القلب بعد طول اندمال
غيرُ هابٍ كالفرخ بين الأثافي
ونعيب الغراب في عرصة الدا
ر ونؤي تسفي عليه السوافي

ومن ص(347):

وإن امرأً نال الغنى ثم لم ينلْ
صديقاً ولا ذا حاجة لزهيدُ

6ومن ص (347):

فإن امرأً لاحى الرجال على الغنى
ولم يسْألِ اللهَ الغنى لحسودُ

ومن الجزء الرابع وقع اختياري على الأبيات التالية:

شقران السَّلاماني مولى بني سلامان من قضاعة ص(14):

شاعر من شعراء بني أمية:

إن الـذي زيفها أمره
سراً وقـد بَيَّنَ للشائع
لكلتي بخسها أهلها
عذراءَ بكراً وهي في التاسعِ
كنا نداريها وقد مزقت
واتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقعِ

كالثوب إذا أنهج فيه البِلى
أعيا على ذي الحيلة الصانعِ

طرماح بن حكيم أبو نَفَر الطائي الشاعر ص (80 – 81):

وَرَدَ السُّقاةُ المُعْطِشونَ فأنْهَلوا
رياً وطاب لهم لديك المَكْرَعُ
وأراكَ تُمْطِرُ جانباً عَنْ جانبٍ
ومحـل بيتي من سماتك بلقعُ
ووردْتُ بحرك طامياً متدفقاً
فرددت دلوي شنُّها يتقعقعُ
ألحسن منزلتـي لـديك معتني
أم ليس عنـدك لي بخير مطمعُ

ظالم بن عمرو بن ظالمم أبو الأسود الدؤلي البصري ص (126):

يقول الأرذلون بنو قشير
طوالَ الـدهرِ لا ينسى عَلِيّا
أحبُّ محمـداً حُبّـاً شديداً
وعَبّاسـاً وحمزة والوَصِيّا
فإن يك حبُّهُم رشداً أصبه
وليس بمخطىء إن كان غَيّا
بنو عمّ النبيِّ وأقربوه
أَحَبُّ الناس كلهم إليّا
هم أهل النصيحة من لدني
وأهل مودتي ما دمت حيا
أحبّهم لحب الله حتى
أجيء إذا بُعثْتُ على هويّا
رأيت الله خالق كل شيء
هداهم واجتبـى منهم نبيّا
هم آسوا رسول الله حتى
ترفع أمره أمراً قويّا

العباس بن مرداس أبو الهيثم السُّلَمي ص (167):

لولا إله وعبده وَلَّيْتُم
حين استخفّ الرُّعْبُ كلَّ جبانِ
بـالجزع إذا ثبت لنا أفراسنا
وسوابح يكبون للأذقانِ
والله أكرمنـا وأظهر ديننا
وأعزّنا بعبادة الرحمانِ
والله أهلككم وفرّق جمعكم
وأذلَّكم بعبادة الشيطانِ

ومن ص (168):

يـا خاتم النُّبَآءِ إنك مرسلٌ
بالحقِّ كلّ هدى السبيل هداكا

إنّ الإلـه بنى عليك محبة
في خلقه ومحمداً سَمّاكا
ثم الذين وَفَوْا بما عاهدتهم
جند بعث عليهم الضحاكا
يغشى ذوي النسب القريب وإنـما
يبغـي رضى الرحمن ثم رضاكا

عبد الله بن رواحة أبو محمد الأنصاري ص (261):

شهدتُ بأنّ وعد الله حق
وأنّ النــار مثوى الكافرينا
وأنَّ العــرشَ فوقَ الماءِ طافٍ
وفوقَ العـرشِ ربُّ العالمينا
وتحملُه ملائكةٌ شِدادٌ
ملائكةُ الإله مُسَوَّمينا

عبد الله بن رؤبة أبو الشعثاء المعروف بالعجّاج ص (277):

الحمدُ لله الذي استقلَّتِ
بـأمره السماء واستَعَلَّتِ
بإذنه الأرض وما تَعَتَّتِ
أرسى عليها بالجبال الثُّبَّتِ

عبد الله بن عمر أبو عمر الأموي الشاعر المعروف بالَعْرجي ص (336):

أضاعوني وأيّ فتــى أضاعوا
ليوم كريهة وسِداد ثَغْرِ
وخلُّوني لمعتركِ المنايا
وقد شُرِعَت أسنتها لنحري
كأني لم أكـن فيهم وسيطاً
ولم تـك نسبتي في آل عمرو

عبد الله بن محمد أبو عثمان الأنصاري الشاعر المعروف بالأحوص ص (368):

يا بيتَ عاتكــةَ الذي أتعزَّلُ
حَـذَرَ العدا ويه الفؤادُ مِوَكَّلُ
إنّي لأمنحك الصُّدودَ وإنّني
قسماً إليكَ مع الصُّدودِ لأميلُ
ولقد نزلتَ من الفؤادِ بمنزلٍ
مــا كان غيرُكَ والأمانةِ يَنْزِلُ
ولقد شكوتُ إليكَ بعضَ صبابتي
وَلمَا كَتَمْتُ منَ الصَّبابةِ أَطْوَلُ

ومن ص (376):

أدعــو إلى هجرها قلبي
حتى إذا قلــتُ: هذا صادق نزعا
يلـــومُني فيكِ أقوامٌ أُجالسهم

فـما أُبالي أطارَ اللؤم أم وقعا

ومن ص (379):

الشيبُ يأمر بالعفاف وبالنهي
وإليه آل الحلــم حين يؤول
أما الحبي فلا يملّ حديثه
وحديث من أبغضته مملول
وإذا يجالسك البغيض فإنه
ثقل تعالجـه عليك ثقيل
ويروم طرفـك للجليل تودّه
والطرف من دون البغيض كليل
واعلم بأن مـن السكوت لبانة
فانظر إذا ما قلت كيف تقول

ومن ص (386 – 387):

أأن نادى هَديـلاً ذاتَ فَلْجٍ
معَ الإشراقِ في فَنَنٍ حَمامُ
ظَلِلْتَ كأنَّ دمعَكَ دُرُّ سِلْكٍ
هو نَسَقاً وأسلمه النظامُ
سلامُ الله يا مطر عليها
وليس عليك يا مطر السلامُ
ولا غفرَ الإلهُ لمنكحيها
ذنوبَهُم وإن صَلُّوا وصاموا
فإن يكن النكاح أحل شيئاً
فإن نكاحها مطراً حرام
ولو لم ينكحوا إلا كفيًّا
لكان كَفِيَّها ملك همامُ
فطلقها فلست لها بأهـل
وإلا شقّ مفرقكَ الحُسامُ

ومن الجزء الخامس وقع اختياري على الأبيات التالية:

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أبو محمد الأنصاري الخزرجي ص (61):

رملَ هل تذكرين يوم غزال
إذ قطعنا مسيرنا بالتمني
إذ تقولين عمرك الله هل شي
ءٌ وإن جلَّ سوف يسليك عني
أم هل أطعمت منكم يا بن حسّا
ن كما قد أراك قد أطعمتَ مني

عبد السلام بن رغبان أبو محمد الشاعر المعروف بديك الجن ص (110):

واللهِ رب المصطفى قسماً
بَرّاً، وحقّ مِنّي والبيت ذي الحجبِ
والخمسةِ الغرِّ أصحاب الكساء معاً

خير البرية من عُجمٍ ومن عربِ
وهم في القلب سكانُ
ما شدّة الحِرصِ من شأني ولا
تولّى النوم إذ ولَّوا
ولا المكاسبُ من همّي ولا أربي
وكان العيش إذ كانوا
لكنْ نوائبُ نابتني وحادثةٌ
وأغدر فاتن الألحا
والدهرُ يطرق بالأحداث والنوَبِ
ظ صاح وهو نشوانُ
وليس يعرف لي قدري ولا أدبي
وريّان من الحسن
إلا امرؤ كان ذا قدر وذا أدبِ
إلى الأنفُس ظمآنُ
إذا لاح فما البدر
وإن ماسَ فما البانُ

ومن ص (117):

نديم عيني بعدك الكوكب
ولوعة إنسانها يُلْهبُ
ودمعة في الخد مسفوحة
كأنها من جمرة تُحْلَبُ
ما امتنع الدمعُ وإسبالهُ
عليَّ لمّا امتنع المطلبُ
إن تكن الأيام قد أذنبت
فيك فإنّ الدمع لا يذنبُ

عبد القاهر بن عبد الله أبو الفرج الشيباني الحلبي النحوي الشاعر المعروف بالوأواء ص (134- 135):

أظنوا أنهم بانوا

ومن ص (135):

أضرمتَ نيرانا بغير زناد
فبدأ تأجُّجها على الأكباد
وأتى الطبيب فما شفى لك علّةً
ولطالما قد كنت تشفي الصادي
قد كان لي عين وأنت سوادها
فاليوم لي عين بغير سواد

عبد المسيح بن عمرو ... ابن الأزد الغساني ص (151):

أبعدَ المنذرينَ أرى سَوَاماً
تَرَوَّحُ بالخورنق والسدير
تحاماها فوارس كل حيٍّ
مخافة ضيغم عالي الزئير

عبد الواحد بن نصر بن محمد، أبو الفرج المخزومي المعروف بالببغاء ص (160):

فصرت أمسكُ عن أوصاف نعمته
عجزاً وينطق عن آثارها حالي
لما تحصَّنت من دهري بخلعته
سَمَتْ بحُمْلانهِ ألحاظُ إقبالي

ومن ص (163):

كثيرُ التَّلَوُّنِ في وَعْدِهِ
قليلُ الحُنُوِّ على عبدِهِ
يموج الكثيب على ردفه
وينمي القضيب إلى قدِّهِ
ولما بدا الروض في عارضيـ
ـه، واشتغل الورد في خدِّهِ
بعثت بقلبي مستعدياً
على وجنتيهِ فلم يُعْدِهِ
وخلَّفته عنده موثقاً
فمالي سبيل إلى ردِّهِ

عُبيد الله بن قيس القرشي العامري الشاعر المعروف بابن قيس الرقيات ص (176):

إنما مصعب شهاب من اللـ
ـهِ تجلَّتْ عن وجههِ الظلماءُ
ملكه ملك رحمة، ليس فيه
جبروت منه ولا كبرياءُ
يتقي اللهَ في الأمور وقد أفـ
ـلح من كان هَمَّهُ الاتقاءُ

ومن ص (178):

عاد لهُ من كثيرةَ الطربُ
فعينه بالدموع تنسكب
ما نقموا من بني أمية إلا
أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم مَعْدِنُ الملوك فلا
تصلحُ إلا عليهمُ العربُ

عدي بن الرعلاء الغساني ص (226):

ليس من مات فاستراح بميتٍ
إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياءِ
إنـما الميت من يعيش ذليلاً
كاسفاً باله قليل الرجاءِ

خاتمة

و في الختام لا أدعي أنني وفيت «معجم

الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» ما يستحقه من الوصف والتعريف في هذه المقالة القصيرة التي كتبتها على عجل رغبة مني في الإسهام بهذا العدد الذي خصّصته مجلة «الموقف الأدبي» للاحتفال بدمشق عاصمة للثقافة العربية، راجياً أن يتاح لي قدر من الوقت – مستقبلاً – لتعريف أشمل بهذا السِّفر أكتبه وأقدم من خلاله أموراً تفصيلية ينتفع بها الدارسون إن شاء الله تعالى.

* * *

الهوامش:

(1) أقصد في الجزء الأول منه فقط الذي قمت بتحقيقه مستقلاً، وأما الأجزاء السبعة الأخرى منه فقد شاركني العمل بها الأساتذة: د. رياض عبد الحميد مراد، أ. محمود الأرناؤوط، د. نزار أباظة، وتولى الإشراف على تحقيقها أستاذنا الجليل العلامة الدكتور شاكر الفحام رحمه الله، وقد نشرت أجزاء المعجم جميعها دار الفكر بدمشق.

(2) وقد اضطررت لاختصار كثير من الأسماء كي لا أطيل بذكر أنسابهم المفصلة كما وردت في الكتاب.

(3) وقد تولى إعداده د. رياض عبد الحميد مراد، وتوليت التقديم له.

(4) وقد ذكرت في أول كل مجموعة من الأبيات التي وقع اختياري عليها اسم صاحبها أو صاحبتها مع ذكر أرقام الأجزاء والصفحات التي تم اختياري منها، واقتصرت في الاختيارات على الأجزاء الخمسة الأولى من أجزاء «المعجم» فقط كي لا أطيل على القراء، ولتقديم صورة عما احتوى عليه «المعجم» من ألوان الشعر في تلك الفترات.

❑❑

إسهامات دور النشر الأهلية بدمشق في الحياة الثقافية بها

(دار الفكر نموذجاً)

د. نزار أباظة

إذا أردنا أن نتحدث عن النشر عموماً فلا بد أن نشير إلى أنه بدأ بالمطبعة، مع أن مجال النشر ومهنته أوسع من عملية الطباعة؛ ولئن كانت الطباعة هي الجزء المهم من النشر إلا أنها لا تعدّ نشراً بالمعنى الاصطلاحي والعملي اليوم. لما يتطلبه النشر من أعمال مهمة قبل الطباعة وبعدها، وكم من كتاب طبع خارج عناية الناشر فلم تقدَّر له الحياة.

"فالناشر هو المخطط والمنظم والمجمّع الذي يأخذ بزمام المبادرة في مشروع إنتاج الكتاب؛ يتسلم المخطوط من المؤلف، ويراجعه، ويهيئه، ثم يدفعه إلى المطبعة، ويتولى تصحيحه وإخراجه، ثم إيصاله إلى القارئ"(1)

وإذن فموقع الناشر اليوم "ووضعه يجعله في مركز الرؤية الشاملية المحيطة التي تتيسر لباقي الأطراف؛ لذا فهو يتحمل المسؤولية الأكبر لرؤيته كلَّ الأبعاد ومن ثمّ فهو يأخذها بالاعتبار"(2)

الناشر يع عظم مسؤوليته في الكتاب ووضعه الحساس في عملية النشر ـ حلقة مهمة في سلسلة هي المعنية في إنتاج الكتاب، تبدأ من المؤلف أولاً، فالناشر، فالطابع، فالموزع.. وتنتهي بالقارئ والسوق. وهذه الأطراف الخمسة أطراف شديدة الارتباط والتفاعل والتكامل من أجل النمو الثقافي والتحول الحضاري الذي تشهده الساحة الثقافية اليوم والفكر القائم(3).

يغلب على الباحثين حين يتحدثون عن تاريخ الطباعة العربية أن يقولوا: إنها بدأت مع الحملة الفرنسية على مصر عام 1978، وينسون أن أول مطبعة عربية هي التي دخلت حلب عام 1706م/ 1118هـ وطبع عليها البطريرك اثناسيوس الثالث دباس "كتاب الزبور" في السنة نفسها(4).

وتأخر ظهور أول كتاب بطباعة دمشق

بأكثر من نصف قرن بعد حلب، فطبعت المطبعة الدومانية عام 1864م/ 1281هـ كتاب "أوراد الشيخ عبد الغني النابلسي"(5)

إلا أن تطور الطباعة واستمرارها حتى نهاية القرن التاسع عشر كان ضعيفاً في سورية كلها فلم يطبع حتى هذا التاريخ سوى 272 كتاباً غالبها في الدين والأدب واللغة، وقليل منها في الفلسفة والعلوم والفنون والاجتماع(6).

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى غياب دور النشر عن عملية الطباعة، وإلى ضعف إخراج الكتب وطباعتها، وبدائية الآلات الطباعية، وهشاشة الورق، وبساطة التجليد.

إذن بدأت طباعة الكتب في دمشق على استحياء، وأظن ذلك بسبب ضعف الخبرة الطباعية وانتشار الأمية، ومنافسة الكتب المصرية التي أخذت تتصاعد بإطراد منذ عام 1829م (7).

ولم تطرّد الطباعة بدمشق إلا منذ ثلاثينات القرن العشرين حين تطورت الحياة فيها، وحين بدأت المدارس تنتشر وصارت الكتب المدرسية مطلوبة(8) وأخذ مجمع اللغة العربية يزوّد السوق بكتب التراث، وظهرت الجرائد المختلفة المنازع..

ومع إقبال المثقفين وكانوا قلة في عشرينات القرن العشرين نشأت مكتبات قليلة جعلت تستورد الكتب من مصر غالباً، وقلما كانت تطبع بعضاً منها، وكان بعضها موئلاً للمثقفين، يترددون عليها، وربما عقدوا فيها حلقات يتداولون فيها الشؤون الثقافية. حدثني الدكتور شكري فيصل رحمه الله (1986) أن مكتبة عرفة في سوق المسكية غرب الجامع الأموي كانت تستقطب الشباب المثقفين، وكانت لهم جلسة حاشدة يوم الثلاثاء وهو موعد وصول (مجلة الرسالة) المصرية لصاحبها أحمد حسن الزيات (1968) وكان هؤلاء الشباب يتشوقون لصدورها، وعندما كانوا يعدون أيام الأسبوع يسمونه يوم الثلاثاء يوم الرسالة. وقد نشر الحاج ياسين عرفة (1991) صاحب المكتبة عدداً من المطبوعات في أربعينيات القرن المذكور أغلبها فيما يبدو رسائل مطلوبة في السوق.

ويمكن أن نعد من المكتبات التي أسهمت في نشر الكتب في خمسينات القرن وستيناته مكتبة المهايني وكانت تهتم بطباعة المصاحف الشريفة والرسائل الدينية كقصة المولد النبوي وحادثة الإسراء والمعراج، ومكتبة كرم التي كانت تزود السوق بكتب القصص الشعبي بطبعات يطلق عليها طبعات تجارية، بمعنى من معاني هذا الاصطلاح كقصص عنترة والزير سالم وألف ليلة وليلة، وأمثال ذلك.

قامت إلى جانب ذلك مكتبات عرفت ببعض منشورات كالمكتبة الأموية والمكتبة الهاشمية ومكتبة الجامعة.. ومكتبة أطلس التي تميزت بحصولها على وكالة توزيع كتب

دار المعارف المصرية وكتب الأطفال التي تفردت بها. وهذه مكتبات تبيع الكتب أكثر مما تنشر.

ولعل ما يذكر هنا ظهور مكتبة دار دمشق عام 1954، وقد عنيت بالكتب ذات الاتجاه اليساري نشراً وتوزيعاً، وبأسعار رخيصة.

ومنذ نهاية السبعينات انتشرت المكتبات بدمشق انتشاراً واسعاً، وتركز معظمها في منطقة الحلبوني والحجاز والفردوس، واشتهرت منها مكتبة النوري التي حصلت على توزيع بعض المنشورات اللبنانية.

وإلى جانب هذه المكتبات قامت تجارة الكتب القديمة والمستعملة، وبعضها يلتقط النفائس، وينتظر الزبائن المتميزين فلا يبيع إلا بالأثمان الباهظة.. وإلى جانبها قامت تجارة كتب الرصيف، وهي كتب لا تلقى من الزبائن سوى شريحة معينة قليلة، ولعل كثيراً من كتبها مبتذل رخيص الثمن، وقد يقع المرء فيها على نوادر ضاعت بين المزهود فيه.

على أن النشر بمعناه الاصطلاحي الذي أشرنا إلى تعريفه أول البحث قد ظهرت بواكيره في المكتبة العربية لصاحبها أحمد عبيد(9) الذي يعد بدمشق شيخ الناشرين الأول.. ويمكن أن نعدّ عمله نقلة للمكتبات من حيّز البيع والطباعة إلى حيّز النشر.

ولئن اضطلعت المكتبة العربية بمهنة النشر في الخمسينات أو قبلها بقليل فإن بداية النشر الحقيقي أو العلمي المهني ظهر بدمشق في بداية الستينات. وتوالى منذ ذلك الحين تأسيس دور النشر، وكانت في ازدياد، بعضها تخصص بكتب معينة، كالتراث أو الفكر أو الفلسفة أو العلوم.. وكثير منها يجاري متطلبات السوق.

وتتنافس هذه الدور فيما بينها في إخراج الكتاب الأنيق والطبعات المتميزة أو في تخفيض سعر الكتاب، وربما تقع من خلال المنافسة بأخطاء قانونية.

ومع اتساع مهنة النشر كان لابد من أن ينتظمها ناظم يسدّد ما قد يعترضها من صعوبات، ويحدد لها طريقها الحق، وهي بعد مهنة لا كسائر المهن تجمع إلى التجارة رسالة مقدسة تعدّ في الذروة من كل مجتمع.

ومن هنا تأسست عام 1995 هيئة مؤقتة للإشراف على النشر في سورية سميت اللجنة التحضيرية لاتحاد الناشرين السوريين، ضمت منهم الأقدم في المهنة، المشهور لهم برسوخ القدم فيها. بقيت تتابع أمور الناشرين في القطر إلى أن صدر قانون اتحاد الناشرين في الجمهورية العربية السورية برقم 14 لعام 2005 تاريخ

26/ 5/ 2005 فدخلت المهنة في طور جديد.

ثم عقد الناشرون مؤتمرهم الأول في 27/ 8/ 2008 واختاروا مكتبهم التنفيذي الذي يقوم بشؤونهم ويضم إليه أعضاء ممثلين عن وزارة الإعلام ووزارة التعليم العالي ووزارة التربية واتحاد الكتاب العرب ووزارة الثقافة.

وقد انتسب إلى الاتحاد من الناشرين السوريين حتى تاريخه مئتا دار نشر منها 195 داراً من دمشق وريفها. من أشهر الدور، تتفاوت في المهنة قدماً وجدّة(10).

هذه الدور تتفاوت كذلك قوة وضعفاً إلا أنها في مجملها خدمت الثقافة والمعرفة والعلم.. منها ما يعمل للربح فقط، ليس له منهج معين، إلا أن عدداً منها خطّ لنفسه أهدافاً محددة عمل من أجلها(11).

ونستطيع أن نقسم الدور الدمشقية إلى ثلاث طبقات دور كبيرة عريقة اشتهرت بأسمائها وإنتاجها الغزير، واطراد علمها بتقدم ملحوظ ولها زبائنها، ودور محدودة الإنتاج تتقدم على استحياء مع أنها قطعت مرحلة زمنية غير قليلة تحاول أن توجد لها مكاناً في ساحة النشر، ودور ناشئة ظهرت في الآونة الأخيرة مع الطفرة الأخيرة، منذ عشر سنوات أو أكثر بقليل، وهذه لم يتضح بعد إطارها العام.

وسنقف في هذا البحث عند دار الفكر أنموذجاً للنوع الأول من الدور لبيان الدور الثقافي والعلمي والفكري الذي تضطلع به هذه المؤسسة التي عدّها بعض الباحثين في الترتيب الزمني للقرن العشرين الدار الخامسة بين أحد عشر داراً للنشر، انقطعت كلها عن العمل وتوقفت ما عدا دار دمشق التي أشرنا إليها(12).

تأسست دار الفكر عام 1376هـ الموافق لأوائل عام 1957، بدأت مطبعة عادية بآلة واحدة في منطقة الشريبيشات إلا أنّ أصحابها سالم وزعبي الثلاثة وضعوا في تصورهم أهدافاً بعيدة وواضحة تحدّد موقفهم من عالم النشر وتخطط لمستقبل جلي؛ إذ لم تكن المطبعة غايتهم وإنما وسيلتهم إلى النشر(13).

لذا فإنهم سريعاً ما افتتحوا مركزاً ينطلقون منه لخدمة المعرفة من خلال الكتاب الذي ينتجونه ويستوردونه ويصدرونه؛ لأنهم آمنوا بأن الأمة لا تنهض إلا من خلال العلم ومن أدواته الكتاب.

ويمكن أن نلخص المنهج الذي ارتضته الدار بما يأتي:

- الانطلاق من التراث واختيار المناسب.
- الاهتمام بالمشكلات المعاصرة والتشجيع على معالجتها.

- تشجيع الأعمال الإبداعية وخصوصاً بأقلام الشباب.
- العناية بأدب الأطفال على نحو انتقائي.
- الدعوة إلى احترام الملكية الفكرية بكل أبعادها.
- اعتماد الحوار العلمي الهادئ طريقاً إلى الوصول للحقائق.
- احترام أهل الفكر والعلم والأدب لأنهم مشعل الهداية للأمة.

هذه المرتكزات النظرية ترجمتها الدار إلى الواقع العملي، وانطلقت منها تطبيقاً وأصدرت منشوراتها على أساسها وزودت، السوق بكل مفيد للكبار والصغار حتى غدت الدار موئل المثقفين وموضع ثقتهم ونظرهم.. إليه يترددون، وفيه يجتمعون. وحتى غدا موقعه في دمشق علامة يُستدل بها.

في الستينات استطاعت الدار أن تحوز ثقة الأساتذة في جامعة دمشق بما لديها من تميز وواقعية وأسلوب حيوي فارتبطوا بها لنشر كتبهم الجامعية ومقرراتهم لطلابهم.. فكانت الكتب القيمة في متناول أيديهم، تصدر تباعاً، تلبي حاجتهم بالسرعة القصوى.

وكانت دار الفكر تسير في اتجاهات مختلفة لخدمة الثقافة ولا تقصر اهتمامها على طلاب الجامعة، وفكرت بطلاب الثانويات، تريد أن تقدم لهم عوناً من نوع آخر، فأصدرت كتباً مساعدة تضافر على تأليفها مدرسون أعلام قدموا المناهج المدرسية العلمية والأدبية تقديماً مبسطاً علمياً مفيداً ساعد كثيراً من الطلاب على ترميم معلوماتهم والارتقاء بها.. وهذا أغناهم عن الاعتماد على مدرسين خصوصيين، وعلمهم طريقة للتعلم الذاتي(14).

كان ذلك المقصد الذي يمثل شريحة الطلاب لا يجعل الدار تقعد عن النظر إلى الشرائح الأخرى، فالثقافة تتوجه لعموم المثقفين وهؤلاء يطلبون أشياء كثيرة.

وكان المهم من الطلبات كتب التراث التي تجتذب جمهوراً معيناً له أهميته، ولكن الدار لم تشأ أن تقدم التراث على عواهنه، وأو كيفما أتى، ولم ترتض إلا أن تختار منه، وتنشره محققاً تحقيقاً علمياً بأيدٍ متخصصة من جهة، وأن تفيد منه الحياة المعاصرة فيتكامل بذلك التراث والواقع الذي نحياه ليؤتي أكله ويتحقق نفعه من جهة أخرى.

ولم تصدر الدار كتاباً تراثياً إلا وكانت مقتنعة في فائدته؛ فنشرت على سبيل المثال لا الحصر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بعد أن خدمت أحاديثه وصنعت لها فهارس وكشافات تميز فيها عما طبع من قبل من طبعاته، ونشرت اختيارات الأصمعي

واختيارات المفضَّل الضبيّ تحت عنوان "كتاب الاختيارين" وهما ما هما من الأهمية، ونشرت إعراب الحديث النبوي، ودر السحابة في فضائل الصحابة والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع وكلاهما للشوكاني الابن، وكتاب مختصر ابن منظور على تاريخ دمشق لابن عساكر وهو موسوعة ذات أهمية كبرى وأكملت نواقصه، واستغرق العمل فيه سنوات لأهميته، وقام عليه محققون معروفون، وأتبعته باصدار تكملة هامة له في ستة أجزاء، فخدمت بذلك العاصمة الشامية بالكتب الدمشقية ومثله كتاب مرآة الشام، ومما قدمته من كتب التراث أعمال العز بن عبد السلام، وكذلك شرح حماسة أبي تمام ومعجم شمس العلوم للحميري، والمذكر والمؤنث للسجستاني.

على أن دار الفكر رسمت لنفهسا خطة للتكامل في نشر المعرفة بجميع جوانبها، فأصدرت كتباً في المعارف العامة وفي الفلسفة والعلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية وفي علم اللغة وفي العلوم التطبيقية والأدب والتاريخ والجغرافية ولم تنس الفنون. فجاءت إصداراتها في تنوع متناغم يخاطب جميع المثقفين والطبقات العلمية.

ومع هذا التنوع والتوجه غير المحصور فإنّ دار الفكر منذ نشأت أرادت أن تحقق الاسم الذي أطلقته على نفسها، فعنيت عناية خاصة بالفكر الإنساني، وتوخت لكتبها كلها مهما كان تصنيفها الموضوعي أن تحمل فكراً حرّاً يليق بالإنسان الحضاري.

وقد تجلى هذا الفكر في تبنيها لآراء مفكرين أعلام كان على رأسهم (مالك بن نبي) المفكر الإسلامي الجزائري، وقد روجت له الدار وعرفت به في الشام قبل أن ينتشر في الجزائر وسوّقت دعوته للحضارة وما تزال تعنى بكتبه حتى اليوم. كما اهتمت بفكر الأستاذ جودت سعيد في مرحلته الأولى والثانية، وبفكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. وغير هؤلاء حتى من الشباب. وينضم إلى كتّاب الدار الذين قدموا نتاجاً متنوعاً ومتميزاً الدكتور وهبة الزجيلي والدكتور شوقي أبو خليل والأستاذ عبد الرحمن النحلاوي والأستاذ عدنان السبيعي والدكتور أحمد خيري العمري وآخرون.

وبلغت ذروة التسويق الفكري لدى الدار مع السلسلة التي عنيت بها من عام 1996 بعنوان "حوارات لقرن جديد" وقد بلغت حتى الآن (2008) خمساً وأربعين كتاباً تعالج مشكلات الحضارة المتصاعدة كالعولمة والخصصة والإرهاب والثقافة والدين والتصوف والحداثة ومشكلات الأدب وحقوق الإنسان والحركات الإسلامية والإسلام والغرب والتحليل النفسي والنقد العربي والإرهاب والمعلوماتية والجندر وتجديد الفقه والديمقراطية وتجديد أصول الفقه والعلاقة بين الدين والعلم والمجتمع الأهلي وأزمة المثقف وسوى ذلك من المضوعات الفكرية الحيوية

التي أخذت تظهر على الساحة بقوة...

كانت هذه السلسلة التي قدمتها الدار جديدة جداً بين دور النشر تحتاج إلى صبر خلافاً لجميع المنشورات، ذلك لأن كل كتاب في هذه السلسلة يضم متحاورين اثنين في الموضوع الواحد من طرفين فكريين مختلفين يعالجان فكرة الكتاب كل من وجهة نظره ثم يُعقب كل منهما على بحث الآخر.. وهذه العملية تستغرق من الدار وقتاً للتدقيق بين المتحاورين ومالاً لمكافأتهما ومحادثات هاتفية، ومراسلات على أجهزة الاتصالات ربما يطول مداها أكثر من سنة.. لتخرج بعدئذ كتاباً من السلسلة إلى النور، لا يعود بالثمن الذي دفعته الدار في كلفته إلا بشق الأنفس، هذا إن كتب له الرواج.. ومثل هذه الكتب تخاطب الشريحة التي تصبر على الثقافة المعمقة وأهلها قليلون.. والتجارة فيها خاسرة بالقياس إلى تجارة أموال تتضاعف فيها مرات كل سنة أو أقل من سنة وقد نالت الدار على هذه السلسلة جائزة أفضل ناشر عربي من وزارة الثقافة المصرية عام 2003(15).

همّ دار الفكر الذي تحمله إذن هم الثقافة والفكر خصوصاً في خدمة الثقافة والحضارة والعلم.

ومنذ الستينات فكرت دار الفكر بالأطفال زهرات اليوم وحملة مشاعل المستقبل ورأت من واجباتها تقديم ثقافة أصيلة لهم؛ كانت كتب في الأسواق لا تناسب أطفالنا، تربطهم بثقافات الأمم الأخرى وتروج لأدب الغرب تضع بين أيديهم مفاهيم مغايرة لحضارتنا من أمثال قصص سندريلا، وجميلة والوحش، وأليس في بلاد العجائب، والأقزام السبعة وسوى ذلك من أدب يجعل المرء يسأل: وأين أدب أمتنا؟ وأين ثقافتنا من كل ذلك للطفولة؟ ومن هنا أصدرت الدار سلسلة من كتيبات كلفت فيها كتاباً لهم أقلامهم، في سبيل المشاركة الجادة بأدب الأطفال، فاستجاب لها أديب العلماء علي الطنطاوي في وقت مبكر فكتب عدداً من الحكايات استلهمها من التاريخ "حكايات من التاريخ" عرضها بأسلوب شائق. وقد صدر عن الدار للأطفال منذ نشأتها حتى اليوم. زهاء 700 عنوان بالوعاءين الورقي والالكتروني.

أما الشباب الأكبر سناً فكانت لهم مع الدار صلات متميزة، ذلك لأنها أحدثت لهم "جائزة دار الفكر السنوية للرواية والقصة" فاستقطبت أقلاماً واعدة منهم، قدموا فيها أعمالاً على موهبة عالية ولقيت تشجيعاً من القراء، وبعضها طبع أكثر من مرة.

كانت دار الفكر منذ نشأت تضع في آفاقها موضوع التطوير والتحديث، اعتمدت الطباعة على الأجهزة المتاحة أولاً، ثم سبقت

الدور الأخرى إلى إدخال الصف التصويري، ثم أخيراً الحاسوبي مع البرامج الإلكترونية المتقدمة.

وبهذه المناسبة تسعى الدار حالياً لوضع أعمالها وفق شهادة الجودة (ISO 9001) وإنتاجها على العموم يحقق متطلبات هذه الشهادة.. فكتبها تخضع لبرنامج في النشر مدروس ومحدد، وما يقرر طبعه يدفع إلى قلم المنقح ثم المصحح ثم المدقق ولا يصدر إلا بعد استيفاء هذه المراحل الثلاث، ثم يخرج وفق مواصفات محددة في القياس وحجم الحرف والترويسات المطلوبة، وبعض الكتب تلحق بها فهارس وكشافات لازمة، ومستخلص الكتاب بالعربية والإنكليزية (Ahstract) ولابد من مرور الكتاب في مرحلته الأخيرة على مكتبة الأسد لاستخراج بطاقة الفهرسة والتصنيف التي تثبت في الصفحة الثانية من كل كتاب.. ونخصص الصفحة الرابعة دوماً للمعلومات الوصفية (الببلوغرافية) المستوفاة.

وللغلاف في الدار مواصفات خاصة، فوجهه الأخير يحمل تعريفاً به سريعاً، وكذلك عنوانه مع اسم مؤلفه بالإنكليزية وبالحروف المنقحرة(16) ويثبت على ذيل هذا الوجه رمز الرقم الدولي (الكود).

أما باطن الغلاف الأول فيضم نبذة عن سيرة المؤلف، بينما يحوي باطن الغلاف الأخير تعريفاً مختصراً بدار الفكر. هذا شأن الكتاب الورقي، الذي أصدرت الدار من خلاله منذ تأسيسها حتى اليوم 2200 عنوان، منها 1000 عنوان من عام 1957 حتى عام 1994م بينما أصدرت 1200 عنوان من عام 1995 حتى عام 2008 وولد بجانبه في الدار منذ مدة الكتاب الإلكتروني (17) على الأقراص الممغنطة، بالإضافة إلى نشر كتب على الإنترنت أو جزء منها، وهي تجربة في الواقع جديدة لدى الدار تنتظر أن تجد نتائجها على المدى غير القريب.

وبالمناسبة فإن لدى الدار عدداً من المواقع الإلكترونية، موقعها الأول www.fikr.com وموقع خاص بالأطفال هو موقع عام زمزم وموقع بيع الكتب "فرات"، وموقع لأهم مؤلفيها تتلقى عنهم أسئلة قرائهم وتجيب عنها بالتعاون معهم.

دار الفكر بالطبع من القراء وإليهم، تهمها الجماهير التي تدعمها بالإقبال المتبادل معها، ولذا فقد توجهت إلى المثقفين بجملة نشاطات متميزة تحتفي بالإعلان عنها في أسبوعها الثقافي الذي تقيمه كل عام بمناسبة اليوم العالمي للكتاب، المخصص له يوم الثالث والعشرين من نيسان/ أبريل.

في هذا الأسبوع تكرم في كل عام أحد مؤلفيها المتميزين، تقدمه للقراء وتصدر من أجله كتاباً يضم سيرته بأقلام أصدقائه ومعارفه يهدونه كذلك مقالات تطبع في الكتاب. ويتحدث هو عن مسيرته الثقافية في

الدار.

وفي هذا الأسبوع تعلن عن فوز الكتاب المختار في جائزة دار الفكر السنوية للرواية والقصة، وعن الحائز في تلك السنة أيضاً على جائزة القارئ النهم الذي حقق أكثر نقاط في قراءته لكتب الدار.

وأخيراً ففي ذلك الأسبوع المشار إليه تنعقد ندوات تتخصص في موضوع الشعار الذي أطلقته الدار في عامها ذاك، إذ إنها جعلت منذ عام 1996 تعتمد شعاراً سنوياً تحاول خدمته في منشوراتها التي تدور كتبها حوله في تلك السنة. ولقد كان شعارها لعام 2008 "دمشق حاضنة اللغة العربية" وسيكون شعارها للعام القادم 2009 "القدس".

وهذه الأسابيع الثقافية تستقطب علية المثقفين وتستدعيهم بحضور ندوات جمهرة المفكرين وحضور الفعاليات المصاحبة كمعرض الكتاب الخاص بدار الفكر أو بالتظاهرات الاستعراضية التي يقدمها بعض المشاركين مع الدار.

وكان من الأسابيع المتميزة الحاشدة التي اضطلعت بها الدار أسبوع المرأة الذي عقدته الأسبوع الثالث من نيسان لعام 2002 ضم نخبة من الأدباء والكتاب المفكرين جاؤوا من السعودية ولبنان ومصر وتونس والأردن وفلسطين واليمن وإيران وغيرها، فضلاً عن المفكرين السوريين وقدموا تصورات مختلفة عن موضوع المرأة.

وتحسن الإشارة هنا إلى أن هذه الفعاليات وتلك المنشورات لا تصدر عن دار الفكر اتفاقاً، وإنما لها خطة سنوية، تحددها الدار في مطالع كل عام، وتذكر ما سوف تنشره خلاله. وهذا ما ليس يعتمده كثير من الناشرين(18).

هذه هي دار الفكر بالاختصار، وتحت هذا العرض كلام كثير.. وما ذكرناه إنما هو الأهم.. ويجدر التنويه هنا أن مهنة النشر اليوم تتعرض لمصاعب جمة، والعاملون فيها من أصحاب الرسالة يعانون هذه المصاعب كل يوم، ويعيشون بها، ويحيون همومها(19).

فمن هموم الناشر وأكبر الهموم التراجع القرائي والعزوف عن اقتناء الكتب في مجتمع ألهاه التلفاز والحاسوب وأعماله المتصلة وتسطيحه الفكري وزهده بالثقافة عن الكتاب، فإذا خرج الكتاب للنور ودفع فيه الناشر رأس مالٍ لن يسترده إلا بعد سنوات يجهد فيها بالترويج للكتاب، فيحتاج مستودعه إلى محاسب وحمالين وحرّاس، وتحتاج صالة بيعه لموظفين يستقبلون الزبائن، ويحتاج الدعاية للكتاب والتعريف به وكذلك إلى مروجين يطوفون بالأسواق وإلى من يقوم بشؤون المعارض الداخلية والخارجية، وإلى سيارات تنقل.. فما مقدار المرابح التي يحققها

الكتاب المسكين ليسدد نفقات هؤلاء كلهم؟!

ولن يستطيع الناشر أن يرفع من سعر الكتاب لئلا يزيد العزوف القرائي، فبعض المثقفين تقصر أيديهم عن شراء الكتب الغالية مع شوقهم إليها، فيؤدي ذلك إلى كساد الكتاب في زمن ارتفعت فيه أسعار الحوائج كلها.

وربما أدى غلاء الكتاب إلى تعرضه للسرقة في المعارض، تطاله أيدي محتاج إليه ضعيف النفس، أو مغرض منتفع يريد أن يبيعه بالحرام.

على أن سرقة الكتب غير سرقة النسخ، والمعروف أن في السوق ناساً يسطون على الكتاب الرائج، فيعيدون طبعه على طريقة أخرى بأشكال ليس هذا موضع الكلام عنها(20).

ومن هموم الناشرين حصولهم على الموافقات والسماح بالطباعة وهذه كثيراً ما تتأخر لأشهر.

ومن الهموم مسألة الترجمة التي ما زالت تتخبط في سوق النشر السورية وليس لها ضوابط محددة، ولا أجور معتمدة، فضلاً عن اختلاط المؤلف بالمترجم. ومن هذه الهموم أن كثيراً من الكتب هي بنت الساعة وربما تروج لمدة محدودة وإصدارها قد يكون من باب المغامرة، فإذا مضى وقتها كسدت وكانت النسخ أوراقاً تالفة لا يستفاد منها.

على أن هذه الهموم تحتاج وحدها إلى بحث ليس هذا مكان التفصيل فيه.

فبقي أن نذكر ما يوجه إلى دار الفكر من ملاحظات وانتقادات من طرف القراء، وكيف ينظرون إليها.

تتلقى الدار كتباً كثيرة يحملها كل يوم مؤلف أو باحث أو مترجم أو محقق ولا يأتي يوم واحد عليها أو يومان دون أن تتسلم فيهما أكثر من كتاب، يقدمه صاحبه للنشر والدار بالطبع تنتقي ما يلائمها من هذه الكتب التي تتراوح بين التفاهة التافهة والأهمية المهمة، والزبون غالباً كل زبون، يرى كتابه الذي يحمله من أحسن الكتب، فحين تقدم الدار اعتذاراتها عن عدم النشر لما يقرب من أكثر من 90% من الكتب لأسباب مختلفة تسويقية أو علمية أو غيرها يعود المؤلف بإحباط يختلف بين شخص وآخر وقد يتسخط على الدار ويتفوه بكلمات لا تليق. وبعضهم يذيع في الناس شائعات عن الدار بسبب ذلك. هذا مقابل ما تأتي الدار من رسائل تشيد بها وبرسالتها الثقافية وبتخيرها الكتب اللائقة التي ترفد السوق بكل مفيد وجديد.

ومن النقد الموجه للدار أنها تتأخر في إصدار الكتاب الذي يستغرق عندها زمناً أكثر من الوقت الذي يكون عند غيرها من الدور، وهذا ربما بسبب أسلوب الإنتاج، فالدار لا تطبع كتاباً إلا بعد إخضاعه كما أشرنا للتنقيح فالتصميم فالتدقيق وهذا يتطلب وقتاً لا يدركه غير الخبير، فكم ينزعج

المؤلف إذا رأى كتابه مملوءاً بالأخطاء.. وكم يسره أن المصحح استدرك عليه هفوات لا تليق به.

إن تجدْ عيباً فسُدَّ الخللا
جلَّ من لا عيب فيه وعلا

وقامت في وجه الدار شائعات شتى.. بعضها قد يكون صادراً عن واقع صحيح، ولكن الساحة الثقافية توضحه:

الهوامش:

1. هموم ناشر عربي 20.
2. المرجع السابق.
3. المرجع السابق.
4. بداية الطباعة العربية ص 118، وفيه أن أول كتاب عربي طبع في أوروبا كان عام 1514م، في حين يذكر قاسم السامراني أنه كان عام 1486م.
5. النتاج الفكري العربي ص 20، 21.
6. المرجع السابق، ص 19، وفيه أن سورية تأتي سابع دولة في عدد إنتاج الكتب العربية حتى عام 1900 بعد مصر ولبنان وإيران وتركية وأوروبا والهند.
7. النتاج الفكري ص 38.
8 ـ حدثني الشاعر أنور العطار (1972) رحمه الله أن طلاب مكتب عنبر كانوا يقضون عطلتهم الصيفية بنسخ الكتب المطلوبة في الصف الأعلى الذي نجحوا إليه يستعيرونها من الطلاب الذين سبقوهم، لعدم توافرها في السوق (هذا في عشرينات القرن العشرين).
9 ـ أديب شاعر عالم بالمخطوطات مكتبي ولد بدمشق عام 1893 وتوفي بها عام 1989 أسس المكتبة العربية صغيراً فاشتهرت شهرة واسعة، يعد شيخ المكتبيين بخبرته الواسعة بالكتب وبالمخطوطات، وهو أول من أصدر التقويم العربي عام 1916 ثم تعاون فيه مع المكتبة الهاشمية فصار يسمى التقويم العربي الهاشمي، وكان يستثمر الحيز الفارغ خلف أوراقه فيورد كل يوم فيها حكمة أو إرشاداً أو فائدة. وما زال التقويم يصدر حتى اليوم ويشتهر. انظر ترجمته في " إتمام الأعلام" ص (51) الطبعة الثانية وفي "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (175 ـ 177).
10. الدور الحاصلة على ترخيص رسمي في جميع المحافظات السورية تبلغ 400 دار.
11. أصدر اتحاد الناشرين نشرة بعنوان "الوراقة السورية" ضمت منشورات عدد منهم، وبعضهم ذكر أهدافه. انظر قائمة المراجع والمصادر.
12. صناعة الكتاب مقالة الأستاذ محمد كامل الخطيب.
13 ـ ذكر الأستاذ محمد كامل الخطيب في مقالته "صناعة الكتاب" أن دار الفكر هي الدار الوحيدة من القطاع الخاص التي تمتلك مطبعة

خاصة بها.

14. كنت أنا كاتب هذا المقال ممن استفاد من مثل هذه الكتب فائدة كبرى في تلك المرحلة الدرسية.

15 ـ وكذلك منحت الدار عدداً من الجوائز على كتب أخرى بسبب موضوعاتها المتميزة وجودة إخراجها من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي أكثر من مرة، ومن معرض الشارقة الدولي للكتاب، ومن معرض طهران الدولي للكتاب.

16 ـ النقحرة: كتابة الكلمة العربية بالحروف اللاتينية على نحو ما تلفظ بالعربية.

17. أصدر مدير الدار الأستاذ محمد عدنان سالم كتاب "الكتاب في الألفية الثالثة: لا ورق ولا حدود، وعنوانه يشي بمضمونه أن الكتاب في المستقبل القريب سيتغير شكله تماماً.

18 ـ انظر صناعة الكتاب، مقالة الأستاذ محمد كامل الخطيب.

19 ـ انظر هموم ناشر عربي ففيه تفصيل لهذه الهموم.

20 ـ أصدرت الدول قوانينها للملكية الفكرية، والقانون السوري بهذا الصدد صدر برقم 12 لعام 2001 تاريخ 22/ 3/ 2001.

المصادر والمراجع

1. بداية الطباعة العربية في استنابول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي 1706 ـ 1787م. وحيد قدورة ـ تونس ـ زغوان، مركز الداراسات والبحوث العمثانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، 1992م
2. طباعة الكتاب محمد كامل الخطيب ـ مقال في جريدة البعث 2/ 5/ 2007
3. النتاج الفكري العربي المطبوع من الكتب منذ نشأة الطباعة حتى نهاية القرن التاسع عشر: دراسة ببليومترية ـ إياد خالد الطباغ ـ دمشق، دار الفكر، 2003
4. ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر (مقالة د. قاسم السامرائي) دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1995م.
5. هموم ناشر عربي ـ محمد عدنان سالم، دمشق، دار الفكر، 1994.
6. الوراقة السورية: دليل بإصدارات الناشرين السوريين 1/ 1/ 2007 ـ 30/ 6/ 2008م ـ اتحاد الناشرين السوريين، دمشق، الاتحاد، 2008م.

❑❑

حضور أدباء وعلماء القطر العربي السوري في موسوعة الأعلام

د. عبد الله أبو هيف

1 – تنظيم الموسوعة :

نظمت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جامعة الدول العربية) موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين بإشراف المثقف الكبير الدكتور المنجي بو سنينة المدير العام للمنظمة في تونس، والمدير المسؤول المبدع الدكتور محمد صالح الجابري، والهيئة العلمية مؤلفة من السادة المثقفين:

- د.هشام نشابة، رئيس المجلس التنفيذي للمنظمة.
- د. أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي.
- د. محمود فهمي حجازي، رئيس جامعة نور- مبارك، قازاخستان.
- د. علي عقلة عرسان، الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب حتى نهاية عام 2006.
- د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري، جامعة الملك سعود.
- د. صلاح فضل، جامعة عين شمس، رئيس اللجنة العلمية.
- د. ابراهيم بن مراد، جامعة تونس.
- د. محمد علي آذر شب، جامعة طهران.
- د. محمد أسلم إصلاحي، رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو- نيودلهي، الهند.

أوضح المدير العام للمنظمة الأهداف الأساسية لإنشاء المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في السبعينيات من القرن الماضي، كما حددها ميثاق الوحدة الثقافية العربية سنة 1994م، ودستور المنظمة سنة 1970، نحو إقامة المؤسسات النوعية العربية التي تخدم الثقافة العربي من المنظور القومي، وتوثيق التراث الحضاري العربي الإسلامي، وترجمة عيون الآداب والمعارف لإغناء الثقافة العربية، والتعريف بإبداعات الأدباء، والمفكرين والفنانين العرب، وتوفير المراجع الكبرى، وإصدار الموسوعات، إبرازاً لإسهامات علماء الأمة

في الارتقاء بالحضارة الإنسانية.

هدفت المنظمة، برأيه، إلى الشرع في التنفيذ الفوري بهذه الإمكانات المتواضعة، بدءاً من عام 2000، بعد إنضاج التصور وإعلاء الوثائق التعريفية الأولى، لإنجاز موسوعة عن أعلام العلماء العرب والمسلمين، نظراً إلى افتقار المكتبة العربية إلى مرجع علمي شامل عن هؤلاء الأعلام، **وحددت الفترة التاريخية للموسوعة فن ظهور الإسلام حتى العصر الحديث أي نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، على أن تشمل كل مجالات المعرفة في الحضارة العربية الإسلامية، من علوم دينية، وعلوم إنسانية، وعلوم صحيحة، وطبيعية وتطبيقية، وطبية، وصيدلية، وفنون وآداب، وعمارة، وكل المجالات التي كان للعرب والمسلمين إسهام بارز فيها وتفوق وإبداع وتميز بما كتبوا وألفوا وأثروا الفكر البشري.**

قررت المنظمة أن تستوعب الموسوعة علماء المشرق والمغرب والأندلس وصقلية، وبلاد فارس، والعالم الإسلامي العثماني، وآسيا الصغرى والكبرى، وشبه القارة الهندية، كلياً أو جزئياً، إضافة إلى استيعاب الموسوعة للأعلام من ديانات أخرى ممن ارتبطت كتاباتهم باللغة العربية، واندمجوا في الحضارة العربية الإسلامية.

كّونت المنظمة لجنة علمية عربية إسلامية للإشراف والمتابعة، ووضعت اللجنة قواعد فنية للكتابة توحيداً للأساليب، وضبطاً للمنهج العلمي، فيما يخص التأريخ وترجمة الحياة ومراحلها المختلفة، والعصر، وأبرز معطيات السير هي المؤثرات المختلفة في سياق مدخل علمي دقيق عن شخصيته، وإسهاماته، واستعراض عصره وآثاره، ووضع قائمة مفيدة وشاملة بالمصادر والمراجع التي استند إليها الكاتب، والاحتكام إلى المقاييس العلمية عند اختيار الأعلام بغض النظر عن أقطارهم وأقاليمهم وطوائفهم ومذاهبهم، توكيداً على الانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية والانخراط فيها، والاندماج في نسيجها اللغوي والثقافي والحضاري والتميز والإنتاج والإبداع على أنه المعيار الأساسي لهذا الاختيار.

أكد المدير العام للمنظمة أن تقتصر موسوعة الأعلام على العلماء والمفكرين والمبدعين ورجال الإصلاح والدعوة والنهضة وحدهم، وهؤلاء هم الصفوة والطليعة في كل أمة، ودعا إلى موسوعة جماعية يشارك في تأليفها والكتابة فيها آلاف المحررين من الأساتذة والباحثين من كل الجامعات العربية، والجامعات الإسلامية، وبعض الجامعات الأجنبية ممن يعمل بها أساتذة من العرب على خلاف الموسوعات الأخرى التي يقوم على تحريرها فئة قليلة من الناس، أو بعض المجتهدين من الأفراد.

وضعت المنظمة، بتوجيه المدير العام للمنظمة، أن تتحقق الموسوعة الأهداف التالية:

- **تعريف العالم بحضارة العرب وإسهاماتهم الفكرية في مسيرة الحياة البشرية وبآثار علمائهم في مجالات العلوم المختلفة.**
- **إحياء ذكرى العلماء والمبدعين والمفكرين الذين كتبوا في مختلف ضروب المعرفة، والتمثل الجاد لمكانة الحضارة العربية الإسلامية في تاريخ العلم في العالمين الإسلامي والغربي.**
- **التصدي للمحاولات التي قامت بها دور النشر الاجنبية لإصدار طبعات لموسوعاتها باللغة العربية بما تضمنت من تحريف متعمد يسيىء للعرب وحضارتهم.**
- **تكوين وعي جديد لدى المثقف العربي يجعله يثق في التراث العربي ودوره في تنمية المعرفة ورقيّ الإنسانية.**
- **إدامة الاتصال المتجدد والدائم بين الأجيال العربية عن طريق الموسوعة سوف تتعهد بالتحديث والتطوير جيلاً بعد آخر، حيث يساهم كل جيل من العلماء في المراجعة المستمرة لمادتها العلمية.**
- **توفير مصدر علمي عربي موثوق به، يكون مرجعاً أميناً لكّل طلاب المعرفة من الأساتذة والباحثين والطلبة.**
- **إتاحة الفرصة للعلماء والباحثين العرب لكتابة تاريخهم الثقافي والحضاري من وجهة نظرهم، وتصويب الأخطاء التي تسربت إلى هذا التاريخ من غيرهم، سواء كانت متعمدة أو عن جهل.**
- **اللحاق بالأمم والدول والشعوب التي استكملت إصدار موسوعات عن حضارتها، سواء منها الدول المتقدمة أو دول الجوار أو دول العالم الثالث.**

وجه المدير العام الشكر والتقدير للذين مدّوا المساعدة مادياً ومعنوياً في إنجاز الموسوعة، وفي مقدمتهم السيدة الفاضلة الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح، وصاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة أبرز رعاة الثقافة في الوطن العربي، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية لمساندة كل عمل خادم للحضارة العربية الإسلامية.

أوضح مدير الموسوعة المبدع محمد صالح الجابري مزايا هذه الموسوعة ومكوناتها ووضع التصورات والرؤى وإعداد القوائم والفهارس وتوسيع الاستشارة في مقومات السير المدروسة، إذ تكونت الثقافة العربي الإسلامية من جهود كل العلماء بلا

استثناء، وأن تكون هذه الموسوعة سجلاً شاملاً قدر الإمكان لأسماء العلماء من مختلف المستويات. وسعى في تنظيم الموسوعة إلى الاستعانة بمعظم الباحثين من الجامعات العربية والإسلامية، من تركيا إلى بلاد فارس، وإلى بلاد الهند، فضلاً عن جامعات الدول العربية ومجامعها العلمية، ومراكز البحث والدراسات فيها بما يضيء مشروع الموسوعة عربياً وإسلامياً. واستفاد مدير الموسوعة كذلك من زخم الجامعات العربية وكرم خبرائها للاستفادة الضرورية والشرعية من المراجع والمصادر المختلفة للتراث الإسلامي، وتوضيح طرائق شتى ومناهج مختلفة للتصنيف والفهرسة وترتيب أسماء الأعلام.

لقد ارتأت اللجنة العلمية، بتوجيه مدير الموسوعة، أن تعتمد شهرة كل علم، أو نسبته العائلية، إن لم توجد له شهرة معلومة، ثم تلي ذلك الكنية فاللقب إن وجدا، فالاسم الصغير واسم الأب والجد والقبيلة إن لزم الأمر للتمييز، وبعدد انتساب الأعلام إلى الحِرَف، والبلدان، والمذاهب، ومواطن الإقامة، وغير ذلك ، فضلاً عن أن كتاب الفهارس والمدونات تباينت توجهاتهم من عصر إلى عصر، ومن إقليم إلى آخر في اعتماد الأسماء والكنى والألقاب والنسب.

استهل إصدار الموسوعة سنة 2004، بينما بدأ التأليف منذ سنة 2000، وصدر حتى الآن تسعة عشر مجلداً من الموسوعة في "دار الجيل" (بيروت).

2 – الباحثون في التأليف من سورية ومؤلفاتهم :

شارك في التأليف من سورية باحثون كثيرون ، وهم:

- د. محمود الربداوي.
- د. سمر روحي الفيصل.
- د. محمد هشام النعسان.
- د. عبد الله أبو هيف.
- أ. حسين العودات.
- د. أحمد زياد محبك.
- أ. زهير الكتبي.
- أ. محمود الارناؤوط.
- د. إحسان النص.
- د. محمود عادل العوا.
- د. عبد الإله نبهان.
- أ. فالح فلوح.
- أ. زهير حميدان.
- د. فؤاد الذاكري.
- أ. محمد خير الطرشان.
- د. محمود عصام ميداني.
- د. نشأت حمارنة.
- د. محمد عيسى.
- د. محمد ظافر الوفائي.
- د. علي أبو زيد.
- د. محمد زهير البابا.

- د. ريتا خباز.
- أ. زهير ناجي.
- د. محمد هشام النعسان.
- د. حسين جمعة.
- د. جبرائيل بشارة.
- د. ممدوح خسارة.
- د. أحمد دهمان.
- د. عبد الناصر كعدان.
- أ. مها المبارك.
- أ. جوزيف ملكي.
- د. عادل الفريجات.
- د. لؤي بلال.
- أ. أحمد سعيد الهواش.
- د. أحمد غضبان.
- د. عبد الرحمن حللي.
- أ. عيسى فتوح.
- د. عبد الكريم محمد حسين.
- أ. شحادة الخوري.
- د. أديب اللجمي.
- د. عبد الكريم شحادة.
- د. سحر بحادي.
- د. حنا توفيق بشور.
- د. مسعود بوبو.
- د. عمر مصطفى.
- د. أميمة بدر الدين.
- د. بغداد عبد المنعم.

من الواضح أن عدداً من هؤلاء الكتاب السوريين قد اعتنوا بأعلام الأمة العربية الإسلامية، ومنهم: د. محمد هشام النعسان، د. محمد فؤاد الذاكري، د. زهير حميدان، د. عبد الإله نبهان، د.محمد إحسان النص، د.نشأت حمارنة، د. زهير الكتبي، د. علي أبو زيد، د. محمد زهير البابا، د.ريتا خباز. د. محمد الذاكري، د. محمد البابا، د. عبد الناصر كعدان، د. ممدوح خسارة، أ. مها المبارك، أ. محمود الأرناؤوط، د. محمود الربداوي، جوزيف ملكي ..، الخ، هؤلاء كتبوا عن أعلام العرب والمسلمين في السعودية، ومصر، وبلاد فارس وتركيا، والهند، وأوزبكستان، وبلاد الروم، والعراق، والأندلس، والعثماني... إلخ.

أشير إلى أبرز الكتابات عن أدباء وعلماء القطر السوري في موسوعة الأعلام، ومن كانوا في بلاد الشام التابعة لدمشق منذ الفتوحات الإسلامية، وهم حسب المجلدات:

المجلد(1)، حرف الألف:

- ابن أبي، أبو كعب تميم بن أبي بن مقبل (70ق هـ/554م - 37هـ/637م) د. أحمد زياد محبك، ص218.
- الأحدب، نجم الدين حسن، أبو أيوب الرماح (....هـ/....م - 695هـ/ 1295م): د. محمد هشام النعسان، ص305.

- أديب نحوي، محمد (1345/1926م ـ 1425هـ/2001م): د. سمر روحي الفيصل، ص426.
- الأذرعي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن حمدان (708هـ/1308م، 783هـ/1381م): د.محمود الربداوي، ص433.
- الأرسوزي، زكي بن نجيب بن ابراهيم (1318هـ/1900م ـ 1388هـ/ 1968م): أ. حسين العودات، ص455.
- الأرناؤوط، معروف (1310هـ/1892ـ 1368هـ/1948م): د. سمر روحي الفيصل، ص489.
- إسحق، أديب الدمشقي (1272هـ/1856م ـ 1302هـ/1885م): أ.حسين العودات، ص557.
- سعيد، فايز (1358هـ/1939م ـ 1421هـ/1997م): د. عبد الله أبو هيف، ص 608.
- اسماعيل، صدقي (1343هـ/1924م ـ 1392هـ/1972م): د. عبد الله أبو هيف، ص 658.

المجلد(2)، حرف الألف:

- الأشتر، صالح بن محمد (1927ـ 1992م): أ. فالح فلوح، ص22.
- الأميري، عمر بهاء الدين (1916ـ 1992م) : د.محمد عيسى، ص371.
- الأنصاري، علي بن عبد العظيم (1035ـ 1170م): د. فؤاد الذاكري، ص461.
- الأوسي الأنصاري، أبو حفز عمر بن ابراهيم (1359ـ 1408م): د.محمد هشام النعسان، ص558.

المجلد(3)، حرف الباء:

- الباشا، عبد الرحمن (1923ـ 1998م): د. عبد الله أبو هيف، ص110.
- ابن بدران، عبد القادر (1863ـ 1927م): أ. زهير ناجي، ص238.
- البدري (1443ـ 1488م): د. محمد النعسان، ص246.
- بدوي الجبل (1903ـ 1981م): د. حسين جمعة، ص247.
- ابن البذوخ (..... ـ 1180م): د. محمد الذاكري، ص272.
- البستاني، بطرس بن بولس (1819ـ 1883م): د. جبرائيل بشارة، ص426.
- البشيتي (1361ـ 1417م): د. ممدوح خسارة، ص 507.
- البغدادي، أديب (1895ـ 1945م): أ. زهير ناجي، ص611.
- بقدونس (... ـ 1943م): أ.زهير ناجي،

ص680.

المجلد(4)، الأحرف باء ـ تاء ـ ثاء:

- البيطار، أبو بكر (.... ـ 1340م): د. محمد الذاكري، ص296.
- البيطار، عبد الرزاق (1837 . 1916): د. محمد النص، ص300.
- البيطار، محمد بهجة (1894. 1976م): د. سمر الفيصل، ص 305.
- التدمري (..... ـ 1430م): د. محمود الميداني، ص443.

المجلد(5)، حرف الميم:

- الجابري، شكيب (1332هـ/1912م ـ 1417هـ/1996م): د. أحمد زياد محبك، ص20.
- الجراح، خديجة (1343هـ/1923م ـ 1421هـ/2000م): . عبد الله أبو هيف، ص156.
- التنوخي، علي (.... ـ 1258م): د. محمد الذاكري، ص624.
- التيزيني (1424 ـ 1505م): د. محمد النعسان، ص745.
- التيمي، عمر (.... ـ 724م): د. عادل الفريجات، ص771.

المجلد(6)، حرف الحاء:

- الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر (ت388هـ/1998م): د.ممدوح خسارة، د.محمد موعد، ص13.
- حسن، حامد (1337هـ/1918م ـ 1420هـ/1999م): د. محمد عيسى، ص 390.
- حسين، محمد الحاج (1333هـ/ 1914م ـ 1410هـ/1989م): د. عبد الله أبو هيف، 441

المجلد(7)، حرف الحاء:

- الحصني، محمد أديب آل تقي الدين (1292هـ/1874م ـ 1358هـ/ 1940م): زهير محمد ناجي، ص38.
- حقي، محمد بديع (1339هـ/1920م ـ 1421هـ/2000م): د. سمر روحي الفيصل، ص84.
- حلاّق، عبد الله يوركي (1329هـ/1911م ـ 1417هـ/1996م): أ.عيسى فتوح، ص124.
- الحلبي، خليفة بن أبي المحاسن (...هـ/...م ـ ....هـ/...م): د. محمد ظافر وفائي، ص132.
- أبو حليقة، رشيد الدين بن الفارس (591هـ/1194م ـ نحو 660هـ/1261م): د. بغداد عبد المنعم، ص180.

- الحمصي، أبو منصور كمال الدين المظفر بن علي (ت612هـ/1515م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص261.
- الحمصي، هلال بن أبي الهلال (ت نحو 371هـ/ 988م): د. محمد هشام النعسان، ص264.
- الحموي، صلاح الدين بن يوسف الكحال (ت696هـ/1296م): د.محمد ظافر الوفائي، ص274.
- حنوش، جورجيت (1349هـ/1930م - 1410هـ/1919م): د. عبد الله أبو هيف، ص363.
- حورانية، سعيد (1348هـ/1949م – 1415هـ /1994م): د. عبد الله أبو هيف – ص 363.
- حيدر، محمد (1348هـ/1929م - 1416هـ/1995م): د. عبد الله أبو هيف، ص412

المجلد(8)، حرف الخاء:

- أبو خضور، محمد (1356هـ/1937م - 1423هـ/2002م): د.عبد الله أبو هيف، ص319.
- الخطيب، محب الدين بن الشيخ أبو الفتح (1303هـ/1886م - 1389هـ/ 1970م): محمد سعيد طالب، ص372.
- خلقي، علي (1330هـ/1911م - 1401هـ/1981م): د. عبد الله أبو هيف، ص447.
- الخليلي، أبو عمران موسى بن محمد بن عثمان (ت808هـ/1402م): د. محمد هشام النعسان، ص494.

المجلد(9)، حرف الدال والذال:

- الدعوق، عدنان (1932- 1986م): د. عبد الله أبو هيف، ص45.
- الداغستاني، كاظم (1898- 1985م): د. عبد الله أبو هيف، ص53.
- الدّاخور، أبو محمد مهذب الدين عبد الرحيم (1169- 1230م): د.لؤي بلال، 136.
- الدروبي، سامي (1921- 1976م): د. أحمد سعيد الهواش، ص183.
- الدمشقي، أبو عبد الله محمد بن أبي طالب (1256- 1327م): د.محمود عصام ميداني، ص286.
- الدمشقي، ميخائيل بن بريك (.... - 1780م): أ. زهير ناجي، ص298.
- الدمشقي، ميخائيل مشاقة (.... - 1780م): أ.زهير ناجي، ص300.
- الدهان، سامي بن ابراهيم (1912- 1971م): د. عبد الرحمن حللي،

ص341.

- دُهمان، محمد أحمد دهمان (1899- 1988م): أ. عيسى فتوح، ص377.

المجلد(10)، حرف الراء:

- الراهب، هاني (1358هـ/1939م - 1421هـ/2000م): د. عبد الله أبو هيف، ص156

- الرحبي، أبو الحسن علي بن يوسف (583هـ/1178م - 667هـ/1269م) د. محمد فؤاد الذاكري، ص236.

- الرحبي، رضي الدين يوسف بن حيدرة (534هـ/1140م - 631هـ/ 1233م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص238.

- أبو ريشة، عمر بن شافع (1328هـ/ 1910م - 1411هـ/1990م): د.أحمد زياد محبك، ص532.

المجلد(11)، حرف الزاي:

- زرزور، فارس (1930- 2003م): د. عبد الله أبو هيف، ص101.

- أبو زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو (815 - 894م): د. محمود عصام ميداني - ص109.

- الزرقا، مصطفى بن أحمد (1904- 1999م): د. عبد الرحمن حللي، ص115.

- زعيتر، أكرم (1909- 1996م): د. سمر روحي الفيصل، ص175.

- زعيتر، عادل بن عمر بن حسن (1896- 1957م): د. أحمد سعيد هواش، ص177.

- زكريا، أبو غسان أحمد وصفي (1889- 1964م): د. محمد هشام النعسان، ص215.

- ابن زمّاخ، أبو المحاسن يوسف بن سيف الدولة (1205- 1272م): د.محمد هشام النعسان، ص248.

- ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد (.... - 1012م): د. محمد هشام النعسان ، 290.

- الزيات، حبيب بن نقولا (1781- 1954م): أ. عيسى فتوح، ص367.

- زيتون، نظير (1900- 1967م): د. عبد الله أبو هيف، ص414.

المجلد(2 1)، حرف السين:

- ساباط بولس، باسيل بن عبد الله (1887- 1946م): د.محمد فؤاد الذاكري، ص10.

- الساعاتي، علي بن ثعلب (.... - 1269م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص59.

- سالم، جورج (1933- 1977م): د. عبد

الله أبو هيف، ص77.

- السامري، مهذب الدين يوسف (... ـ 1227م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص107.

- السباعي، مراد (1914ـ 2001م): د. سمر روحي الفيصل، ص127.

- السامري، مهذب الدين يوسف (.... ـ 1227م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص 107.

- سبح، حسني بن يحيى (1900ـ 1986م): د. عبد الكريم شحادة، ص154.

- السجزي، أبو الحسين طاهر بن ابراهيم (.... 11م): د. محمد هشام النعسان، ص259.

- ابن سحنون، أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد (1222ـ 1292م): د.محمد فؤاد الذاكري، ص312.

- ابن سرافيون، يوحنا (..... ـ 864م): د. لؤي بلال ـ صى388.

- ابن سراقة، أبو الحسن محمد بن يحيى (.... ـ 1020م): د. محمد هشام النعسان، ص396.

- ، أبو المظفر بن محمد (1279ـ 1374م): د. محمد هشام النعسان، ص242.

- السفرجلاني، ابراهيم بن محمد ابراهيم (1654ـ 1700م): د. محمد هشام النعسان، ص610.

المجلد(13)، حرف السين:

- سكرة الحلبي، عبد القادر (.... ـ 1174م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص28.

- سلطان، علي مظفر(1911ـ 1987م): د. أحمد زياد محبك، ص102.

- السلمي، أبو اسحاق سعد الدين ابراهيم (1187ـ 1246م): د. محمد الذاكري، ص129.

- السلمي، موفق الدين عبد العزيز (1160ـ 1207م): د. سمر سجادي، ص151.

- ابن سلوم الحلبي، صالح بن نصر الله (... ـ 1670م): د. محمد الذاكري، ص178.

- سليمان، الحافظي، زين الدين سليمان بن المؤيد (.... 1263م): د. محمد الذاكري، ص201.

- السمان، وجيه لطفي (1912ـ 1992م): د. أديب خضور، ص237.

- ابن سمحون، أبو بكر حامد (... ـ 1001م): د. حنا توفيق بشور، ص244.

- ابن سمعون، محمد بن أحمد (... ـ 1336م): د. محمد هشام النعسان، ص281.
- ابن سنان الطوسي، مصطفى (.... 1623م): د.محمد هشام النعسان، ص332.
- الشيفي، محمد بن محمد بن علي (1868ـ 1918م): د. محمد هشام النعسان، ص 635.

المجلد(14)، حرف الشين:

- ابن الشاطر، أبو الحسن علي بن ابراهيم (705هـ/1305م ـ 777هـ/ 1375م): د. عصام ميداني، ص74.
- الشاغوري، أبو محمد فتيان بن علي (532هـ/ 1138م ـ 615هـ/ 1218م): د. أحمد زياد محبك، ص84.
- الشايب، فؤاد (1329هـ/1911م ـ 1390هـ/ 1970م): د. عبد الله أبو هيف ـ ص154
- شحادة، عبد الكريم بن عبد الكريم (1340هـ/1922م ـ 1424هـ/ 2003م): د. عبد الناصر كعدان، ص 231.
- الشطي، محمد مراد بن محمد (1289هـ/ 1872م ـ 1314هـ/ 1897م) د. محمد فؤد الذاكري، ص466.

المجلد(15)، حرف الشين:

- الشبلي، عبد الرحيم بن مصطفى (1344هـ/ 1922م ـ 1413هـ/ 1992م) د. عبد الله أبو هيف، ص89.
- الشهابي، الأمير حيد بن أحمد (1174هـ/ 1716م ـ125هـ/1835م): د. زهير محمد ناجي، ص233.
- الشهابي، الأمير مصطفى (1311هـ/ 1892م ـ 1288هـ/ 1968م): د.محمود عصام الميداني، ص 235.
- الشهبندر، عبد الرحمن (1296هـ/ 1879م ـ 1359هـ/ 1940م): د.أديب اللجمي، ص 246.

المجلد(16)، حرف الصاد:

- الصائغ، عبد الله بن زخريا بن موسى (1091هـ/1680م ـ 1161هـ/ 1748م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص15.
- ابن الصائغ، أبو الغيث محمد بن عبد الله (727هـ/1327م ـ773هـ/ 1372م): د. محمد هشام النعسان، ص18.
- الصابوني، عبد الوهاب بن أحمد (1331هـ/1912م ـ 1407هـ/ 1986م): د. أحمد زياد محبك،ص58.
- ابن صاعد، ابو العلاء صاعد بن الحسن (ت464هـ/1017م): د. محمد فؤاد الذالكري، ص100.

- ابن صالح، أحمد (ت بعد 732هـ/ 1331م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص116.
- الصالحي، زين الدين عبد القادر (ت940هـ/ 1533م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص160.
- الصالحي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (651هـ/1253م .74هـ/ 1340م): د. محمد هشام النعسان، ص162.
- الصالحي، محمد بن عبد القادر (890هـ/1485م - 979هـ/ 1571م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص168.
- صبحي، محي الدين العجان (1354هـ/1935م - 1424هـ/ 2003م): د. عبد الله أبو هيف، ص218.

المجلد(17)، حرفا الصاد والضاد:

- الصفدي، أحمد بن محمد (ت1100هـ/1689م): د. محمد هشام النعسان، ص7.
- الصفدي، أبو العباس أحمد بن يوسف (661هـ1262م - 737هـ/ 1336م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص12.
- الصفدي، محمد بن عيسى (808هـ/1405م - 887هـ/1428م): د.محمد فؤاد الذاكري، ص16.
- الصفوري، عبد القادر بن مصطفى (1016هـ/ 1607م - 1018هـ/ 1670م): د. محمد هشام النعسان، ص39.
- صليبا، جميل بن حبيب (1320هـ/1902م - 1396هـ/1976م): د. جبرائيل بشارة، ص123.
- الصمادي، ابراهيم بن مسلم (998هـ/1589م - 1073هـ/1663م): د. محمد هشام النعسان، ص129.
- الصوفي، عبد الباسط بن محمد أبي الخير (1340هـ/1921م - 1380هـ/1960م): د. أحمد زياد محبك، ص228.
- الصوفي، عبد الله بن عمر بن حموية (572هـ/1177م - 642هـ/ 1244م): د. محمود عصام الميداني، ص232.
- الضفدع الدمشقي، أبو عبد الله محمد بن يوسف (693هـ/1294م - 756هـ/ 1355م): د. محمد هشام النعسان، ص457.
- الضميري، عبد القادر بن محمد (ق9هـ/ 15م): د. محمد فؤاد الذاكري، ص473.

هناك أكثر من خمسين باحثاً في التأليف من سورية ، ومثلما اشرت قبل قليل ، وضعوا مؤلفات عن أعلام العرب والمسلمين في الموسوعة من سورية بخاصة ، ومن الأقطار العربية والدول الأجنبية بعامة ، أي أنهم درسوا

مئات الأعلام ، كما تبين ذلك في عرض هؤلاء في كل مجلد .

3 – تجليات حضور أدباء وعلماء القطر السوري في الموسوعة :

صار واضحاً أن حضور أدباء وعلماء القطر السوري في موسوعة الأعلام واسع وعميق من التاريخ وتطوراته إلى العصر الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأشير ، وصفاً وتحليلاً ، إبراز هؤلاء الأدباء والعلماء في عدد من المجلدات مثالاً، ففي المجلد الأول، عرضت أعلام متميزة في الأوضاع التاريخية والثقافية والفكرية والإبداعية، فقد درس الدكتور أحمد زياد محبك، والدكتور محمد هشام النعسان، والدكتور محمود الربداوي في القرن الأول الهجري وفي القرن السابع الهجري، وفي القرن الثامن الهجري، **كان أبو كعب بن أبيّ شاعراً جاهلياً إسلامياً،** ثم عاش في بلاد الشام، وتوفي في عهد معاوية نحو عام 37هـ. وأبان الباحث إبداعه الشعري، وقد قدّر النقاد القدامى والحديثون شعره، مثل ابن سلام الجمحي، وعزة حسن، وابن حجر العسقلاني، وابن قتيبة.....

أما العلمي نجم الدين الأحدب فقد أتقن في مؤلفاته لصناعات الحربية والفنون العسكرية وتعليم الفروسية. ولد في بلاد الشام في القرن السابع الهجري، وناضل ضد المستعمرين في المقاومة، ثم فتح مدينة عكا، وطرد الصليبيين منها في عام 690هـ/1291م. وتوفي في حلب سنة 695هـ.

ولد أبو العباس الأذرعي في أذرعات في جنوبي سورية حالياً، وهو عالم بالفقه الشافعي، وأصبح من علماء الإسلام في مصر وفي بلاد الشام. عاش في القرن الثامن الهجري، وقرن الإزدهار في حركة التأليف في العلوم الدينية، وطرح القضايا الفقهية، وأسهم في تصنيف التأليف والعلم الإسلامي.

عولج في العصر الحديث عدداً من الأعلام في المجلد الأول، وهم: محمد أديب نحوي، وزكي الأرسوزي، ومعروف الأرناؤوط، وأديب الدمشقي إسحق، وفايز أسعيد، وصدقي اسماعيل.

عرضت سيرة محمد أديب نحوي المبدع والمفكر الذي عين وزيراً للعدل، ثم مستشاراً قانونياً لوزارة الدفاع السورية، وامتلأت قصصه ورواياته بالهم الاجتماعي، وقضايا الوطن بمنظار الأمة العربية. وقد أصدر عشرين كتاباً سردياً وثقافياً. ورحل عام 2001.

ألف المبدع الراحل زكي الأرسوزي مؤلفات فكرية وفلسفية عديدة عن العبقرية العربية في لسانها، والأخلاق والفلسفة ورسالة عن الفن والفلسفة، ومشاكلنا القومية وموقف الأحزاب، وصوت العروبة

في لواء الاسكندرون، وديمقراطية الحكم، وبعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم. ونشرت وزارة الثقافة مؤلفاته الكاملة في ستة مجلدات صدرت بين 1972- 1976.

تلقى معروف الأرناؤوط علومه في الكلية العثمانية الإسلامية التي اعتادت أن ترسخ في طلابها الروح العربية الإسلامية، وتشجع في قراءة التاريخ والإفادة منه، والاتجاهات الثقافية العربية الإسلامية وعناصرها وخصوصياتها، وتألق إبداعه الروائي التاريخي والراهن إضاءة للملحمة العربية الإسلامية، ومحاكاة الواقع التاريخي الحقيقي.

ولد أديب الدمشقي إسحق في دمشق عام 1836، وباشر الاهتمام باللغة العربية والإبداع الأدبي والشعر في العاشرة من عمره، ثم تولى إدارة تحرير جريدة "ثمرات الفنون" في بيروت، وهي صحيفة أسبوعية سياسية علمية أدبية، وأولى الجرائد الإسلامية في بيروت. وترأس تحرير جريدة "التقدم"، وانتقل إلى مصر، وتولى أيضاً تحرير جريدة " المصباح"، **وألف كتباً عن السياسة والثقافة، واهتم بالحرية والمساواة والعدالة.** عاش فترة في باريس، ثم عاد إلى مصر، وتوفي في بيروت عام 1885م.

تميز فايز أسعيد في صوغه السردي من حيث موضوعاته والتزامه بتقاليد القص الإتباعي الذي يأخذ بمقومات القصة التقليدية، ولا سيما تعبيرها عن مشكلات جماعة مغمورة، وهي المغتربون بعيداً عن وطنهم، وثمة مقومات أخرى مثل نشدان التعاطف الإنسان مع الجماعة المغمورة، وضبط المنظور السردي الكاشف عن المحتوى القيمي التي تتلخص به قصصه جميعاً. حمل إجازة في الحقوق من جامعة دمشق عام 1963م، والدكتوراه في العلوم السياسية من الأرجنتين عام 1992، وعمل في وزارة الخارجية السورية منذ عام 1964، في سفارات عربية وأجنبية، وعمل كذلك مديراً لمكتب الجامعة العربية في دول عربية وأجنبية، وتوفي في ألمانيا عام 1997، **مدّ المبدع الراحل رؤاه الإنسانية إلى تثمير دلالات الوجود والعلاقات الحوارية الحضارية في غالبية قصصه.**

نهضت سرديات صدقي اسماعيل في التقاليد سواء في الفن أو في الحياة، وما اتباعيته في التقنية السردية إلا صدى لموضوعاته. أما نظرته إلى العربي فهي ثمرة الانشغال بهذه الموضوعات التي تصبح أساس السرد ومنطلقاتها نحو منطق صارم من أولى لوازمه الوضوح والسرد والأخبار، وتوجه إلى الواقع العربي بصورته الحضارية الشاخصة، وآفاق الثورة العربية المعاصرة في مؤلفاته الثقافية والفكرية وإبداعاته القصصية والروائية والمسرحية.

وترأس اتحاد الكتاب العرب، ودوريات

كثيرة، إلى جانب أمانة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وتوفي في السكتة القلبية في دمشق عام 1972. إن المبدع صدقي اسماعيل من هؤلاء الفنانين القادرين الذي يخلصون لذاتيتهم بوضع التعبير الساطع عن إنسانية فاجعة ومفجوعة في إطار ظرفها التاريخي ومفجوعة في إطار شروط الضعف عندما يكبل صاحبه قيود الحياة، فيصبح فن صدقي اسماعيل مراودة للحرية من أجل تحقيق الوجود الذاتي.

في كل مجلد هناك عدد من أدباء وعلماء القطر العربي السوري في موسوعة الأعلام، وأعرض مثالاً أيضاً من المجلدين الخامس عشر والسادس عشر. تضمن المجلد الخامس عشر أربعة أعلام من سورية: عبد الرحيم بن مصطفى الشلبي، الأمير حيدر بن أحمد الشهابي، الأمير مصطفى الشهابي، عبد الرحمن الشهبندر.

عبد الرحيم الشلبي روائي وقاص ومسرحي وهب حياته للإبداع الأدبي، فأثمر مؤلفات شديدة الخصوصية في رؤاها الفكرية والفنية التي يتعاضد فهيا التاريخ مع الواقع والاستشراف المستقبلي، مثلما تتفرد تقاناتها الفنية مع المعرفة. ولد في حلب سنة 1922، وسافر إلى فرنسا للتحصيل العالي في العلوم، إذ درس الآداب في جامعة السوربون، ونال منها شهادات عالية، وعاد إلى سورية في أواخر الأربعينيات، وبقي في حلب فترة قصيرة، ثم سافر إلى ألمانيا، ودرس فيها اللغة الألمانية حتى أتقنها، ونال شهادة الدكتوراه، ورجع إلى سورية، وقصد بيروت، وتابع فيها نشاطه الأدبي، ونشر فيها بعض آثاره، وترجم عشرات الكتب الأدبية عن الفرنسية والألمانية، واستقر بدمشق سنة 1971، وأصبح عضواً في اتحاد الكتاب العرب، وعمل في الصحافة والإذاعة، وأمد بخبرته الأدبية، في السنوات الأخيرة من حياته، عملاً مع "دار الفاضل للتأليف والترجمة والنشر" إلى أن وافته المنية بدمشق سنة 1992.

لقد هدأ المبدع الشلبي، جواب المعرفة، لتضيء مع الزمن قوة كلماته تعبيراً عن تجربة أدبية فريدة بزغت فيها المعرفة من أتون نار لا تنطفئ، وما مبدعاته إلا رحلته في الحياة ورحلته في الكلمات الإبداعية معاً.

كان الأمير حيدر بن أحمد الشهابي مؤرخاً ومن رجال السياسة والإدارة والحرب، وكان مولعاً بقراءة كتب التاريخ وبتدوين الاحداث التي قرأها، أو شاهدها، أو شارك فيها، فترك أصلاً مهماً من أصول تاريخ بلاد الشام وما حولها، ألف ثلاث كتب تاريخية وسياسية عربية هامة، ورحل عام 1835م.

اهتم الأمير مصطفى الشهابي بالأبنية العلمية، فأنشأ دار الكتب الوطنية في حلب، ومثلها في اللاذقية، وانتخب عضواً في المجتمع العلمي العربي بدمشق عام 1926. وعضواً لمجمع اللغة العربية في مصر عام 1954، وعضواً في المجمع العراقي عام 1961، وتقلّد مناصب علمية عديدة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق، ومثل الجامعة العربي في حلقات دراسية عديدة، وصار رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق عام 1956، إنه عالم في اللغة والثقافة والمعرفة الوطنية والقومية العربية، ونشر عن هذه العلوم عشرة كتب، وتوفي في دمشق سنة 1968، ودفن في سفح جبل قاسيون.

ولد عبد الرحمن الشهبندر في أسرة فقيرة بدمشق عام 1879، ودرس الدوائر العلمية والطبية برتبة دكتور في الطب سنة 1906م، وتقديراً لامتيازه في نيل شهادة الطب، عيّنته الكلية مدرساً فيها خلال سنتي 1906-1907م، ثم عاد إلى دمشق سنة 1908، **وبدأ ممارسة الطب والنشاط السياسي والعلمي في الوقت ذاته، ومارس النضال القومي في التمرد على السيطرة التركية، ومن ثم على الاستعمار الفرنسي الذي حلّ محل الامبراطورية العثمانية في سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى 1914-1918م.** شارك في المؤتمر الوطني السوري الذي طالب باستقلال سورية الكبرى، ولما أعلن تنصيب الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سورية سنة 1920، شغل منصب وزير الخارجية في حكومته. ولكن هذه الحكومة داهمتها القوات الفرنسية، وأطاحت بها، وباستقلال سورية سنة 1922م، واعتقلت الزعماء السوريين، ومنهم الشهبندر، وحكمت عليه بالسجن في جزيرة أرواد التابعة لسورية، ثم أطلقت سراحه سنة 1923م، فسافر إلى أوروبا، لكنه عاد إلى دمشق ليشارك في الثورة السوري الكبرى ضد الحضور الفرنسي سنة 1925م، وأسس حزب الشعب، ومارس مع المناضلين الآخرين التأكيد على الهوية القومية العربية السورية، والنضال لتحقيق استقلال سورية، وطرد الاحتلال الفرنسي، وإقامة دولة سورية ترتكز على الديمقراطية والعلمانية، ولكنه اغتيل سنة 1940، والمؤكد كذلك أنه نشرت عنه مؤلفات سياسية واجتماعية، مثلما نشرت أعماله الكاملة في أربعة مجلدات، سنة 1993، في وزارة الثقافة السورية، وهي تضم المقالات، والقضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي، والثورة السورية الوطنية، ومذكرات وخطب.

غير أن المجلد السادس عشر احتوى عشرة علماء وأدباء من مراحل التاريخ العربي الإسلامي إلى العصر الحديث. وأشير إلى مواقعهم حسب الباحثين والنقاد عنهم، وهم من حرف الصاد، جميعاً في هذا

المجلد. ولد عبد الله بن زخريا بن موسى الصائغ في حماه عام 1680م، وانتمى إلى المذهب الكاثوليكي، واتقن في صباه الحفر والنقش والتصوير، وأحسن سبك الفولاذ وصنع الساعات الفولاذية والميكانيكية. عمل طويلاً في حلب وبيروت، وأقام المطبعة لعقود من الزمن، وأصدر تسعة عشر كتاباً تعالج جميعها مواضيع دينية، موزعة بين أجزاء من الكتب المسيحية المقدسة،ومن الطقوس والأخلاق والزهد والتصوف والدفاع عن المسيحية، ويعّد عبد الله الصائغ من الرواد الأوائل الذين أنشأوا المطابع في المشرق العربي في القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك كثيراً من الصعوبات الفنية التي اعترضته منذ البداية في إعداد الأحرف العربية، وهو من الإصلاحيين الذين عكسوا إرادة المجتمع العربي في التفتح على الحداثة والاكتشافات العلمية القادمة من أوروبا، وتوفي سنة 1748م.

كان أبو الغيث محمد بن عبد الله بن الصائغ قاضياً وفقيهاً، ولد في دمشق سنة 1327م، وتولى قضاء حمص وغزة وسرمين (التابعة اليوم لمحافظة إدلب)، وتوفي في مدينة حمص سنة 1372م، ونقل ليدفن في سفح جبل قاسيون بدمشق.

ولد عبد الوهاب بن أحمد الصابوني في حي البياضة بحلب سنة 1912، ودرس في حلب ودمشق، وتابع دراسته في القاهرة في قسم اللغة العربية بجامعة فؤاد الأول سنة 1944، وتخرج فيها سنة 1947، **وعمل مدرساً لمادة اللغة العربية في ثانويات حلب، ونشر مؤلفات روائية ولغوية ونقدية وشعرية**، وتوفي سنة 1986.

إن المبدع "**أبو العلاء صاعد بن الحسن بن صاعد**" **طبيب، فلكي، شاعر عاش في مدينة الرحبة والميادين بالرقة، ودير الزور، ودمشق، وكتب مؤلفات عن التشويق الطبي، والتشويق العلمي والتعليمي**، وتوفي سنة 1071م. غير أن أحمد بن صالح ولد في دمشق في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وعاش في حماه طبيباً ومبدعاً في الشعر والجمل الطبية والتاريخية والاجتماعية، وتوفي سنة 1331م.

ألمح الباحث محمد عيسى صالحية عن سيرة زين الدين عبد الرحمن بن أحمد الصالحي باختصار، حيث ولادته في دمشق سنة 1365م، **وحياته في المصنفات الفلكية والديانة الإسلامية، فقد عمل في الجامع الأموي للصلاة ومواعيدها، وبداية الشهور ونهاياتها للصوم والعيدين**، وتوفي سنة 1437م.

وسع الباحث محمد هشام النعسان **سيرة** " **أبو عبد الله محمد بن أحمد الصالحي** " **على أنه صاحب زهد، وتصوف، وفقه.** ولد في دمشق سنة 1253م، ونشأ وتعلم فيها،

وهو أخو الشيخ تقي الدين عبد الله الصالحي. أخذ الصالحي علومه على علماء الشام ومشايخه، وكان رجلاً صالحاً تقياً من خيار عباد الله، وتوفي سنة 1340م في دمشق، ودفن بجبل قاسيون.

وسع الذاكري **سيرة محمد بن عبد القادر الصالحي أيضاً، بوصفه طبيباً وفلكياً،** ومنجماً ولد في حي الصالحية بدمشق سنة 1485م، من أسرة طبية، فوالده الطبيب المشهور زين الدين عبد القادر الصالحي (توفي سنة 1540م) تلقى دروسه الفقهية، وسمع الحديث، ودرس علم النحو والعروض، وتميز في الطب والعلاج، وبرع في الطب الطبائعي (الباطني)، وعين رئيس الاطباء بدمشق. عمر محمد الصالحي طويلاً، وتوفي عن عمر يناهز التسعين عاماً، ودفن بجانب والده على سفح جبل قاسيون بدمشق سنة 1571م.

برز محي الدين العجان صبحي في شغله الإبداعي والنقدي وأعلامه ونظرياته بعامة، وفي الفكر القومي بخاصة. ولد في دمشق 1935م، وتخرج من جامعة دمشق حاملاً الإجازة في اللغة الانجليزية عام 1957، وحاز على الماجستير والدكتوراه في الآداب من الجامعة الأمريكية في بيروت 1973-1979م، وعمل مدرساً في دمشق، ومحرراً أدبياً في الدوريات اليومية والشهرية، وترأس تحرير مجلة "المعرفة" (وزارة الثقافة السورية) 1973-1977م.

وعمل أيضاً صحافياً وكاتباً في لندن وباريس والمغرب ولبنان حتى رحيله سنة 2003م. محيي الدين صبحي ناقد ومفكر قومي بارز أسهم إسهامات كبيرة في النظرية النقدية والأدبية، ومفي ممارساتها الواسعة في الأجناس المختلفة، وربط شغله على الدوام بالتفكير القومي دفاعاً عن الذات في مواجهة المخاطر والتحديات التي لا تنتهي، ويتجلى ذلك في مؤلفاته الكثيرة، وهي ثلاثة وعشرون كتاباً.

طبع حتى الآن 19 مجلداً ، وأوضحت أن هناك مئات الأدباء والعلماء من القطر السوري ، ومن بلاد الشام وعاصمتها دمشق ، منذ الفتوحات الإسلامية ، وقيام الخلافة الأموية فيها ، وتناظمها الرئيس مع الخلافة العباسية ، والانتماء العربي مع الأقطار العربية جميعاً . وعندما نمعن النظر والقراءة في مجلدات " موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين " في سورية ، نجد حضور أدباء وعلماء القطر السوري في الموسوعة عناية بالوجود العربي وتنمية للثقافة العربية .

المراكز الثقافية بدمشق
منارات إشعاع ومرتكزات حضارة

غسان كلاَّس

من وظائفها نقل مكونات الوعي الثقافي من المحاضر إلى المتلقي

اختيار الموضوع المناسب والمحاضر الكفؤ والإعلان عنهما شرط لنجاح الأنشطة الثقافية.

تلعب المراكز الثقافية ـ بل يجب أن تلعب ـ دوراً هاماً في الحياة الثقافية رغم التحديات التي تواجهها ورغم المنافسات والمزاحمات التي تتعرض لها.

ويأتي دور المراكز الثقافية في التجمعات البشرية في الصدارة، بعد المنشآت التعليمية والصحية، لأنها تنشر الوعي وتعرّف بنتاجات الفكر بتفرد يختلف عن غيرها في أدائه ورسالته.

أصوات كثيرة صدرت هنا وهناك متحدثة ـ وبدرجات مختلفة من القوة والضعف ـ عن انحسار دور المراكز الثقافية أمام انتشار وسائل التواصل والاتصال المختلفة ذات التقانات التي تفنن مخترعوها ومبدعوها والقائمون عليها في رفدها بالمزيد من الأدوات التي يسهل تناولها ومتابعتها.........

وصدرت أصوات كثيرة تشير بأصابع الاتهام لإدارات المراكز أو القائمين عليها بقلّة مرتاديها، وضعف الحضور الذي بات يشكل ظاهرة تعددت الآراء في أسبابها، وباتت الثقافة في رأي هؤلاء وكأنها سلعة قديمة غير مرغوب فيها، عبر المراكز الثقافية التي باتت في زعمهم ككنيسة اليوت في (الأرض الخراب) مرتعاً للرياح فقط.....

إذا صح أن قلة الحضور في المنتديات الثقافية يعود لأسباب اقتصادية فهذا الحكم لا يمكن الأخذ به على إطلاقه من منظور عام، فضعف الحضور لا يتجلى فقط في المجتمعات الضعيفة اقتصادياً، والتي يكدح أبناؤها لتحسين دخولهم وأحوالهم المعاشية، وإنما يبرز في مجتمعات ينعم أبناؤها برغد

من العيش وحالة من الاكتفاء بل الرخاء.......

ورغم ذلك، لا يمكن الركون إلى هذا الكلام بالمطلق فالمتتبع للحياة الثقافية في كثير من المجتمعات يجد أن بعض المراكز تضيق بروادها عندما تعلن عن نشاط أو فعالية مميزة... وهذا يقودنا للحديث عن شروط النشاط الذي يستقطب الناس ويجعلهم يجدّون في طلبه وحضوره ولعل في مقدمة هذه الشروط: اختيار الموضوع المناسب الذي يتقاطع مع اهتمامات الناس والقضايا الهامة في المجتمع، وأيضاً المحاضر الكفؤ الذي يستطيع إيصال الفكرة واجتذاب الجمهور، إضافة إلى ضرورة الإعلان عن الفعالية بصورة جادة وجيدة.... كل ذلك ـ لا ريب ـ سيحرض المتلقي لتخصيص الوقت الذي يحرص، من خلاله، على حضور نشاط يعود عليه بالفائدة والمتعة.......

ولا يخفى أن تتضمن الأجندة، في هذا الإطار، التوقيت والوقت المناسب للمتلقي، لا للمحاضر، غير المتزامن مع فعاليات أخرى في المكان نفسه أو في محيطه.. إضافة لفتح باب الحوار والنقاش رحباً إبان كل نشاط مشفوعاً بالشفافية والمصداقية وحسن الإدارة......

لقد بات الجمهور في أيامنا هذه أكثر وعياً وقدرة على تمييز الغث من السمين، وعدم قبول المسطح والعائم من الطروحات والأفكار التي تفتقر إلى قاعدة موضوعية منهجية....

في مطلع القرن الماضي أدت المراكز الثقافية دوراً بارزاً في طرقها لفنون شعرية ونثرية بأشكالها المختلفة.... ولكنها اليوم ومع مستهل الألفية الثالثة يجب أن تضطلع بدور أكثر تميزاً يتماشى مع تعدد الثقافات وتنوعها....

لم تعد المراكز الثقافية في أيامنا هذه مكاناً للمحاضرات والندوات والأمسيات الشعرية فحسب، بل أصبحت ـ ويجب أن تكون ـ حاضنة للإبداعات بأشكالها المختلفة: معارض تشكيلية، معارض للكتب......

يجب أن تكون المراكز الثقافية موئلاً وملاذاً للمواهب الشابة التي يعنى باحتضانها وتنمية إمكاناتها وتأهيلها لسلوك طريق الإبداع ضمن مناهج مبرمجة ومدروسة يجد فيها هؤلاء الشباب ضالتهم فيتمسكون بأهدابها وأهدافها القويمة التي تشغلهم عما سواها من رخيص الإعلانات وتافهة الاستثارات.

ولما كانت الوظيفة الأساس للمراكز الثقافية هي نقل مكونات الوعي الثقافي من المحاضر إلى المتلقي الذي يحضر بطوعية ورية، فإنه ـ بالمقابل ـ يجب أن يكون للإعلام دوره المميز الموضوع في هذا السياق: يعلن ويتابع ويعلق.. في إطار من التكاملية التي تعود بالخير العميم على أفراد

المجتمع سواء الذين يرتادون المراكز وأولئك الذين يتابعون أخبار نشاطاتهم عبر وسائل الإعلام المختلفة.

ولعله من نافلة القول الإشارة إلى ضرورة اختيار الإدارة المناسبة المؤهلة، القادرة على بناء علاقات عامة لقيادة هذا العمل لأن عملية التخطيط الثقافي وتوظيفها في خدمة الإنسان فكراً وتكويناً من الأمور التي لا يختلف اثنان في أهميتها.

وأخيراً، وكما أن الصفوة من المثقفين ما يزالون - وسيبقون - يعتبرون المسرح، دون السينما والتلفاز، أب الفنون، من الناحية البصرية، ولكنهم هم أنفسهم يعتبرون المراكز الثقافية، بما تقدمه من نشاطات وفعاليات، الأداء البصري الأكثر جدوى للتعبير عن الذات والحوار في أجوائه.

❑❑

وقفة مع..
الديوان الدمشقي
للباحث المحقق الأستاذ محمد المصري*

أسامة بدر الدين مراد

هذا الديوان يقع في 592 صفحة من القطع المتوسط، يضم بين دفتيه شعراً نُظِمَ في دمشق قديماً وحديثاً، جمعه وشرحه الأستاذ محمد المصري.

وقد رتبه على النحو التالي:

1 ـ المقدمة.

2 ـ النصوص الشعرية المختلفة مرتبة على القوافي بحسب الترتيب الهجائي.

3 ـ الأراجيز والموشحات والقصائد المختلفة القوافي.

4 ـ دمشق وذكر متنزهاتها وتفصيل أنهارها وذكر أوديتها وأعينها.

5 ـ كشاف الأماكن.

7 ـ ذكر المصادر والمراجع المعتمدة.

8 ـ الفهرس الشامل لأقسام الديوان وموضوعاته.

بدأه بمقدمة طوف فيها على حياض الشعر، ومكامن الشعور، ورياض الشعراء.. فشقق القول في جانب من أنواع الشعر، وهو الوصف من بين ضروبه المختلفة.. وكيف أن غرض الوصف هذا يفوق غيره من الأغراض كمّاً وغزارة، بل إنه ينفذ إلى معظم الأغراض.. فحيثما كان شعر كان معه وصف.. وفي الأغراض التقليدية من مدح وهجاء وغزل ورثاء.. مطارحات ووجدانيات.. نجد ذلك في بناء القصيدة التقليدية عندما يصف رحلته وراحلته،

* المؤلف: هو محمد بن محمود المصري من محققي التراث المتقنين، من أهالي دمشق، بها ولد عام 1932م ونشأ وتعلم وفيها توفي أيضاً عام 1997، رحمه الله تعالى. وترجمته في "إتمام الأعلام" ص: 408 . تأليف الدكتور نزار أباظة والأستاذ محمد رياض المالح. الطبعة الثانية من إصدار "دار الفكر" بدمشق.

وأطلال محبوبته، ويرثي الممالك الزائلة، والمدن الدارسة، والأمم البائدة. وفي حديث النفس ونفثات الوجدان.. ويدخل في أنواع الموصوفات في الرياض والأنهار والبحار والقفار والسماء، والقصور، والبرك، والشعاب إضافة إلى المعارك والحروب، والأشخاص من أحباب وأعداء..

ووصف للأوطان والمرابع التي نشؤوا فيها وترعرعوا.. أو أقاموا فيها أو زاروها.. كل ذلك تعبير عن خلجات النفس وتوهجات العواطف.

وبسبب أن الإنسان أسير الحاجة إلى بقعة ينتمي إليها، يحبها ويتمسك بها ويدافع عنها، هي الوطن، وعشق الوطن والتعلق به فطرة راسخة، نراه لا يبتعد عن وطنه أو مدينته قليلاً حتى يحنَّ إلى العودة والرجوع مهما كانت الظروف.

والتعبير عن هذا الحب والحنين والشوق يختلف بين البشر. فكل يعبر عنه بأسلوب متميز، وفن متفرد.. وعلى العموم فإن الشوق والحنين يتفجر بعد كل رحيل أو نزوح أو إقصاء.. ويصل مؤلف الديوان إلى الحديث عن دمشق، وهي بلا شك من أعرق بلاد الدنيا، وقد أنجبت النوابغ في الفكر والأدب والفن فأقاموا فيها، كما استقبلت وافدين إليها حَلُّوا فيها واستقرُّوا وقضوا فيها آجالهم، فكانت مثوى أبدياً لهم. ولقد تعارف الجميع على جمالها وطيب هوائها ووفرة مياهها ولطافة جوّها وحسن معشر أهلها حتى عُدَّت إحدى جنات الدنيا. ولهذه المدينة تاريخ موغل في القدم حافل متنوّع الوجوه غزير الأحداث طريفها.

ويتبادر إلى ذهن القارئ سؤال مُلِحٌّ عن سبب قِدَم هذه المدينة وأنها أقدم مدينة مأهولة في التاريخ؛ فيأتي الجواب:

إنه بردى.. هذا النهر الوادع، يعانق أطراف دمشق ويقبلها عندما يتفرع إلى سبعة أنهار وعشرات الأقنية ومئات السواقي، تغذي المدينة بنسغ الحياة لتتواصل الآمادُ في نبضها المتلاحق. ويشهد على هذه الحياة الأبدية ابتداءً وإلى ما يشاء الله، وعلى هذه العلاقة الوشيجة الوثيقة، ذلك الشامخ في جانبها الشمالي، قاسيون يحميها من أعدائها من الإنس أو من عناصر الطبيعة، كما تتفرع في مساربه الأنهار لتروي أحياءها وأراضيها وبساتينها.

وتمتاز دمشق بغوطتها الشرقية والغربية ذواتي الأرض الخصبة والجو المعتدل وعشرات القرى المتناثرة بين أطرافها وعلى ضفاف جداولها ويزيدها جمالاً وروعة وإشراقاً امتدادها على سهل منبسط مونق تحيط به الغياض والرياحين والمتنزهات وتنساب الأنهار والسواقي في كل اتجاه.

ودمشق بهذه المعطيات ملهمة لإظهار المواهب لدى عاشقيها نظماً أو رسماً أو نغماً أو سحراً من الفنون الجميلة. ودمشق هذه من

ماضيها إلى حاضرها، محاسنها لا تنفد، ومزاياها لا تنقطع رغم ما أصابها من تطور، وما نافسها من حواضر، قد تفوقها في جوانب من المقايسة. إنها الجنة التي لا يضاهيها جنان الدنيا، إنها جنة كل عربي، نسباً ولساناً وهوى. ويشهد على ذلك من جهة أخرى، توثيقاً وإخباراً ووصفاً كتب التراث العربي من تاريخ وبلدان وأدب ودواوين وكتب اختيارات. ومع ما نُظِمَ فيها شعراً أو روي فيها خبراً ونثراً؛ صيغت العواطف الرقيقة بأجمل لفظ، كل ذلك مدح وإعجاب وحب ووفاء.. ولم تخل بضعة سطور من مئات الصحائف الناصعات، لم تخل من إشارة ذمٍّ أو وضع مكانة، وهذا لا يعيبها ولا يقلل من قيمتها ومكانتها، فمن ذلك ما قاله عبد العزيز بن عبد الواحد المغربي المكناسي في ذم دمشق وهو:

قالوا دمشق جنة قد زُخْرِفَتْ
من كل ما تهوى نفوس البشر
أما ترى الأنهار من تحتها
تجري فقلت مجاوياً بل سقر
لأنها حُفَّتْ بما يُشْتَهى
فهي إذن نار كما في الخبر

فانبرى له الشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي معارضاً ومعترضاً فقال:

قالوا دمشق جنة قد زُخْرِفت قلت: نعمْ
للعارفين الشاكريـ ـن ما حوتْ من النعمْ
فاعجب لخالٍ عن حجى في حقها بالشتم عمّْ
الربوة التي لها في الذِكرِ ذِكرٌ لا تُذَمّْ

ويشهد على مدائحها وأوصافها التي لا تحصى، ما حوته بطون أمهات الكتب ودواوين الشعراء وكتب المختارات.

إن عمل المؤلف ـ رحمه الله ـ هو تسهيل على الناهل الوارد، ووفاء ومحبة وإعجاب لبلده دمشق، حيث وُلد وترعرع وتعلم، وقد وفقه الله إلى جمعه آلاف الأبيات في قصائد وموشحات ومقطعات وهو غيض من فيض مما نظم في دمشق، استلها من مظانها من كتب الأدب والمختارات والدواوين والأخبار أو استأنس بها وقد بلغت عدتها (163) من المصادر والمراجع وقد بلغ عدد القطع الشعرية (508) قطعة بين قصيدة طويلة تصل إلى حوالي (200) بيت ومقطعة متوسطة الطول أو بيتين أو بيت منفرد، إضافة إلى (18) قطعة من الأراجيز والموشحات، وذلك لشعراء مكثرين أو مقلين، مشهورين أو مغمورين. وقد امتازت بعض الاختيارات ببديع السبك وروعة المعاني

والصور؛ كما تدنت بعض الأبيات إلى ما دون مرتبة الإبداع لانغماسها في تكلف الصنعة البديعية أو البيانية أحياناً تأثراً بمقاييس عصر بعضها السابق، إلا أن معظمها فيض شعور صادق أصيل..

وإنك لتجد القديم كما تجد الحديث من الشعر العمودي، ولكن لا تجد شيئاً من الشعر الحر، ذي الوزن المنثور والقافية المتعددة أو الغائبة، كما تجد فيها الأرجوزة والموشح. ومن القصائد ما قيلت كاملة في دمشق نُقِلَتْ بتمامها ومنها مختارات من قصائد ذات أغراض متعددة انتقى المؤلف ما تحدث عن دمشق وطبيعتها وجمالها. وقد اعتمد الأستاذ المصري رحمه الله في عمله على (163) مصدراً ومرجعاً، نقل عنها أو استأنس بها من بين ديوان شعر ومختارات شعرية، وكتب أخبار وتاريخ وتراجم وخطط وآثار وكتب في الرياض وموسوعات ومعاجم وصحف ومجلات.

وقد شملت القصائد وصفاً لدمشق وأعمالها من ريف وقرى وضواحي، وهذا الكتاب جديد في بابه في جمع ما وُصفت به دمشق، ولم يُسبق بغيره، يقدمه مؤلفه إلى عشاق دمشق ومحبيها وخدمة للغة العرب، وأدب العرب، ولعاصمة عربية أصيلة.

وقد ذكر المؤلف المصادر التي أخذ عنها. ورتب الأشعار وقوافيها على حروف المعجم[1]، وضبط المفردات بالشكل وشرح كثيراً منها، كما أشار إلى مصادر كثير من الأشعار في الحواشي، ونبَّه إلى مناسبة النص وزمن النظم إن وجد، ونوه إلى اختلاف بعض الأبيات في روايتها، وكشف عن الأعلام الواردة في الأشعار، وترجم بإيجاز للشعراء، وساق أسماءهم في كشاف الأعلام على ترتيب حروف المعجم، كما عرَّف بالأماكن وسردها في كشاف الأماكن على ترتيب حروف المعجم أيضاً. واكتفى بذكرها في الكشاف دون الحواشي تفادياً للتكرار. وقد اصطنع نمطاً من الإحالات إلى الحواشي جديداً منفرداً، فقد استخدم رمز النجوم كما يلي: (*. **. ***) ليدل على إحالات إلى المصادر والمراجع ومكان وتاريخ ومناسبة نظم القصائد أو الأبيات، وتخريج الأبيات في مصادرها وذكر الآيات القرآنية التي اقتبست منها بعض الألفاظ والمعاني المختلفة كما استخدم الأرقام مثل: (3،2،1...) التي تدل على شرح المفردات أو تعريف بالأماكن الواردة وتحديد مواقعها، وكذلك إشارات إلى المعاجم التي تشرح معاني المفردات الغريبة.

وقد أورد المؤلف حوالي (مئتين

(1) يرى كاتب هذه الدراسة أنه لو رتب الأشعار على الأماكن التي نُظمت حولها لكان أسهل للمنتفع منه، أو لو أنه جمع ما قاله كل شاعر في الأمكنة المختلفة لكان عمله أدق وأنفع.

وخمسين) اسماً علماً من أسماء الشعراء والسلاطين والملوك والأمراء والعلماء والمحقّقين. وأسماء لغويين ونحويين وقضاة وقواد وكُتّابٍ وأصحاب تراجم وأصحاب حِرف ومهن وأصحاب تاريخ وسياسة ومُحَدِّثين وصوفيين وأعيان وفضلاء وظرفاء ونُدْمان ومغنين وموسوعيين وخطباء وأطباء وأصحاب فلسفة ومذاهب، ومن أهل الأُميَّة والعامية، قدامى ومُحْدثين.

كما أوردَ المؤلف أكثر من (مئتين وخمسين) اسماً لأماكن وأحياء وقرى ومساجد وأديرة وأنهار وقلاع وقصور وبيوت وأبواب وعيون ماء، منها ما هو قائم ومنها ما هو مندرس. فمن أسماء الأعلام أحمد رامي، وأحمد شوقي، وإسحاق الموصلي، وأنور العطار، والبحتري وبدر الدين الحامد، وبدوي الجبل، والظاهر بيبرس وتاج الملوك وأبو تمام، وجورج صيدح، وحسان بن ثابت ﷺ، والطِّرماح، وخليل أيبك الصفدي، وعمر أبو ريشة، وسليمان العيسى، ومحمد البزم، ومحمد مهدي الجواهري، ومعروف الرصافي، ونزار قباني، وابن النقيب، ووليد قصاب، وغيرهم كثير.. ومن الأماكن: إرم ذات العماد، والأشرفية، والبريص، وبسيمة، وبقين، وجوبر وحلبون وداريا، ودمر، والجامع الأموي، ودار الحديث، وسوق الحميدية، وجيرون، وجِلّق، وقبر الشيخ محي الدين بن عربي، وباب البريد، وباب توما، وباب الجابية، وباب السلامة، وجسر الغيضة، والشاغور، والصالحية، وصيدنايا، والضمير، وقلعة دمشق.

وذكر الأنهار كبردى وفروعه وبانياس وتورا، والداراني، وقناة المزة، ودير العصافير، ودير قانون، والربوة، والزبداني، والشادروان، وعذرا، وتعرف اليوم بعدرا (بالدال المهملة). وعربين وعين ترما، وعين حور، وعين الصاحب، والقابون، وقاسيون، وقصر الفقراء قرب الربوة، وقد بناه السلطان نور الدين لهم ـ وكفر بطنا، وكفر سوسة، وكيوان، ومغارة الدم، ومقام إبراهيم ببرزة، وميسلون، والنيربان، والهامة، وغيرها أماكن كثيرة جداً...

ولا يخفى على القارئ الباحث ما في كثير من مختارات المؤلف من الاستحسان والإجادة. وقديماً قالوا: الاختيار جانب من التصور والذوق لدى الرجل. وتأكيداً على صحة ما ذهبت إليه ما قالوه عن أبي تمام في اختياراته في "الحماسة": إن أبا تمام في اختياراته كان أشعر منه في نظمه لأشعاره، وقد بلغ الأستاذ محمد المصري رحمه الله حداً واسعاً من الشفافية عندما اختار تلك الأشعار إن دل على شيء فإنما يدل على مدى حبه وعشقه لمدينته الفاتنة الغالية الخالدة، كما يدل على القدر الكبير من الجهد الذي بذله في عمله في الاختيار، وفي التعقيب وفي الشرح إلى الحد الذي جعل من "مختاراته" مادة واضحة قريبة من فهم القارئ

المجتهد والمقتصد على السواء، وهي على تنوعها في مادتها تنصبُّ في اتجاه الحديث عن هذه المدينة العريقة دمشق الشام المحروسة. فرحم الله مؤلف الكتاب الأستاذ محمد المصري رحمة واسعة وجزاه خير ما يجازي محباً لبلده وعاشقاً لوطنه.. فقد كان مثالاً للمواطن البار المتمسك بوطنه، الفخور بوطنيته. وسأختار من الديوان الدمشقي بعض النصوص الشعرية مع ما يفتح الله من تقديم لمناسبتها أو تعليق عليها وتوضيح لأهم ما أغلق منها.

ولعل من أقدم النصوص التي ورد فيها ذكر لدمشق أو أحد مسمياتها تلك الأبيات على لسان شاعر النبي الكريم سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وذلك في مدحه الغساسنة في بلاد الشام عندما قال:

للهِ درُّ عصابَةٍ نادَمْتُهم

يوماً بِجِلِّقَ في الزمانِ الأولِ

أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبر أبيهِمِ

قبرِ ابن ماريةَ الْمُعِمِّ الْمُخْول

يَسْقون من وَرَدَ البَريصَ

بَردى يصفِّق بالرحيقِ

* * *

وبعده يطل ـ ومن العصر الأموي ـ عبيد الله بن قيس الرقيات (3) شاعر الزبيريين الفَذُّ فيطيب له في مقدمة طللية لإحدى قصائده أن يتوكأ على ذكر بقاع في الشام فيقول:

أقفرت منهم الفراديس فالغو

طة ذات القرى وذات الظِّلال

فضمير فالماطرون فحورا

ن قفار بَسَابِسُ الأطلال

فهو يصِفُ هذه الأماكن بأنها مقفرة من أهلها مجردة من جمالها بعد أن أضحت أطلالاً دوارس كما وقف عبد الرحمن الداخل (4) "صقر قريش" متشوقاً إلى دمشق وهو في بلاد الأندلس بعد أن جدَّدَ حكم الأمويين فيها فيقول:

أيها الراكب الميمم أرضي

اقرِ بعض السلام مني لبعض

إن جسمي كما علمت بأرض

وفؤادي ومالكيه بأرض

قُدِّر البين بيننا فافترقنا

وطوى البين عن جفوني

قد قضى الله بالفراق علينا

فعسى باجتماعنا سوف

لقد نظم الشعراء في دمشق وغوطتها وجمالها ومواقعها المختلفة كما ارتجلوا أشعار تعبّر عن سرورهم وبهجتهم خلال نزهاتهم واستمتاعهم. فهذا الشاعر ابن النقيب تنال

"الرَّبوة" من شعره أنفاساً.. ومن نثره المدبَّج فيضاً غزيراً..

قال ابن النقيب(6):

وكتبت على شجرة بالربوة، وهي دارُ النشاط، ومنزل الصبوة، وكنت قد أنختُ إلى جانبها فأفاءت عليّ، وقدّم لي مستشرفُ مقيلها صورةَ الجنة إلى بين يدي، فقمت مرتاحاً، وجعلتُ الأوصاف للتمتع مفتاحاً، وارتجلتُ ما ترى، محاولاً صياغة معنى في أوصاف الرُّستمي(5) شاعر اليتيمة، والزيادة عليه، مع جودة السبك باستيفاء اللوازم وهو:

وبطنٍ من الوادي حللنا مقيلهُ
وفي ضفَّتيه العُشْبُ يدعوك للخِصْبِ
لمستشرفٍ زَرّتْ خوارزَ جَيْبِهِ
على جسمِ مَيْثاءِ الثرى ناعمُ
بَرودُ مَدَبِّ الظلِّ فينانُ أخضر
عطيرُ شميمِ الريح يُلهي عن الكربِ
إذا اطّردت أنهارُه خلتَ جنةً
بمدرجة الأرواحِ قامت إلى اللعبِ
أتيحَ لها منها حَبيكُ سلاسلٍ
تُناط بأيدي الريح من باردِ العذبِ

* * *

أما أجواء الغوطة فقد حظيت من شعره حظاً وفيراً يتذكرها ويدعو لها بالخير ويذكر مواقعها في سفح قاسيون ومروجها المندّاة عقب الأمطار ورياضها الغناء.

ومن روائع دمشق سهل الزبداني[2] حيث الأشجار المثمرة من تفاح وسواه وحيث المروج الخضراء والجبال المنيفة وحيث المنبع الثرُّ لنهر بردى ورياضه وخمائله..

وهذا الشاعر فتيان الشاغوري (9) يصف حبه للزبداني ووادي بردى، فعند عين الفيجة يبدأ وصفه لتلك المياه المترقرقة الصافية وحواليها الورود والرياحين وفي عبابها الأسماك الجميلة الزاهية وهو عندما يصف بردى تحضر صورة نهر النيل العظيم في مصر وهو في حال فيضانه وكأنه فرع لبردى وهذه مبالغة لطيفة لا تزري بالنيل ولكنها تجلو صورة بردى وبهاءه وأفضاله العظيمة على دمشق فيجعلها تسبح في أبحر وسواحل:

أعِيرا يسارَ الرَّكْبِ لَفْتَةَ ناظرٍ
إلى بَردى والروض ذاتِ الخمائلِ
هنالكما نَهْرٌ يُرى النيلُ عندَه
إذا فاضَ في مصر كبعض
يُخال به النَّيْلوفَرُ الغَضُّ أنْجُماً
سَمَتْ في سماء الماء غيرَ أوافِلِ

---

(2) الزبداني تعني بالفارسية أرض التفاح حيث زيب = سيب= التفاح ودان أرض.

وكم سَمَكٍ فيه عليه جَواشِنٌ
من التِّبْر صِيغَتْ وهو بادي

ويذكر بلدات عديدة منها "مضايا" و"عين بقين" و"سنير" ويتذكر تلك الليالي الحميدة التي نال فيها رغائبه من أحبابه فأسخط عاذله في هاتيك المنازل التي قضى فيها أعذب الأوقات وهي ترتاح على السفوح المطلة على الوادي الأخضر الرحيب والصالحية في دمشق لها نصيب من شعر ابن النقيب حيث يقول:

سقى الله عهدَ الصالحيةِ والصَّرْحِ
وحَيّا زماناً مَرَّ في جانب السَّفحِ
ودَوْحاً نَزلنا تحت فنيانِ قُضْبِهِ
ومستحراتُ الطيرِ موصولةٌ
مواطنُ إطراب ومَرْبَعُ صَبْوةٍ
ومَرْتَعُ غزلانٍ مخصّرةِ الكَشْحِ

فهو يذكر دوحها الفينان وصداح طيورها ومراتع حسناواتها المشْبِهات الغزلان في رشاقتهنّ، بله قصورها الشامخات الشاهقات وحدائقها ورياضها الأنيقات. وابن النقيب ينتقل بين مرابع دمشق وأحيائها معرجاً على مروجها وأشجارها وأنهارها ولا يكتفي بذلك بل يعقد مقارنات بين أنهارها وأنهار أخرى في غيرها من البلدان ومتنزهاتها المشتهرة كشِعب بَوَّانَ ونهر الأُبُلَّة، يقول ابن النقيب:

ما الروض نديانُ الثرى متعطِّراً
والغصن فَيْنانُ الذُّرا متأطرا
حيا دمشقَ فما أرَقَّ نسيمَها
حمَلتْ على الكَرَمِ الطباعَ فآثرا
بلدٌ زَرى بالشِّعبِ موردَ طيبها
وزَهَتْ على نهر الأُبُلَّةِ منظرا
وسقى رياضَ النيربين فكم بها
بمُنىً قَضَيْنا منه حظاً أوفَرا

فهو يفضل دمشق الجميلة وما فيها من قرى ومناظر وأنهار على أجمل بقاع الدنيا كشِعب بلاد فارس الجميل ونهر الأبلة الجميل المتفرع عن دجلة جنوبي العراق.

ولا تحلو الطبيعة الجميلة في نظره إلا باكتمال عناصرها، فلا تكفي الخضرة والأزهار الملوّنة بأريجها ولا بمياهها المترقرقة وأطيارها فقط؛ بل لابدّ من وجود الجميلات الحسناوات ودلالهن وغنجهن، إذ يتابع ابن النقيب وصفه قائلاً:

والربربُ الأنسيُّ يَنْشُرُ عِطْفَهُ
ويُميتُ في الأجفان طَرْفاً
والبانَةُ الرَّيّا يُجَمِّشُها الصَّبا
فتَرى الندى شَذْراً هناك منثّرا
وحمامُها الشادي يغرِّد مُنْشِداً
أدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرى

بالله يا ريحَ الجنائبِ شارِفي
تلكَ الغصونَ وجاذِبيها المئزرا
واستعطفي قُضُبَ الأراكِ وغازِلي
زَهْرَ الرياضِ مورَّداً ومكفَّرا
واستعطفي جَفْنَ البَهارة زاهياً
وتَرَشَّفي ثَغْر الأقاح مؤشّرا
واسترقصي بانَ الهِضاب وراوحِي
تلكَ المعاهدَ بالسلام مُعطَّرا
فلكم قضيتُ بها لبانَةَ وامِقٍ
وصحبتُ فيها للأحبةِ معشرا
فسقتْ مغانيها السواجمُ كلَّما
آنستُ منها في الفؤادِ تَذكُّرا

* * *

فهو لا ينسى أن يفيض من عواطفه وأحاسيسه على هذه الطبيعة ويستبعث الذكريات التي سكنت أعماق قلبه وجوارحه من لقاءات جمعته بأحبابه وآنست روحه، وأطربت ذوقه، فيرى لزاماً عليه أن يخصَّها بدعوات الخير سُقيا لرياضها وسلامة لمرابعها ويتخذ من الأخبار مادة لشعره يوشّيهِ بالمحسنات البديعية ـ على عادة شعراء عصره ـ كأنواع الجناس والتّورية فتلوح أمام الناظر صورة الغوطة الجميلة وتلامس مسامعه ألحان الطيور المغردة.

يقول ابن النقيب الشاعر الدمشقي:

حَفَّتْ بوادي الغوطةِ
الغَنَّاءِ أطيارَ شهودْ
لو ساجَلَتْها القَيْنتا
نِ لما صغَى لهما يزِيدْ[3]
وسما على بردى ويا
ناسٍ وثَوراها يزيدْ
وأتى الربيعُ كأنما
وافتْ على يده تَزِيدْ[4]
تُنشي بُرودَ أزاهرٍ
أبداً محاسنُها تَزِيدْ

* * *

والتلاعب بألفاظ التورية تحسّن الأبيات، ودمشق فيها شواهدها العمرانية العظيمة كالجامع الأموي الذي يتحدث عنه أبو البقاء عبد الله البدري (7) قائلاً:

يا جامعاً في دمشق
في حسنه قد تفرَّدْ
لم تُطرب الناسَ طُرَّاً

[3] المراد بالقنيتين: حبّابة وسلاّمة جاريتا الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بن مروان، المعروف بالناقص، وفي اسمه تورية بنهر (يزيد)

[4] تزيد: قبيلة عربية.

إلا لأنك مَعْبَد[5]

* * *

وأما ذلك المصطاف الجميل الوديع المستلقي على ضفتي بردى في قرية عين الفيجة بأشجاره السامقة من أسفل الوادي إلى عنان الفضاء بين سلسلتي الجبال المشرفتين على مجموعة القرى المتناثرة على جنبات هذا الوادي.. وادي بردى. وقد وصفها ابن النقيب أكثر من مرّة مركزاً على عين الماء الفياضة فحيناً يقول:

إن للفيجةِ الفريدةِ عَيْناً

فوقَها ما تحارُ فيه

ثم للقراصيا مَثَّلْتُها

في صفاها كأنه مبثوثُ

وهي كنزٌ من اللُّجين وما أحْـ

ـن كنزاً حَصْباؤه الياقوتُ

* * *

ومرة ثانية يذكرها قائلاً:

للفيجةِ الغَنَّاءِ عَيْنٌ لم تَزَلْ

فيها تطارِدُنا المُنى

لا نَرعوي فيها لِقَوْلِ مُفَنِّدٍ

ولنا على دَفْعِ المَلامةِ

فالكنزُ يُطْلَبُ بالعناءِ وهذه

كنزٌ تَسَيَّلُ مِنْ لجينٍ باردُ

ولا يكتفي ابن النقيب بذكر موضع واحد في الغوطة أو ذكر عين الفيجة على ضفاف بردى، بل يرفد ذلك بما يشبه الإحصاء للأماكن الوفيرة في العديد من قصائده. ففي إحداها حيث يصف متنزهات دمشق فيذكر: الفيجة، وبسيمة، والأشرفية، والجديدة، والهامة، ودمر، ودير مَرَّان، والصالحية، والحدائق، وجِلّق، والربوة، والنّيربين، والمرجة، وغير ذلك كثيراً...

حيا دمشقَ فكم فيها لِذي وَطَرٍ

مَنازِهٌ هي ملءُ السمعِ والبَصَرِ

فإن توخَّيْتَ منها طِيبَ مُخْتَبَرِ

وتجتني عنده باكورةَ العُمُرِ

فاعْمَدْ إلى الفيجةِ الفيحاءِ مُرْتَشِفا

بها زُلالَ مَعينٍ رائقٍ خَضِرِ

وانزلْ ببَسيِّمَة الزهراءِ مُنْتَشِقاً

نَسيمها اللَّدْنَ في الآصالِ

واسلُكْ خمائلَ وادي أشرَفِيَّتِها

بظلِّ مشتبكِ الأغصانِ والشجرِ

ثم الْجُديّدَةُ الغَرّاءُ فالوِ بها

[5] فيه تورية باسم (معبد) الموسيقي العربي المشهور.

عِنانَ طَرْفِكَ وانزلْ جانبَ النَّهَرِ

واقصِدْ رُبا الهامةِ الغنّاءِ مُسْتمعاً

شَدْوَ القِيان من الأطيار في

واسرح مدى الطرف من ألفاف

بين الغِياض لدى مستشرفٍ

وفي قصيدة أخرى يصف ابن النقيب ربوة دمشق ويتذكر ربوعها وجوها ونسيمها ولطف العيش فيها وأزهارها وخمائلها، وما كان من آمال النفوس ورغائبها ويشبهها بـ "دارين" المرفأ بجزيرة البحرين المُضَمَّخ بأريج المسك القادم من بلاد الهند لدى عطاريها كما يشبهها بعبق العنبر الفواح في شط الشِّحر على بحر الهند أيضاً ويعرِّج على رياض الغوطتين والجداول تنساب بينها مترقرقة وكأنها رسائل تحمل معاني المودة والمحبة وتنقلها بين الرياحين فتبدي ما استسرَّ بين أزهارها وأغصانها من مكنون الهوى وحُرَقِ الجوى.

كما تتجاوب بين جنباتها رسائل من نوع آخر على ألسنة الحمائم وأنواع الطيور... فيسائلها الشاعر وتجيب في حوار أقرب ما يكون بقصة ظريفة وتبث شكواها وتذكر عهودها مع من أحبت فتُهيج في أغوار الشاعر عهوداً سابقات وفي أعماق قلبه ما استقر وسكن - أو ظنه - إلى حين. وينهي النجوى الحارقة بحكمة عاجلة موجزة وذلك حين يقول:

بَكَرْنا مع الوسميّ رَبْوَةَ جلِّق

به وجَرَيْنا في محاسنها الزُّهْرِ

فَفُزْنا بما تَبْغي النفوسُ من

وما تشتهي الآمالُ من دَوْحِها النَّضْرِ

بداريّة الأنفاس من رَوْضٍ عَبْقَرٍ

تَنَفَّسَ فيها الصُبح من عَنْبر

تداعَتْ لِرَيّاها الخَياشيمُ مثلَما

تداعى سُحَيْرا شاربُ الخمرِ للخمرِ

مسارحُ طَرْفٍ آذنتْ باجتماعنا

لنُرْكِضَ طِرْفَ اللهو في ساحة

بحيثُ رداءُ الْخِصْبِ في جَنَباتها

مُغاضٌ وخَيلُ الارتياحِ بنا تجري

وحيثُ خطيبُ الدَّوْحِ يَشْدُو

بمنطقِ قسٍّ ذي الشقاشِقِ والهَدْرِ(8)

(6) دارية الأنفاس: نسبة إلى دارين، مرفأ جزيرة البحرين، يجلب إليها المسك من الهند قديماً والداري: العطار، والشحر: موضع في جنوب اليمن مشهور بالعنبر.

(7) الطرف الأولى (بفتح فسكون): العين، والطرف الثانية (بكسر فسكون): الكريم من الخيل.

(8) خطيب الدوح: لعل المراد به العندليب أو الحمام. وقس: هو قس بن ساعدة الإيادي، خطيب شهير يضرب بفصاحته المثل، والشقاشق: جمع شقشقة، وهي == شيء بالرئة يخرجه البعير من فمه إذا هاج، ويقال للخطيب الفصيح: هدرت شقشقته.

وحيثُ نسيمُ الغوطتين مضمَّخُ الـ
غَلائِل من أنفاسِ دَارينَ بالبِشْر
فمن روضةٍ غَنَّاءَ تجري خلالَها
جداولُ من نهرٍ يَفيضُ إلى نهرِ
رسائلُ تمشي بالمودة بينهم
وتبدي لهم ما في حشاها من السرِ
ومِنْ غُصُنٍ سالَتْ بأعطافهِ
يُمايِسُ غصناً قد تلفَّع بالزَهْرِ
وفي جانب الوادي حمامةُ أيْكَةٍ
من الوُرق تشكو البَيْن في الوَرَق
تَنوحُ على إثْرِ الهديل صَبابَةً
كما ناحَتِ الْخَنْساءُ يوماً على صخرِ

ولقد نظم الشاعر محمد البزم (8) عدة قصائد جعل عنوانها "دمشق" وواحدة "غوطة دمشق" تحدث فيها عن دمشق وغوطتها ومتنزهاتها بل نظم قصيدة طويلة تعد مئة وستة وأربعين بيتاً جعلها في موضوعات عامة ووضع لها عناوين فرعية وهي تحت عنوان "دمشق" أيضاً يقول فيها مستحضراً من: (ماضيها)

رَفَعَتْ على حَرَمِ الخلودِ بُنودا
ومَضَتْ تُحَلّق في الإباءِ صُعودا
أيامُها غُرَرُ الدُّهورِ وعَصْرُها
تجري بطاعته العُصورُ عَبيدا
ألْقَتْ إليها الأرضُ مِقْوَدَ أهلِها
ورَمَتْ إلى أبطالها الإقليدا
وهَفَتْ لها مُهَجُ الشعوبِ جوانِحا
وعواصِماً وقَبائلاً، وجنودا
كَبَحتْ جماحَ الروم، ما هَجَرتْ كَرىً
والرومُ تصحَبُ ليلَها تَسْهيدا
عَطفتْ على التَّوراةِ مع إنجيلِها
وحَنَتْ على فُرقانِها تأْييدا
وتَسَرْبَلَتْ للدين ثوبَ مُشَمِّرٍ
في اللهِ لا وَكلاً ولا رِعْديدا
وبِلَتْ طواغيتَ الزمان ومارستْ
سَطْوَ الجبابر عادلاً ومُريدا
"فيحاءُ" ما قَصَرَ الصلاةَ مسافرٌ
فيها، ولا خَشُنتْ عليه مُهودا

وأما جمالها فنختار مما قاله فيه:

(جمالها)

رَيْحانةُ الدُّنيا وظِلُّ نَعيمها
من قبلِ مَولدِ يَعرُبٍ وثَمودا
شَقَّتْ فعصفرَها الأصيلُ وزادَها
رَأْدُ الضُّحى بضيائِه توريدا

وحينما يتحدث عن مسجدها الأموي

الذي كان قبلة يتمنى كل قائد وعظيم أن يدخل صرحه فيصلي لله ركعات الشكر على انتصاره فيقول:

(مسجدها الأموي)

مَهوى جِباهِ الفاتِحين ومُلتقى
خَطْوِ المقاوِل غابِراً وشَهيدا
نَسَجَتْ عليه العَبْقَرِيَّةُ سَرْدَها
ثوباً تَحارُ بهِ النُّهى مَقْدودا
غَبَرَتْ على مجدِ العروبةِ والعُلا
مَثَلاً على وجه الزمانِ شَرودا
هالتْ مآذنُهُ الفضاء وحلَّقتْ
عن أن تَرى، غير السماء،
شَمَمٌ تَغَلْغَلَ في عُلاه فأذعَنَتْ
تعنو له أُمُّ النُّجومِ سُجودا

ويفخر بالآباء والأجداد وأخلاقهم منذ القديم أيام بني أمية والذين جرت في عروقهم دماء العروبة الأصيلة النقية وقيم النبل والشهامة يقول:

(أخلاقها)

شمختْ على غَيد الزمان
وَهَوت على هَرَمِ الزمانِ
خِدْر العروبةِ منذُ عهدِ أميةٍ
تُعلي وتُحكِمُ صَرْحها تشييدا
تجري العروبةُ من نفوس
مجرى النفوس تَرائِباً ووَريدا
واللهُ أرأفُ، والقضاءُ قضاؤُه
مِنْ أن تَبيدَ عروبةُ فتبيدا
أخذَتْ على الأيام ألاّ تعتدي
والحادثات، فما صَدقنَ وعودا

ويذكر بني أمية واتخاذهم إياها عاصمة لخلافتهم وزعامة قريش واعتلاءهم مناصب السيادة في الدنيا حين يقول:

(بنو أمية فيها)

أمعاقدَ التيجانِ يَبْهَرُ نورُها
مُقَلَ الشموس جَواهراً وفريدا
ودَّت أباطحُ مكةٍ وصعيدُها
لو كنَّ منكِ أباطِحاً وصعيدا
والوحيُ، لولا حكمةٌ أزليَّةٌ
لطوى إليك سَباسِباً ونهودا
قَذَفتْ إليكِ قُريشُ من أفلاذها
في كل مَطْلِعِ فَرقَدٍ فُرقودا

وأما جيوشها التي جابت أقاصي الدنيا شرقاً وغرباً ونشرت الفضل والخُلُق والعدل والعلم في أصقاع الدنيا فيقول:

(جيوشها)

أمعاقدَ الراياتِ يمْلأُ حشدُها
سمْعَ الزمانِ زَمازِماً ورُعودا

عَلَمٌ بأقصى الشرقِ يُرْشِدُ خطوُه
وأخوه يوسعُ غَربَها تهديدا

فهتَكْتِ عن شمسِ الفضائل
ورفَعْتِ من فَلَقِ العلوم مَجيدا

وبنيْتِ للأخلاق ما زَحَمَ السُّها
وأناءَ من عُليا النجوم كُتودا

شِيَمٌ كما ابتسمتْ أزاهيرُ الرُّبا
للغيثِ من كَبِدِ السماءِ فَصيدا

وأما أبناؤها وشبابها فهم سندها وخير ذخيرة لها وهم المدافعون عن حماها البانون لأمجادها وهم علماؤها يقول:

إنْ راغمتْكِ يَدُ القضاء، وأعملَتْ
فيكِ الحنادِسُ كيدَها المكنودا

فشَبابُكِ الأبرارُ خيرُ ذخيرةٍ
لِقراعهنَّ عزائماً وعَديدا

الواثبون إلى الذياد بَواشقاً
والرابضون ضَراغماً وفُهودا

الراشفون من العُلا رَقراقها
والمنهضونَ بناءَها تمريدا

الصابرون على الأذاة وفرعُهم
فرعُ الأنام أُمومةً وجُدودا

يتوقدون فُتُوَّةً في نَخوةٍ
مُضَرِيةٍ تدعُ البليدَ حَديدا

من كلِّ مُضْطَرِمِ الحشا يَقِظِ الحِجا
غُذِيَ العُروبةَ مُضْغَةً ووليدا

وأما غوطتها فإن الجنة تستمد منها الجمال ففي أعاليها ووديانها وحي ملهم، وعندما يحل الربيع فإنما يلتقي شقيقه فهي كثيرة الجداول والسواقي فيقول

(غوطتها)

سافِرْ بلَحْظِكَ حَيْثُ شِئْتَ فلنْ ترى
إلاَّ عجائبَ توجبُ التوحيدا

أنّى التفَتَّ فجدولٌ مترنمٌ
أو نائحٌ في أيكِهِ تغْريدا

وسواكبٌ ومَواكبٌ وكواكبٌ
تجري النحوس بجوهن سعودا

وثنتْ معاطِفَها الغصونُ فكلُّها
ثمِلٌ يعانِقُ من أخيه مَيُودا

ويعود أدراجه إلى صباه في دمشق يصفها مادحاً جمالها، داعياً لها بأصدق الدعوات مستهدياً لها أرق الأمنيات فيقول:

(رجع إلى دمشق)

أملاعبَ الغِزْلانِ كَمْ مِنْ جُؤْذُرٍ
بِثَراكِ يَخْطر صائداً ومَصيدا
نعمتْ حواشي الدهر فيك وهفهفت
أعطافه فتأودت تأويدا
وحَبَتْكِ كف الدهر أكرمَ ما وشت
كفاه من متع الجمال جديدا
جمعت تحاسين اللحون فكنَّ في
ألحان طيرِك في الغصون
لازالتِ الأيام فيكِ مواسماً
ونهارُ فخرِكِ في الورى
ولواءُ مجدك في العلاء مرفرفٌ
تهفو لرفعته القلوبُ حشودا
يوحي ويوقظ في القرائح والنهى
شعراً يسير مع الزمان أبيدا

* * *

وهو في النهاية يأتي على غاية الوصف البديع وأعمق الحب الرقيق وأظهر الشوق العجيب ويحلق في أعلى الأجواء القدسية السنية في هذه البقاع الدمشقية مُطَوِّفاً بأمجادها، ذاكراً أيامها ومعدداً مناقبها من خلال شعره الصادق فهو يشتاق إليها قائلاً:

سقى اللهُ أياماً بغوطةِ جِلِّقٍ
إلِى أرضِها الميثاءِ مَسْرى
إلى تَلَعاتِ السفحِ من
مدارجِ داري [و] الصِّبا المتأرِّجِ
إلى مَرْجها الموشيِّ غِبَّ
إلى روضها الأحوى الأغنِّ

* * *

وارتجل شاعرنا أبياتاً أوحاها له لهوه في أجواء الأنداء ومرحه بسماع تغريد الأطيار فعادت الذكريات تجدد العهود التي انعقدت بين النفوس المتحابة، والطبيعة الغناء، ويتوّج ذلك كله خاتمة يفتخر فيها بقومه وبنفسه فيقول ابن النقيب:

خَطَرْنا بحُكْمِ اللهوِ للسفح خَطْرَةً
سقاها الحيا من خطرة وسقى
ثَنَيْنا بها نحو البَطالة والصِّبا
عِنان النُهى من حيث لم يعرف
وكلاً رعينا فيه رَوْضاً مُفَوَّفاً
وأوْسَعَنا شادي البكور به صَدْحا
وأهدى لنا ركبُ النسيمِ لَطائماً
من النَّشْرِ لا ينفكُّ ينفحُها نَفْحا
ونحن - بني الآداب - من خير
يودُّ المعلّى لو يكونُ لهم قِدْحا

وما القصدُ إلاَّ ذكرُ أيامنا التي
مَرَحْنا بحكم اللهو في ظلها مَرْحا

* * *

ويرسم صوراً رائعة للسماء الهابطة إلى الروابي والوادي مُزَيِّنَةً مياه النهر بمشاعل تتلألأ صحبة أزهار النيلوفر البديعة الطافية على صدر المياه الجارية ثم يقول:

إذا قابلَ النهرُ الدجى بنجومِهِ
أرانا بقَعرِ الماءِ ضوءَ المَشاعلِ
يُغَلْغِلُ في الوادي فوافى كفيَّةً
منعَّمةً حَسناءَ ليست بعاطِلِ
فعانقها حتى انْثَنَتْ مُشْمَعِلَّةً
تَفُكُّ على ظهر الصفا بَطْنَ حامِلِ
فأولَدَ عينَ الفِيجةِ الأنهرَ التي
دمشقُ بها في أبْحُرٍ وسواحِلِ
ألا إنَّ في الوادي ظباءً جُفونُها
بها كحَلٌ أزرى بما في المكاحل

وعندما يصل إلى الزبداني تتوارد على خاطره أسماء جديدة متوالية وكأنه يقرأ الصُّوَى فهنا "كفر عامر" العامر بالمناهل وثمة "عين حور" المزدحمة بِحُورِ العيون الفتاكة اللواحظ ثم تأتي "الدَّلَّةُ" البهيجة الحُسن البديعة المناظر. وأما "دير قبيس" فحيث يطيب المأكل والمشرب. ويدعونا الشاعر لزيارة بلودان المنيفة في أعلى الجبل حيث المناظر الأخاذة والهواء العليل.. ثم يعود القهقرى إلى أفياء أشجار دمر وإلى مغاني الجديدة ومناهله العذبة. إن هذه القصيدة أشبه برحلة خيالية دافقة الصور دافئة العواطف تتزاحم فيها تداعيات الأفكار والذكريات في الأماكن وتتدافع الأحداث والملذات في ذهن الشاعر وذاكرته المتحفزة وفي لا وعيه الكامن المحتفظ بشريط طويل لا ينتهي من الصور والأخيلة.. يتابع قوله (الحوافل)

وبالزبداني زُبدةُ العيش جاءني
بها المحضُ من مَحْضِ الضروع
وما زالَ رَبعُ الأُنس من كفرِ
يُرى عامرَ الأرجاءِ عَذْبَ المناهِلِ
وفي عَيْنِ حُوْر حورُ عَيْنٍ فواتِكُ
حاظِ فصاحُ اللفظ خُرْسُ الخلاخلِ
وبالدلَّة الحسنُ البديع مخيمٌ
له أثرٌ فيها قويُّ الدلائلِ[9]
وديرُ قُبيس جَنَّةٌ أيُّ جَنَّةٍ
مشاربُها مشفوعةٌ بالمآكلِ
وزورا بَلودانَ المنيفةَ تظْفرا

---

[9] الدلة: موضع.

بِعَيْشٍ هنيءٍ رَبْعُهُ غير ماحلِ

أحِنُّ إلى أفْياء أسْحارِ دُمَّرٍ

وأصبو إلى الظلِّ الظَّليلِ بآبُلِ

ويا حَبْذا تلك الجديدةُ التي

مرابعُها معمورةً بالمناهِلِ

مرابعُ قد ألقى الربيع جِرانه

بها مقْسماً أنْ ليس عنها براحِلِ

ولا يفوت الأستاذ المصري رحمه الله أن يستحضر شعراً للشاعر الكبير الأخطل الصغير بشارة الخوري (10) فيختار من شعره قصائد وأبياتاً جميلة فواحدة بعنوان "ضفاف بردى" يتذكر فيها طفولته ولهوه البريء فلا يثير حسداً ولا يقضي لُبانة. ويذكر زياراته لنهر بردى فيسائله عن الذكريات الماضية وعن ضفافه وآثار عبثه ولعبه على الأغصان والجذوع، والشاعر قد تجاوز مراحل من العمر مَديدةً وبدت على محيّاه مخايل الوهن وشحوب الشيخوخة فيبكي النهرُ ويرثي لحال الشاعر.. وتشارف المناجاة وتنفضح مشاعر الحب وينهي القصيدة بتأكيد الحب المتعمق في جوانحه وقلبه لهذه الجنة الوردية.. الشام الأثيرة.. دمشق الشام يقول:

سلْ عن قديمِ هوايَ هذا الوادي

هَلْ كان يَخْفُقُ فيه غيرُ فؤادي

عهْدَ الطفولةِ في الهوى كم ليلَةٍ

مَرَّت لنا ذهبيةَ الأبرادِ

إذْ نحن أهْوَنُ أن نُحركَ ساكناً

في حاسدٍ أو غُلةً في صادِ

غِرّان نَمْرَحُ في الهوى وفتونهِ

وعلى خدودِ الورد والأجيادِ

ونُحِسُّ بالبين المشتِّ فلا نرى

غيرَ العِناقِ على النوى مِنْ زادِ

متواثبيْن كطائرَين تشابكا

وتضاربَ المنقادُ بالمنقادِ

* * *

أنا مذ أتيتُ النهرَ آخرَ ليْلَةٍ

كانت لنا ذكَّرْتُه إنشادي

وسألتُه عن ضِفَّتيه: ألم يَزَلْ

لي فيهما أرجوحتي ووِسادي

فبكى ليَ النهرُ الْحَنونُ توجُّعاً

لما رأى هذا الشحوبَ البادي

تلك العَشيَّةُ ما تُزايل خاطري

في سَفْح دُمَّرَ والضفافُ هوادي

شفَّافةُ اللَّمحاتِ نيِّرةُ الرُّؤى

رَيّا الهوى أزليةُ الميلادِ

هيَ كُنْهُ إحساسي ورُوحُ
ومَطافُ أحلامي ورُكنُ وِدادي

* * *

بَرَدى هل الْخُلْدُ الذي وُعِدوا به
إلاَّكَ بين شَوادِنٍ وشوادي
قالوا: تُحبُّ الشامَ؟ قلت:
مَقْصوصةٌ فيها وقلتُ: فؤادي

* * *

والأخطل الصغير لا يذكر بردى إلاَّ ويذكر معه النيل وسرعان ما يستلهم التاريخ ليسعفه بالأحداث وبشخصيات العظماء والفاتحين المحررين فها هو يقول:

يا مصرُ ما نظمَ الجهادُ قصيدةً
إلا استهلَّ بذكركِ الفوَاحِ
بردى شقيقُ النيل منذ أُميَّةٍ
جُمعا على الأفراح والأتراحِ
نسبٌ كخدِّ الورد في شفَةَ الضحى
يختالُ بين العاصِ[10]

فهو لا ينسى عرى المحبة والوئام والوحدة والانسجام بين مصر والشام فيجعل من بردى والنيل شقيقين ينتمي شعباهما إلى أرومة المجد والفخار. ومن وراء البحار والمحيطات ومن خلف القارات البعيدة، حيث يعيش أبناء العروبة في بلاد الغربة وأصقاع المهاجر الأمريكية وقلوبهم في أرض الوطن عند الأحباب ومع الأحداث، وعيونهم ترفُّ تلقاء مسقط الرأس ومهوى الأفئدة.. وهذا الشاعر جرج صيدح (11) يستنهض ذكريات الصِّبا في دمشق، فلا تغادره ومضة أو تفارقه لحظة أو تغيب عنه رمشة، فإذا دلف إلى النوم واستغرق فيه عاودته الذكريات أحلاماً مُلِحَّة لتنهض ثانية وثابة إلى حيث مُغْتَرَبُهُ، وتأخذ صورُ دمشق تتسارع متلاحقة بما فيها من آثار مميزة وما فيها من حقول وأنهار وضفاف، ويبوح بأسرار حبه وعشقه فيقول فيها - وقد وردت بعنوان "بردى" في ديوانه (حكاية مغترب) ص: 137 - 142 ونظمها في مدينة كاراكاس عاصمة جمهورية فنزويلا سنة 1947م.

حَلُمْتُ أني قريبٌ منكَ يا بَردى
أبُلُّ قلبي كما بَلَّ الهَشيمَ نَدى
ونُصْبَ عَيْنَي من البلدانِ أَبْدَعُها
سبحانَ مَنْ أبدعَ السُّكانَ والبَلَدا
دمشقُ أعرفتُها بالقُبة ارتفعتْ
بالْمَرْجَةِ انبسطتْ بالشاطئ ابْتَردا

(10) فالعاص: هو الصحابي الجليل عمرو بن العاص فاتح مصر المتوفى سنة 43 هـ/644م. والجراح: هو الصحابي الجليل أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح فاتح دمشق المتوفى سنة 18 هـ/639م.

بالطِّيْبِ يَعْبَقُ في الوادي وأطيبُه
في تربة الأرضِ غَذَاها دَمُ الشُّهَدا
فأنثني وربيعُ العمر عاودَني
كانني لم أُضِعْهُ بالنزوحِ سُدى
يا مَوْرِدَ الغوطة الفيحاءِ ما[11]
بالأَطْيَبَيْن وما ضاقت بمن
أهْواكَ في يقظتي، أهواكَ في
أهواك مقترباً، أهواك مبتعداً

ويذكر بعد ذلك فروع بردى وأشواقه لورودها والنهل من مياهها العذبة

قسمتَ كفَّك حُبّاً بالقطينِ إل[12]
أصابعٍ سَبْعةٍ فاضَتْ عليه
ملأتُ منكَ يدي بعد امتلاءِ فمي
ولو قَدَرْتُ ملأتُ الصدرَ والكَبِدا
حتى أقولَ لدهرٍ سامني ظَمَأ
في غُربتي لن تراني ظامئاً أبدا
يا نهرُ أثلجتَ صدري
بالقربِ من بعدِ هجري
آمنتُ أنَّكَ نهري

ولا يستمر الحلم إذ سرعان ما يوقظه صياح الديك فتتلاشى تلك الرؤى والصور ليجد نفسه بعيداً في بلاد غريبة لا شيء فيها من جمال بلده فيقول:

حلمُ الليالي صياحُ الدِّيْكِ نفَّرَهُ
فلا دمشقُ ترى عيني ولا بَردى
أفقتُ لم أجدِ الأنهارَ راقصةً
والدوحُ مُصْطَفِقاً والعندليبَ شدا
ما في يدي من أثرُ الماءِ الزُّلالِ ولا
فمي ترَطَّبَ بالسلسالِ منه صدَى
ولا الجنائنُ بالأثمارِ عامرةً
وبالصحابِ كأزهارِ الرُّبا عَدَدا
أصبحتُ كالنَّسْرِ مهصورَ الجناحِ رأتْ
عيناه ما قرّفَ الْجُرح الذي ضُمِدا
أخفى عن السَّرب تحت الريش قرْحَتَهُ
فظنَّهُ السِّربُ في التحليق قد زهِدا
حولي حُطامٌ يَعاف العَيشَ مالكُهُ
إذْ لا يُرَفِّه نفساً منه أو جسَدا
وموطنٌ مُنْكَرٌ سادتْ زعانفُهُ
فيه الرَّطانةُ فُصحى والضلالُ
والصَّحْب كُثرٌ إذا قَرَّبْتَهم ثَلَجتْ
بطونُهم وغَلَتْ أكبادُهم حَسَدا

ويصف تلك البلاد التي غلبت على

(11) الأطيبان: التمر واللبن، والأكل والنكاح، والنوم والنكاح، أنظر المثنى ص 30.
(12) القطين: جمع قاطن، وهو المقيم المتوطن.

بيئتها رطانة وضلالة وتغيرت أخلاقهم وتبدَّلت حقداً وغلاً وحسداً. ولكن ماذا أقول غير أني أستر عيوبهم:

آلى عليَّ وفائي سترَ عوْرَتِهِمْ
فما بَنو وطني مهما اعْتَدَوا بُعَدا
ما لِيٍ احتملتُ سنينَ البَيْنَ
واليومَ لا صَبْرَ لي فيها ولا جَلَدا
ضَمَمْتُ طيفَ الأماني حين زارَ
يترك على الصدر إلاَّ الهمَّ والكَمَدا

وبعد أن يكون في العودة إلى الوطن دواء وعلاج، لا يظن ذلك ممكناً ويرى حالته شبيهة بحال الطير الذي ضُرِبت عليه حياة الشقاء فيقول:

إن أفلتَ الطيرُ من أسْرٍ فعَوْدَتُهُ
أقْسى عليه من الأسْر الذي عَهِدا
والبرقُ تؤذي حَسيرَ الطَّرْفِ
لولاهُ ما اذَّكَر النُّورَ الذي فَقَدا
بِئْسَ الحياةُ حياةً لا نعيمَ بها
إلا لِمُسْتَرِقٍ من نومه الرَّغَدا
إنْ كان ورِدُكَ آلاً واللِّقا حُلُماً
يا دهرُ دعني غريباً ظامئاً أبَدا
يا نهرُ مأساةُ عمري
عادتْ ومازلتْ تجري
ما أنت يا نهر نهري

* * *

ويهتم الشاعر لأحداث عام 1945 (خمس وأربعين وتسع مئة وألف) عندما قصف الفرنسيون دمشق بالمدافع فينظم قصيدته "دمشق الجريحة" المنشورة في ديوانه (حكاية مغترب) وقد أنشدها في اجتماع عقده أبناء الجاليات العربية في كاراكاس عاصمة فنزويلا يقول فيها:

هتكوا الستر وهمُّوا بالضحيَّهْ
أكذا يُسْتامُ عرشُ الهاشميَّهْ
إنها تأبى وتأبى البشريَّهْ
أن نراها للفرنسي مطيَّهْ
جنة الدنيا أأقريكِ السلاما
وعلى الغوطة نار تترامى
صيَّرت أروقة العز رغاما
وجرى في بردى دمع اليتامى
ليت شعري يا دعاة المدنيَّهْ
ما الذي أبقيتمُ للهمجيَّهْ

وعندما يذكر الشعراء دمشق وغوطتها وضواحيها وأحياءها فإنهم يباهون برجالها وعلمائها وعبادها إضافة إلى أماكنها وأنهارها وطيورها وهذا المقري يقول:

أما دمشق فخضْرَةٌ
لعبتْ بألبابِ الخلائقْ
هي بهجةُ الدنيا التي
منه بديعُ الحسنِ رائقْ
لله منها الصالحيَّـ
ـةُ فاخَرَتْ بذوي الحقائقْ
والغوطةُ الغناءُ حيَّت
بالورود وبالشقائقْ

ولا يقصر الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري عن تبادل الحب مع دمشق وحُرق الشوق تلتهب في أعماقه، والهوى متمكن بينها وبين صنوها وأختها بغداد، وعهدهما القديم واحد مسيرة التاريخ عبر عصوره الماضية

قال محمد مهدي الجواهري في مطلع قصيدة بعنوان (دمشق يا جبهة المجد)[13]

شممْتُ تربكِ لا زُلفى ولا ملَقا
وسِرْتُ قَصْدَكِ لا خبّاً ولا مَذِقا[14]
وما وَجدتُ إلى لُقياكِ مُنْعطفاً
إلا إليكِ، ولا ألْفيْتُ مُفترقا
كنتِ الطريقَ إلى هاوٍ تُنازِعهُ
نَفْسٌ تَسُدُّ عليه دونَها الطُّرُقا
وكانَ قلبي إلى رُؤْياكِ با صِرَتي
حتى اتَّهَمْتُ عليكِ العينَ والحدَقا
شَمَمْتُ تُرْبَكِ أسْتافُ[15] الصِّبا مَرِحاً
والشَّملَ مؤْتَلِفاً، والعِقْدَ مُؤْتَلِقا
وسِرْتُ قَصْدَكِ لا كالمشتهي بَلَداً
لكنْ كَمَنْ يتشَهَّى وَجْهَ مَنْ عَشقا
قالوا: دمشقُ وبغدادٌ فقلتُ: هما
فَجْرٌ على الغَدِ من أمسيهما انْبَثَقا
يا جلَّقَ الشامِ والأعوامُ تجمع لي
سَبْعاً وسبعين ما الْتاما ولا افْترقا
آهٍ على الحُلوِ في مُرٍّ نَغَصُّ بهِ
تَفَطّرا عَسَلاً في السُّمِّ واصْطَفَقا
يا جلَّقَ الشامِ إنّا خِلْقةٌ عَجَبٌ
لم يَدْرِ ما سِرُّها إلا الذي خَلَقا
إنا لنَخْنُقُ في الأضلاع غُرْبَتنا
وإنْ تَنَزَّت على أحداقِنا حُرقا
معذَّبونَ وجنّاتُ النعيمِ بنا
وعاطِشونَ ونَمْري الْجَوْنَةَ الغَل

[13] هذه القصيدة في ديوانه جـ 3 ص 321 وأنشدها الشاعر في حفل أقامته وزارة الثقافة بدمشق 1978م.

[14] الخبّ: المخادع، والمذق: من لا يخلص الود.

[15] أستاف: أشم.

وزاحِفونَ بأجسامٍ نَوابِضُها
تُسْتام ذِروةَ علّيِّينَ مُرْتَفَقا
نُغْني الحياةَ ونستغني كأنَّ لنا
رَأْدَ الضُّحى غَلَّةً والصُّبحَ والفلقا
يا جلَّقَ الشامِ كم من مَطْمَحٍ خَلَسٍ
لِلْمَرْءِ في غَفْلَةٍ من دَهْرِهِ سرَقا
وآخرٍ سُلَّ من أنيابِ ذي لبَدٍ
وآخرَ تحت أقدامٍ له سُحقا
دِمشقُ عِشْتُكِ رَيْعاناً وخافِقةً
ولمَّةً والعيونَ السودَ والأرقا
وها أنا، ويَدي جِلْدٌ، وسالِفَتي
ثَلْجٌ، ووجهي عظْمٌ كادَ أو عُرَقا
وأنتِ لم تبرحي في النَّفسِ عالقةٌ
دمي ولحميَ والأنفاسَ والرمقا
فخراً دمشقُ تقاسمنا مراهقةً
واليومُ نقتسمُ الآلامَ والرَّهقا

والجواهري يذكر بالفخار ابن الشام وقائدها الرئيس المجاهد حافظ الأسد رحمه الله وغفر له

وهذا شقيقه الشاعر العراقي معروف الرصافي (13) الذي وقف يبكي دمشق وما عانته من عدوان فرنسي غاشم ومنذ سنوات الانتداب الفرنسي الأولى.

وقد أقيمت حفلة في بغداد لجمع الإعانات لمنكوبي سورية سنة 1926 ألقى فيها الشاعر قصيدة بعنوان: (دمشق تندب أهلها

بَكتْ في ظلامِ الليلِ تندبُ أهلها
بصوتٍ له الصخرُ الأَصَمُّ يلينُ
وباتَتْ وقد جَلَّ المُصابُ حزينةً
لها في ضواحي الغوطتين أنينُ
ومنْ بعدِ وهْنٍ أشرَقَ البدرُ طالعاً
فأسْفَر منها عارِضٌ وجَبينُ
فأبصرتُ منها الوجهَ أزهرَ مُشْرِقاً
بَخَدَّيْهِ سِرٌّ للجمال مَصونُ
فتاةٌ جَثَتْ في الأرضِ تبكي
صَريعٌ على وجه الثَّرى وطَعينُ
وما أَنْسَ لا أَنْسَ العشيةَ أنَّها
تَوَرَّمَ منها بالبكاءِ جُفونُ
وأنَّ غزيرَ الدَّمعِ خَدَّدَ خَدَّها
فلاحَتْ من الأشجانِ فيه فنونُ
وقلتُ لها: من أنتِ رُحماكِ إنني
لكِ اليومَ خلٌّ صادقٌ وأمينُ
فقالتْ وقد ألْقتْ عليَّ بنظرةٍ
عن القصدِ فيها مُعْربٌ ومُبينُ
أنا البلدةُ الثَّكْلى دمشقُ ابنةُ

أما أنتَ في مغنى دمشق قطينُ
ألمْ ترَ أبنائي يُساقون للردى
فمنهمْ قتيلٌ بالظُّبا وسجينُ
فأين أباةُ الضيمِ من آلِ يعربٍ
ألم يأتِ منهم ناصرٌ ومعينُ؟
سنُدْرِكُ فيكِ الثأرَ منْ أنفسِ العِدا
ونُوقد نارَ الحرب وهي زَبون
فهذي دمشقٌ يا كرامُ وهذه
أحاديثُ عنها كلُّهُنَّ شُجونُ

وعودة إلى الشيخ عبد الغني النابلسي (14) الذي خص دمشق بجُلِّ شعره، فيُطلُّ علينا من أجوائه العلوية في ربوعها

قال الشيخ عبد الغني النابلسي:

إنْ سامَكَ الخَطْبُ المَهُولُ فأقْلقا
انزِلْ بأرضِ الشامِ وانْزلْ جِلِّقا
تجِدِ المرامَ بها وكلَّ مناكَ بلْ
وتَرى بها عِزّاً وتفْصُحُ مَنْطِقا
بَلَدٌ سَمَتْ بين البلاد محاسناً
ونَمَتْ بَهاءً واسْتَزادَتْ رَوْنَقا
لا ينبغي حَثُّ الركابِ لغَيْرِها
هامَ الفؤادُ بِحُسنها فتعلّقا
حَسْبي (وآويناهما) فضلاً لها
قد جاء في القرآن ذاكَ محقَّقا
هي صَفْوَةُ الدنيا وشائعُ فَضْلِها
بالقدس والحَرمين أضحى
زادَ السرورُ بها لكل مُعرِّجٍ
لاسيَّما إنْ كان من أهل التقى
خيرُ الأُناس أُناسها يرعونَ أنْـ
ـواعَ الوداد ويحفظون الموثقا
هي جنةٌ للطائعين مُعَدَّةٌ
يتمتعون ولا يرونَ بها شقا

وهذا أنور العطار (15) في أرجوزته (المدينة المسحورة ـ دمشق) وفيها يقول:

زنبقةَ الصحراء
يا فتنةَ الوجودِ
نَشَرْتِ في الفضاءِ
روائحَ الخلودِ
وَشْوَشْتِ في الأسماعِ
قصائدَ البقاءِ
من أطيبِ الأسْجاعِ
وأسْلَسِ الغناءِ
سَرَيْتِ في الأفكارِ
روحاً يفيضُ عطْفا
وغِبْتِ في الأنظارِ

طَيْفاً يذوبُ لُطْفا
غوطَتُكِ المِفْتانُ
ما إنْ لها مَثيلُ
سماؤُها الألحانُ
وأرضُها الحقولُ
وبَرداكِ الطُّهُر
ينسابُ في الوِهادِ
نايٌ بَراه السُّكْرُ
يَفْتَنَّ بالإنشادِ
وقاسيونُ لاحا
وأنتِ بين سُوحِهِ
مُتْرَعَةً مَراحا
تَلعب في سُفوحِهِ
كملكٍ ينامُ
وسَفْحُهُ وسادَهُ
عاشَ لها السلامُ
وما اشتهاهُ عادَهُ

ومن المتنزهات الجميلة الوارفة الظلال الرقراقة المياه المتدفقة الينابيع عين سموها "عين منين" قال بعضهم فيها:

ألا لله عين في مَنين
لها ماء يشقيك بالخرير
وقد جر النسيم ذيول نشرٍ
لنا منه مَحدّث عن جرير

ولا تخفى المحسنات البديعية والبيانية فالتورية مثلاً في قوله: فحدث عن جرير. وهو اسم علم غير مقصود وإنما المقصود ذيول النشر المجرورة.

وأما المعاهد والأتراب فإنها أشهى ما يتشوق إليها الشاعر بن عنين (16) الدمشقي فها هو ينشد لدمشق:

لطيفكمُ عندي يدٌ لا أضيعُها
سأشكرها شكر الرياض يد القَطر
بأرض يحار الركب في فَلَواتها
على أن هادي القوم فيها القطا
فسائر أيّامي لديكم مواسم
وكل الليالي عندكم ليلة القدر

فجلّ أيامه في دمشق أعياد ومباهج وكل لياليه ليلة القدر المباركة ولا تخفى ثقافة الشاعر الفلكية.. يقول ابن عنين متشوقاً إلى دمشق:

ألا ليت شعري هل تبيتُ مُغِذَّةً
ركابيَ ما بين النعائم والنسر
وترتع في روض الحمى في
أُريتُ بها الفرعين في مطفئ
ولازمها سعد السعود وصحْبُهُ

إلى أن تلاقى الضب والنون في

فإنه يحن إلى دمشق وهو بعيد عنها تفصله عنها منازل القمر من نعائم والنسر وهو كوكب بل هما اثنان النسر الواقع والنسر الطائر. والفرغان أي فرغا الدلو وهما كوكبان مطفئ الجمر وهو سادس أيام العجوز وسعد السعود من منازل القمر والنون الحوت.

والشيخ عبد الغني النابلسي يصف مجالس الأنس في المرجة ذات الشرفين ويذكر رياض الشام قائلاً:

يا رياضِ الشامِ لُطْفٌ وصِبا
وسُرورٌ طاردٌ لِلْحَزَنِ
وبِصَفوٍ منْ لها قد وَصَفا
صادقٌ في وصفه لم يَمِنِ
حبَّذا المرجةُ ذاتُ الشَّرَفيْنْ
صادتِ الناسَ بصَدْرِ البازِ
حيثُ فيها النهرُ زاهي الطرفينْ
وهو يجري بِسِواها هازِي

ومن الشعراء الذين أسهبوا في وصف دمشق ومتنزهاتها وأنهارها وتفرعاتها وأوديتها: ابن الراعي، محمد بن مصطفى ابن جنداوردي (17) في قصيدة مطولة تقارب المئتين من الأبيات:

الحمدُ لله مُفيضِ النّعَمِ
مُولِ لمن شاءَ صنوفَ الكَرَمِ
مكَوِّنِ الأكوانِ بالإتقانِ
صُنعَ حكيمٍ مبدعٍ مِتْقانِ
مشيئةً قد شاءَها الرحمنُ
بكفِّهِ الإعطاءُ والحِرْمانُ

* * *

هذي دمشقُ الشام دارُ اللهو
فاسند حديثي عن رباها وارْوِ
حاكَتْ جِنانَ الخُلْدِ عند العَرْضِ
بل قيلَ عنها جنةٌ في الأرضِ
بل شامةُ الدنيا وعينُ المُلْكِ
وتعرفُ الدينارَ عند السَّبْكِ
هاكَ استمعْ مني حديثَ الشامِ
دارِ التصابي والنعيمِ السامي
قد خَصَّها الرحمنُ بالأنهارِ
وطَيِّبِ الأرواحِ والأزهارِ
وخصَّها المولى بذاك الجبلِ
وقلَّ أن يخلو مكانٌ من وَلي
فكم نبيٍّ ضَمّه قَسْيونُ
وكم وليٍّ عنده مدْفون
وكم صَحابيٍّ بها استُشْهدا

وفي خبايا أرضها قد لُحِدا

كذا (الحواكيرُ) التي ينسابُ

فيها (يزيد) السَّلْسَلُ المطيابُ

بالصالحية سُمِّيتْ يا صاحِ

بل منتدى اللذاتِ والأفراحِ

فلو تَرى الرَّيْحان بين الآسِ

وأصْفَرَ الْخَيريِّ كالنِّبْراسِ

كذلكَ المنثورُ والسَّوْسانُ

وعنده خشخاشه ألوانُ

للياسمينِ الغضِّ عطْرٌ زاكي

يحكي ضياءَ الزهرِ في الأفلاكِ

وعنده النَّسْرينُ ثم الفاغِيه

قد أشبها في الطيب نفح الغاليه

شقائق النعمان في الأزهارِ

كَجُلنارِ فاحَ في الأسحارِ

ونَرْجِسٌ بالطَّل عَيْنٌ سَكْرى

باتت تُناجينا بعَيْنٍ سَهرا

وغايةُ الآمال زهرُ الْمُضْعَفِ

وفِعْلُهُ في الروض فعل القرقف

وأطيبُ الأزهارِ بعد الوَرْدِ

زَهْرُ القرنفلِ عِطْرُهُ كالنَّدِ

فهو يعدد عشرات الأسماء لأنواع الزهور والورود والرياحين ثم يتناول

(ذكر متنزهاتها)

وانظر إلى السهمين والميطور

تراها جناتٍ بلا محظورِ

والنيربُ الأعلى محلُّ الأنْسِ

كذلك الأدنى حياةُ النفسِ

محاسنُ الدنيا رياضُ الغوطه

لما غَدَت في حُسْنها مَغبوطهْ

تَشُقُّها الأنهارُ والخُلْجانُ

وكلُّ نهرٍ منهم سيحانُ

فأين منها الشِّعْبُ يا بَوّانُ

وما حوى الخابورُ والمَيْدانُ

وهذا جانب مما ورد من المتنزهات وغيض من فيض ثم تناول

(تفصيل أنهارها)

أولُها أصلُ النهور بَرَدى

كم شوق مَحرورٍ لديه بَرَدا

وعند ثَوْراها يثور الوجدُ

غذاؤه القيصومُ ثُم الرنْدُ

كذا يزيدُ أطْيَبُ الأنهارِ

إذْ جرْيُه داخل الأحجارِ

وصِنْوُه في فِعْله بانياسُ..
نَهْرٌ زها في حشنه يا ناسُ
يتلوه نهرٌ اسمُه الداراني
يمشي كمشي الوالهِ الحيرانِ
وجدولٌ سُمِّي قناةَ المزَّهْ
مقامُه فيها مقامُ العِزَّهْ

ثم يفصل الحديث حول الفروع مثل

(الذي ينقسم من نهري المنيحي والداعياني)

الجامعي نهرٌ به قد عُرِفا
وراقَ حُسْناً ماؤُه فوْقَ الصفا
وجدولٌ يُسمى بنهر البيره
يا حُسْنَ روضاتٍ به مَعْموره
وجدولُ المزّازِ ثم الشقِّ
غَنَّتْ عليهم صادحاتُ الوُرْقِ

ومثل

(الذي ينقسم من الداراني)

أمّا الذي قَسَمْتَهُ يا دارا
يا مَنْ تخيرتَ الفيافي دارا
نهرُ العرا والذيب والشَّراكِ
كذاكَ نهرُ الميلقونِ الزاكي
إذ كلُّهم في دَوْحَةٍ معطارِ
وجدولُ الأشعاب نهرٌ طامي
يخدُّ وجهَ الأرضِ كالصمصامَ

و(الذي ينقسم من قنوات)

وقُسِّمَتْ قَنَواتُ يا مسرورُ
نَهْرُ القَصَيْرِ حظُّه التصغيرُ

ومثل (الذي ينقسم من تورا)

ونهرُ تَوْرا قَسَموهُ فاسْمَعِ
نَظْماً حلا في الذِّهن ثم

ومثل (الذي ينقسم من يزيد)

ومِنْ يزيدَ جَدْولُ الشَّجَرِيّة
ونَهْر مَهدي فُرْقَةً فِضّية

* * *

فهذه الأصولُ بالأقسامِ
وكلُّها تجري على الدوامِ
مواهبُ اللهِ العليِّ الأعلى
نالَتْها جِلِّقُنا فكانتْ أهلا

كما يتناول: (ذكر أوديتها)

ولنشرعِ الآنَ بذكرِ الأوديه
اللاتي لأمراِض القلوبِ أدويه

بالطيب يحكي جَوْنَةَ العطّارِ
أوَّلُهم يا صاحِ وادي بَردى
وادٍ ترى للأنسِ فيه مَدَدا
وادي المكرم عنْدَه كيوانُ
كلاهما في حُسْنه غُمدانُ
وادي السفرجل منظرٌ فَتانُ
أنـهارَهُ في وسطه غُدْرانُ
وادي الحصى صديقُ الروحِ
كم ذا يُغَنِّي طيرَه للدَّوْحِ
وأشرفُ الوديانِ وادي بَرْزَه
فيه بقاعُ الفضلِ حتى أرْزَه
لِحِزْنَةِ الوادي ووادي معْرَبا
كلاهما عن حُسْنِهِ قد أعْرَبا
وادي التلِّ الرفيعُ القدرِ
يصوغُ بِشْراً من عبير الزهرِ
وادي مَنينٍ أنضرُ الوِديانِ
أطيارهُ تشدو على العيدانِ
ووادي حَلْبون سقاه القَطْرُ
على غناءِ الطيرِ فاحَ العِطْرُ
ووادي الْخضْرا مَحَطُّ الرحل
كم ذا شددنا نحوه مِنْ رَحْلِ

ومما شداه أيضاً: (ذكر الأعين)

ونُتَبعُ الذكرى بذكر الأعينِ
وقاها ربُّ الشامِ شرَّ الأعينِ
أشْهَرُها في الْحُسنِ عَيْنُ
تفوقُ بالمنثور نثرَ الصاحبِ
وفي صَفا الراووقِ عينُ الخَضْرا
ماءٌ كَذُوب الدُّرِّ حاز الفخرا

ويختم حديثه عن دمشق بقوله

وبلدةُ المختارِ عينُ الْمُلكِ
حامي حمى الإسلام مُنْهي الشركِ
قد صَحَّتِ الأقوالُ عند السُّنَّة
في أنَّ فيها من رياض الجَنَّة
هَواطِلُ الرِّضوانِ فيها تَهْمي
وبالرضا والعفو أرجو ختمي

هذه الأرجوزة فرغ ناظمها من نظمها سنة 1171 هـ/1757م ونشرها الدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ المجلد 27 لسنة 1952م ص 237 ـ 239 نقلاً من مطلع كتاب (البريق المتألق في محاسن جلق) لابن الراعي أيضاً. وعلق مجمع اللغة العربية في أول حاشية لها بما يلي: "كان يود المجمع أن تنشر هذه الأرجوزة مصححة العبارة (لأن في بعض عباراتها غموضاً وخططاً وضعت بعده إشارات استفهام) مستقيمة الوزن لو اتفق

للأستاذ المنجد الظفر بنسخة أخرى غير نسخته (التي عثر عليها في خزانة والده كما ذكر في مقدمة صدر بها هذه الأرجوزة) أما وهو لم يظفر فقد رأى المجمع من الفائدة نشرها للقراء على ما هي عليه ليتسنى لمن يعثر على نسخ ثانية أن يقابلها على نسخة الأستاذ المنجد ثم يعيد نشرها مصححة".

هذا وبعض أبياتها في منتخبات التواريخ ص 1101 وهي في منادمة الأطلال ص 412 - 419 منسوبة خطأ إلى الشيخ كمال الدين محمد بن محمد بن شريف الغزي العامري

وفيه أنه صدر بها كتابه (البرق المتألق في محاسن جلق) وهذا الكتاب ليس له، بل لابن الراعي (18).

وهذا الشاعر أمين الجندي يصف الربوة أيام كان طالباً في دمشق يقول:

يا حبَّذا الربوةُ من دِمَشْقِ
بالفَضْل حازَتْ قَصَباتِ السَّبْقِ
كم أطْلَعَتْ بها يدُ الربيعِ
من كل معنى زائد بديعِ

ومن القدماء الصفدي وهو الأديب الألمعي صاحب كتاب الوافي بالوفيات وهو الموسوعة الكبيرة في التراجم والذي لم يقصر في حق دمشق وذكرها باسم جلق، قال الصلاح الصفدي (19) في أرجوزته التاريخية التي نظم فيها أمراء دمشق في الإسلام منذ فتحها حتى عصره وقد توفي سنة 764 هـ/1363م):

هذا وأما وَصْفُها بالشِّعْر
فذاكَ شيءٌ مثْلُ مَوْجِ البحرِ
لم يَحْصُرِ الضَّبْطُ لِذاكَ عَدَّاً
لأنه إلى الفُراتِ عَدّى
فَطِرْ إلى رُبوعها وحَلِّقِ
فليسَ تحوي الأرضُ مثْلَ
فنسألُ الله لنا الإقامة
في صحةٍ منها وفي سلامه

ومن الموشحات اللطيفة ما نظمه محمد بن عثمان (20) الشهير بابن الشمعة في وصف لهوه وشرابه بين أحضان دمشق ورياضها قال:

قُمْ بنا يا صاحِ نَجلُو القَرْقَفا
في رياضٍ مائساتِ الأغْصُنِ
واسْقِنيها في زمانٍ قد صَفا
من صُروفِ الدهرِ ثم المحنِ

دور

خَمْرَةً تُحيي فؤادَ المُسْتهامْ
في يد النَّدْمان تُجلى

ما على شارِبِها عندي مَلامْ
سِيَّما إنْ عُتِّقَتْ عند القُسوسْ
كم بها قلبي المعنَّى في غرامْ
وبها منا لقد طابتْ نفوسْ
فاحْتَسَيْناها فَنِلنا شَرَفا
مع سرورٍ تمَّ بالعيش الهني
آه ما أحلى أويقاتِ الصَّفا
حيثُ كنا في عظيمِ المِنَنِ

دور

يا رَعى الله دمشقاً إنها
زِينةُ الأرضِ ومصباحُ البلادْ
كم غريبٍ قد أتاها ظَنَّها
جَنَّةَ الفردوسِ أو ذاتَ العمادْ

قال الشيخ عبد السلام الشطي في مدح الشام (موشح):

حبَّذا الشامُ مَقَرُّ الشُّرَفا
وديارُ الأُنس فيها وطني
صانَها المولى لطيفُ اللُّطَفا
منِ صُروفِ الدهرِ طولَ

دور

كم بها الأخبار حقاً ورَدَتْ
وأحاديثٌ رَوَتْها العُلَما
وكذا الأَبْدالُ فيها سكنتْ
وخيارٌ منْ خيارِ الكُرما
خِيرةَ اللهِ تعالى قد غَدَتْ
وإليها يحتبي أهلُ الحِمى

* * *

ومن شعراء دمشق وأبنائها الذين يفخرون بالانتماء إليها وإلى نبعتها الشاعر شفيق جبري (21) الذي خلد جهادها في شعره كما خلد وفاءها وحفظها لعهودها واستبسال أبنائها في الدفاع عنها والذود عن حياضها.. وينتهي إلى الدعاء لهذه المدينة الحبيبة دمشق الفيحاء.

قال شفيق جبري من قصيدة بعنوان (جهاد الغواني):

وقَفَتْ ببابكِ جِلِّقُ
وتزاحمتْ فيه الوفودْ
حملوا الثناء إلى التي
حَمَلتْ أذى الجهد الْجهيدْ
ومشتْ إلى حَطْم القيو
دِ ومَنْ يُطيق شجا القيودْ؟
لله ذكرى ما تُفا
رِقُ خاطري أبد الأبيدْ
تلك العهودُ نَدِيَّةٌ

والشامُ حافظةُ العهودْ للهِ ما نَسَجَ الربيعُ وزوَّقتْ

قذفتْ دمشقُ إلى الْهَزا يُمناهُ من وَشِيٍ بِطيبٍ يَعْبَقُ

هِز رَبْعَها فَهُمُ الوَقودْ حضن الرُبا بالدفء من

زَحْفَ الرجال إلى الرجال كالأم تحضن صبية وتطوق

مَشْيَ الحديدِ إلى الحديدْ والزهرُ في سُرُرِ الغصونِ

هَوَتِ النفوسُ على القنا يطفو النعاسُ بجفنِها ويُرَنّقُ

هَوِّنْ عليكَ فما تعودْ والطَّلُّ في أجفانها دَمْعُ الصَّبا

لم يَبْقَ غيرُ مَضاضةِ الذكرى يَنْهَلُّ مُنْسَكِباً لنارِ تحرقُ

على البال الخضيد وشَدَتْ مُطَوَّقةٌ لِرَجْعِ هواجسٍ

سلمتْ دمشقُ فلم تزلْ شَتَّى يؤرِّثُها جَوىً وتَحَرُّقُ

تختالُ في وَشْيِ البُرودْ

وقد تفنن أبناء دمشق في وصفها والإشادة بها والافتخار بمآثرها ومنهم نفر من آل مردم منهم الشاعر عدنان مردم والشاعر خليل مردم

قال عدنان مردم (22) بعنوان (الغوطة في الربيع):

خَطَرَتْ بِمَحْبوكِ الربيع تُصَفِّقُ

والفَجْرُ يَعْصِفُ غَرْبُهُ المتدفقُ

ألوانُها قَوْسُ الغمامِ تعددتْ

ألوانُه وتنوَّرَتْ تتألقُ

من كلِّ زاهرةٍ كعينِ مُدَلَّهٍ

نَظَرَتْ إليكَ بمدمعٍ يترقرقُ

إن الأحداث الجسام تلهب مشاعر المرهفين وأحاسيسهم وبخاصة إذا كانت موصولة بالمقدسات كالوطن وحريته والدفاع عنه، والشرف والعرض والذود عن حياضهما والشهادة والشهداء وبطولاتهم وتضحياتهم وبذلهم الغالي والنفيس. فهذا الشاعر عبد الله يوركي حلاق (24) وعقب معركة ميسلون الطاحنة، معركة الشرف بين قوى الظلم والاستعمار الفرنسي الباغي وبين ثلة من المجاهدين الشرفاء والمدافعين عن دمشق وعن الحكم الوطني يومئذ. وبعد استشهاد البطل يوسف العظمة وزير الحربية يتصدى شاعرنا الحلاق ليحييّ تضحية هذا البطل العظيم وجراءته ومجابهته الجيوش الفرنسية الجرارة بوفير عتادها وثقيل سلاحها وضخامة

دروعها فيتحدث عن دمشق وطبيعتها وأمجادها وفخرها بأبنائها

قال عبد الله يوركي حلاق بعنوان دمشق:

ناداكَ صوتٌ من دمشقَ مُحَبَّبُ
فاسمعْ فَدَقَّاتُ القلوب تُرَحِّبُ
وانزلْ على بابٍ يُعَطِّرُ ذِكْرَهُ
فَخْرٌ بأنفاس الخلودِ مُطَيَّبُ
فتحتْ لكَ الفيحاءُ قلبَ مُوَلَّهٍ
حُرٍّ وقلبُ الحرِّ لا يتقلبُ
فانهلْ من الحُبِّ المصفّى إنها
للحبِّ نبعٌ خَيِّرٌ لا يَنْضُبُ
رَفَّتْ على العاني حمائمُ
فكأنها أمٌّ تَحِنُّ وتحدُبُ
أَلَقُ العروبةِ في وجوهِ شبابها
يزهو فيختالُ الزمانُ ويطرَبُ
منْ كلِّ أروعَ لا تلينُ قَنَاتُه
لانَ الحديدُ له ودانَ المطلبُ
الشامُ في كفِّ العروبة صارِمٌ
يَلْقى جُموعَ الظالمين فيضربُ
في مَيْسَلونَ ينام كوكبُ يَعْرُبٍ
يا للغرابةِ كيفَ يغْفو الكوكبُ
ما مات يوسُفُ فهو في
وقلوبنا حيُّ البسالةِ طيبُ
الْخُلْدُ يعرفه ويَعْرِفُ أنَّه
نغمٌ على شفة الإباءة مُطْرِبُ
لا تَعْجَبَنَّ إذا استهانَ بروحه
فالشيءُ من مأتاه لا يُستغربُ

ولأمير الشعراء أحمد شوقي (25) مشاركة مبدعة رائعة في هذا الميدان وأورد له الأستاذ المصري رحمه الله القصيدة الشهيرة التي نظمها عقب العدوان الفرنسي وألقاها عام 1926 في حديقة الأزبكية بدمشق، وهي بعنوان

نكبة دمشق

سلامٌ منْ صَبا بَردى أرَقُّ
ودَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ
ومعذرةُ اليراعَةِ والقوافي
جَلالُ الرُّزْءِ عن وصفٍ يَدِقُّ
وذِكرى عن خواطرها لِقلبي
إليكِ تَلَفُّتٌ أبداً وخَفْقُ
وبي مما رَمَتْكِ به الليالي
جِراحاتٌ لها في القلب عُمْقُ
وحَوْلي فِتْيَةٌ غُرٌّ صِباحٌ
لهم في الفضل غاياتٌ وسَبْقُ

على لَهَواتِهِمْ شُعَراءُ لُسْنٌ
وفي أعطافِهِمْ خُطباءُ شُدْقُ
غَمَزَتْ إباءَهُمُ حتى تَلَظَّتْ
أُنوفُ الأسْدِ واضطَرَمَ المدَقُ
وضَجَّ من الشكيمة كلُّ حُرٍّ
أبيٍّ من أُمَيَّةَ فيه عِتْقُ
لحاها اللهَ أنباءً توالتْ
على سمع الوَليِّ بما يَشُقُّ
تكادُ لروعةِ الأحداث فيها
تُخالُ من الخُرافة وهي صدْقُ
وقيل: معالمُ التاريخِ دُكَّتْ
وقيلَ: أصابَها تَلَفٌ وحَرقُ
أَلَسْتِ دِمشْقُ للإسلامِ ظِئْراً
ومُرْضِعةُ الأُبوَّةِ لا تُعَقُّ
صلاحَ الدينِ تاجُكَ لم يُجَمَّلْ
ولمْ يُوسَمْ بأزْيَنَ منه فَرْقُ
بَنَيْتَ الدولةَ الكُبرى ومُلْكاً
غبارُ حضارتيه لا يُشَقُّ
له بالشامِ أعلامٌ وعُرْسٌ
بَشائِرُهُ بأَنْدَلُسٍ تُدَقُّ

* * *

رِباعَ الخُلْدِ وَيْحَكِ ما دَهاها
أحَقٌّ أنَّها دَرَسَتْ أَحَقٌّ؟
إذا رُمْنَ السلامةَ من طريقٍ
أَتَتْ من دونه للموتِ طُرْقُ
بلَيْلٍ للقذائفِ والمنايا
وراءَ سمائه خَطْفٌ وصَعْقُ
إذا عَصَفَ الحديدُ احْمَرَّ أُفْقٌ
على جَنَباتِهِ واسْوَدَّ أُفْقُ
وللمستعمرينَ وإنْ ألانوا
قُلوبٌ كالحجارةِ لا تَرِقُّ
رَماكِ بطَيشهِ ورمى فرنسا
أخو حَربٍ به صَلَفٌ وحُمقُ
دمُ الثُّوارِ تعرِفُهُ فَرَنْسا
وتَعلَمُ أنه نُورٌ وحَقُّ
بني سُوريَّةَ اطّرحوا الأماني
وألقوا عنكُمُ الأحلامَ ألْقوا
فَمِنْ خِدَعِ السياسةِ أنْ تُغَرّوا
بألقابِ الإمارَةِ وهي رِقّ
نَصَحْتُ ونحن مُختلفونَ داراً
ولكنْ كُلُّنا في الهمِّ شَرْقُ
ويَجْمَعُنا إذا اختلفتْ بلادٌ
بيانٌ غيرُ مُخْتلِفٍ ونُطْقُ

وقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أو حَياةٍ

فإنْ رُمْتُمْ نَعيمَ الدَّهْرِ فاشقوا

وللأوطانِ في دَمِ كلِّ حرٍّ

يَدٌ سَلَفَتْ ودَيْنٌ مُسْتَحقٌّ

ومنْ يسقي ويشربُ بالمنايا

إذا الأحرارُ لم يُسقَوا ويَسْقوا

ولا يَبْني الممالِكَ كالضَّحايا

ولا يُدني الحقوقَ ولا يُحِقّ

ففي القتلى لأجْيالٍ حَياةً

وفي الأسْرى فِدىً لَهُمُ وعِتْقُ

ولِلْحُرِّيَّةِ الحمراءِ بابٌ

بكلِّ يَدٍ مضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

جَزاكم ذو الْجَلال بَني دِمَشْقٍ

وعِزُّ الشَّرْقِ أوَّلُهُ دِمَشْقُ

ولشوقي قصيدة أخرى بناها على قافية النون لا تقل أهمية عن سابقتها ويتجلى فيها صدق عواطف الشاعر نحو هذه المدينة المنكوبة بسبب العدوان الفرنسي الغاشم عليها فهو يصف طبيعتها الجميلة منذ أن أطل على مغانيها من جهة الغرب وهو قادم إليها ويتحدث عن تاريخها وعن الدواهي التي أصابتها ويدخل مسجدها الأموي الكبير الشاهد على الأحداث التي توالت عليها فيستنطقه متسائلاً ويجيبه المسجد حزيناً..

ويستحضر في الحديث عن دمشق جنة الله في عليائه إنها جنته في الأرض

قال أحمد شوقي بعنوان (دمشق):

قُمْ ناجِ جِلِّقَ وانْشُدْ رَسْمَ مَنْ بانوا

مَشَتْ على الرَّسْمِ أحْداثٌ وأزْمانُ

هذا الأديمُ كتابٌ لا كِفاءَ لَهُ

رَثُّ الصحائفِ باقٍ منه عُنْوانُ

الدينُ والوحيُ والأخلاقُ طائفةٌ

منه وسائرُهُ دُنيا وبُهْتانُ

بنو أُمَيَّةَ للأنباءِ ما فَتحوا

وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكاً سَريرُ الشرقِ تحْتَهُمُ

فهل سألتَ سريرَ الغربِ ما كانوا؟

بالأمْسِ قُمْتُ على الزَّهْراءِ أنْدُبُهُمْ

واليومُ دمعي على الفَيحاءِ هَتَّانُ

آمنتُ باللهِ واسْتَثْنَيْتُ جَنَّتَهُ

دمشقُ رُوحٌ وجَنَّاتٌ ورَيْحانُ

قال الرفاق وقد هَبَّتْ خمائِلُها

الأرضُ دارٌ لها الفيحاءُ بُستانُ

جَرَى وصَفَّقَ يلقانا بها برَدَى

كما تَلَقَّاكَ دون الخُلد رَضوانُ

والطيرُ تَصْدَحُ من خَلْفِ العُيون بها

وللعيونِ كما للطيرِ ألحانُ
خَلَّفْتُ لبنانَ جناتِ النَّعيم وما
نُبِّئْتُ أنَّ طريقُ الخُلدِ لُبنانُ
حتى انحدرتُ إلى فيحاءَ وارِفَةٍ
فيها الندى وبها طيٌّ وشَيبانُ
نَزَلْتُ فيها بِفِتْيانٍ جَحاجِحَةٍ
آباؤُهم في شَباب الدهر غَسانُ
بِيضُ الأسرَّةِ باقٍ فيهِمُ صَيدٌ
من عَبْدِ شَمْسٍ وإنْ لم تَبْقَ تيجانُ
يا فِتْيَةَ الشامِ شُكْراً لا انْقضاءَ له
لو أنَّ إحسانَكم يَجْزيهِ شُكرانُ
ما فوقَ راحاتِكم يومَ السماحِ يَدٌ
ولا كأوطانِكُم في البشْر أوطانُ
شِيدوا لها المُلكَ وابنُوا رُكْنَ دولتِها
فالمُلكُ غَرْسٌ وتجديدٌ وبُنيانُ
المُلكُ أنْ تَعْملوا ما استطَعْتُمْ عَمَلاً
وأنْ يَبينَ على الأعمال إتْقانُ
الملكُ أنْ تُخرَجَ الأموالُ ناشِطَةً
لمطْلَبٍ فيه إصلاحٌ وعُمرانُ
المُلكُ تحت لسانٍ حَوْلَهُ أدَبٌ
وتَحْتَ عَقْلٍ على جنْبَيه عِرْفانُ
المُلكُ أن تَتَلاقَوا في هَوى وَطَنٍ
تَفَرَّقَتْ فيه أجناسٌ وأدْيانُ

* * *

نصيحةً مِلْؤُها الإخلاصُ صادقةٌ
والنُّصْح خالِصُهُ دِينٌ وإيمانُ
والشعرُ ما لم يكن ذكرى وعاطفةً
أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ
ونحنُ في الشرقِ والفُصحى بَنو رَحِمٍ
ونحنُ في الجُرْحِ والآلامِ إخوانُ

وهذا شقيقه الشاعر العراقي معروف الرصافي (13) الذي وقف يبكي دمشق وما عانته من عدوان فرنسي غاشم ومنذ سنوات الانتداب الفرنسي الأولى.

وقد أقيمت حفلة في بغداد لجمع الإعانات لمنكوبي سورية سنة 1926 ألقى فيها الشاعر قصيدة بعنوان (دمشق تندب أهلها)

بكَتْ في ظلامِ الليلِ تنْدُبُ أهلَها
بِصَوتٍ له الصخرُ الأَصَمُّ يَلينُ
وباتَتْ وقد جَلَّ المُصابُ حزينةً
لها في ضواحي الغوطتين أنينُ
ومنْ بَعْدِ وَهْنٍ أشْرَقَ البدرُ طالعاً
فأسْفَر منها عارِضٌ وجَبينُ

فأبصرتُ منها الوجهَ أزهرَ مُشْرِقاً
بَخَدَّيْهِ سِرٌّ للجمال مَصونُ
فتاةٌ جَثَتْ في الأرضِ تبكي
صَريعٌ على وجه الثَّرى وطَعينُ
وما أَنْسَ لا أَنْسَ العشيةَ أنَّها
تَوَرَّمَ منها بالبكاءِ جُفونُ
وأنَّ غزيرَ الدَّمْعِ خَدَّدَ خَدَّها
فلاحَتْ من الأشجانِ فيه فنونُ
وقلتُ لها: من أنتِ رحماكِ إنني
لكِ اليومَ خِلٌّ صادقٌ وأمينُ
فقالتْ وقد ألْقَتْ عليَّ بنظرةٍ
عن القصدِ فيها مُعْرِبٌ ومُبينُ
أنا البلدةُ الثَّكْلى دمشقُ ابنةٌ
أما أنتَ في مغنى دمشق قَطينُ
ألم تَرَ أبنائي يُساقون للردى
فمنهمْ قتيلٌ بالظُّبا وسَجينُ
فأين أباةُ الضيمِ من آلِ يَعْرُبِ
ألم يأتِ منهم ناصرٌ ومُعينُ؟
سَنُدْرِكُ فيكِ الثأرَ منْ أنفُسِ العِدا
ونُوقد نارَ الحرب وهي زَبون
فهذي دمشقٌ يا كِرامُ وهذه
أحاديثُ عنها كلُّهُنَّ شُجونُ

* * *

لولا دِمَشْقُ لما كانَتْ طُلَيْطِلَةٌ
ولا زَهَتْ ببني العباسِ بَغْدانُ
مَرَرْت بالمسجِدِ المَحْزونِ أسْأَلُهُ
هل في المُصلى أو المحراب
تَغَيَّر المسجدُ المَحْزونُ واختلفَتْ
على المنابر أحرارٌ وعِبدانُ
فلا الأذانُ أذانٌ في منابره
إذا تعالى ولا الآذان آذانُ

ويطفو إلى السطح اسم مجاهد كبير ومناضل عنيد افتدى دمشق بروحه وبدمه منذ أيام الانتداب الفرنسي الأولى فعانى التشرد والإبعاد قهراً عن حماها فقد صدر بحقه أكثر من حكم بالإعدام ونقصد به الأستاذ خير الدين الزركلي (26) صاحب كتاب الأعلام ـ موسوعة التراجم الأولى في بلاد الشام ـ وقد ترك الزركلي في ديوانه المطبوع مجموعة من القصائد الوطنية التي تحكي قصة نضال الشعب العربي في سورية ضد الفرنسيين الذين قابلوا نضالهم بالقسوة والتعسُّفِ والإجرام الوحشي.

قال خير الدين الزركلي من قصيدة بعنوان (بين الدم والنار):

الأهل أهلي والديار دياري
وشعار وادي النيربين شعاري

ما كان من ألمٍ بجلِّق نازلٍ
واري الزناد فَزَنْدُه بي واري
إن الدم المهراق بين جنباتها
لدمي وإن شفارها لشفاري
دمعي لما مُنيت به جارٍ هنا
ودمي هناك على ثراها جاري
النار محدقة بجلق بعدما
تركت (حماةَ) على شفيرٍ هارِ
تنساب في الأحياء مسرعة الخطا
تأتي على الأطمار والأعمار
والقوم منغمسون في حمآتها
فتكاً بكل مبرَّأ صبار
صبرت دمشق على النكال ليالياً
حَرُم الرقاد بها على الأشفارِ
يترقبون الموت في غدواتهم
وإذا نَجَوا فالموت في الأسحارِ
والظلم منطلق اليدين محكَّمٌ
يا ليت كلَّ الخطب خطبُ النارِ
أُمَّ الحياة، وللحياة نعيمُها
هل في ديارِكِ بعدُ من ديَّارِ؟
زهو الحضارة أنتِ مطلع شمسِه
أفتغتدين وأنتِ دارُ بَوارِ؟
ويح الحضارة كيف يمتهنُ اسمَها
متكالبون على الضعاف ضواري؟

وأما ابن الشام البار ابن دمشق العاشق الذي نبت وترعرع في حي من أحيائها العريقة فملأ قلبه ونفسه بقيمها الرفيعة ومثلها العليا وعب من علومها وآدابها وتنفس عبيرها وعتِقها فأحبها وأحبها وعشقها وهام بها فسكنت قلبه وسارت في عروقه منذ أن كان يافعاً وكبرت في أعماقه ولهاً ووفاءً إنه وليد قصاب فلما شب عن الطوق وطوّف في البلاد شرقاً وغرباً ووهاداً ونجوداً، أستاذاً جامعياً وباحثاً ومحققاً، وشاعراً وناقداً وأديباً دارساً.. ومؤلفاً عند ذلك هيمنت عليه في حله وترحاله..

وعندما يذكر دمشق فإنه يصف طبيعتها الفاتنة ويتحدث عن فضائلها وأمجادها عن ثباته في حبها وعدم التحول عنها

قال وليد قصاب (23) بعنوان (بلادنا):

بلادنا حديقةٌ
من سوسنٍ وعنبرِ
وجدولٌ مرقرقٌ
عصارةٌ من كوثرِ
بلادنا قصيدةٌ
عجيبة التصورِ
يصوغها متيَّمٌ

بحبها المؤثرِ شآمُ يا أنشودةً
فتنتشي بسحرها تجيش في خواطري
دنيا الهوى والسُّمَّرِ يا ذكرياتٍ لم تزل
مدينتي نبعٌ غزيـ مثل الصباح الغابر
ـرٌ من عطاءٍ مثمرِ في مسمعي ألفُ صدى
وحقل خيرٍ وارفٍ للمجد والمآثر
على المدى والأعصرِ وقصة للحق والـ...
مدينتي يا عشـ ..علياء والمفاخر
ـقَ كلَّ شاعرٍ متيمِ شادت على درب الخلو
كم صاغ فيك عُنْوَةً دِ منارة للحائر
شجيةً لم تُنْظَمِ يا حلم كل شاردٍ
وكم شدا في مجلسٍ في الأرض أو مهاجر
بحبكِ المستلهمِ وواحةً في درب
يا دفءَ كلِّ مُجْهَدٍ كل متعبٍ مسافرِ
من العنا محطمِ * * *
يا صدر كل متعبٍ مدينتي إني على
يا حُلْمَ من لم يَحْلُمِ هواكِ لم أُبَدلِ
يا ضحكةٌ نديةٌ مازلت ذاك العاشق
لثغر من لم يَبْسِمِ المفتون منذ الأزلِ
وعُنْوَةً على شِفا ما زلتُ صباً لا يرى
هـ طفلنا المرنم سواك من مؤمَّلِ
* * * يسري حنينٌ في دمي

ملتهبٌ كالشُّعَلِ

هواكَ يا بردى كالسيفِ

وما ملكْتُ لأمرِ الحبِّ تبديلا

وجبل آخر من أبناء دمشق ولكنه شاعر بمذاق آخر ونكهة متميزة إنه الذي أحبها فتمثلت النساء جميعاً فيها.. أحبها لأنها أحالت أحزانه بحاراً لا متناهية الأبعاد أحبها لأنها تذكره طفولته بعبثها ببراءتها بمتاعبها أحبها لأنها تضم كنوز ذكرياته في زواريبها.

أحبها لأنها وطن حبيباته اللواتي أحبهن في عمر الصبا الذي ارتحل.. أحبها لأنه عشق أشجارها فصارت غابة نساء يَسْكُنَّ في قلبه.. أحبها لأنه يصحبها معه في حله وترحاله إنه نزار قباني (27) الذي تتوهج عواطفه بحب الشام وترشح عروقه وشرايينه بذلك الحب المتمرد.. يقول من قصيدة بعنوان (من مفكرة عاشق دمشقي)

فَرَشْتُ فوقَ ثَرَاكِ الطاهرِ الهُدُبا

فيا دِمشقُ لماذا نبْدأُ العَتَبا؟

حبيبتي أنتِ فاستلقي كأُغنيةٍ

على ذراعي ولا تستوضِحي السَّببا

أنتِ النساءُ جميعاً ما مِن امرأةٍ

أحببتُ بَعْدَكِ إلا خِلْتُها كَذِبا

يا شامُ إنَّ جِراحي لا ضفافَ لها

فمسِّحي عن جَبيني الحُزْنَ والتَّعَبا

وأرْجعيني إلى أسوارِ مدرستي

وأرْجعي الحِبْرَ والطُّبْشورَ والكتبا

تلكَ الزواريبُ كم كنزٍ طمرتُ بها

وكم تركت عليها ذكرياتِ صبا

وكمْ رَسَمْتُ على حِيطانها صُوراً

وكم كسرتُ على أدراجِها لُعَبا

أتيتُ من رَحِمِ الأحزانِ يا وطني

أقبِّلُ الأرضَ والأبواب والشُّهُبا

حُبِّي هنا وحَبيباتي وَلِدْنَ هُنا

فَمَنْ يُعيدُ ليَ العُمْرَ الذي ذَهَبَا؟

أنا قبيلةُ عُشّاقٍ بكاملها

ومن دموعي سَقَيْتُ البحرَ والسُّحُبا

فكلُّ صَفْصَافَةٍ حَوَّلْتُها امرأةً

وكلُّ مِئْذَنَةٍ رَصَّعْتُها ذَهَبا

هذي البساتينُ كانتْ بين أمتعتي

لما ارتحلتُ عن الفيحاءِ مُغْتَرِبا

وقد ألقاها الشاعر في مهرجان الشعر بدمشق 1971 في شهر كانون الأول ومرة أخرى ينطق باسمها متمنياً لو كان من معالمها مئذنة مغروسة في ترابها أو من تحفها قنديلاً يضيء على أبوابها فيقول:

يا شامةَ الدُّنيا ووَرْدَتها

يا مَنْ بحُسْنِكِ أَوْجَعْتِ الأَزاميلا

وَدِدْتُ لو زرعوني فيك مِئْذَنَةً

أو علَّقوني على الأبوابِ قِنْديلا

يا بلدةَ السَّبْعَةِ الأنهارِ يا بَلَدي

ويا قميصاً بزَهْرِ الخَوْخِ مشغولا

ويا حِصاناً تخلّى عن أعِنَّتِهِ

وراحَ يفتحُ مَعْلوماً ومجهولا

هواكَ يا برَدى كالسيفِ يَسْكُنني

وما ملكتُ لأمرِ الحبِّ تبديلا

وهو يتغنى بأنهاره السبعة بردى وفروعه وبحبه له ثم يذيب كل عواطف الحب والوله والشوق في قصيدته

(ترصيع بالذهب على سيف دمشقي)

ويصرح باسم ميسون ويتساءل عن حبها له.. وكأني بها رمز لدمشق الأبية متمثلة في شخص ميسون بنت بحدل الحرة الأبية.. ثم يتابع الشاعر سرداً لأحداث تاريخية مخصوصة تعبر عن صمود دمشق في وجه موجات الاعتداءات الوحشية وأخيراً جرائم الصهاينة في نكسة حزيران 1967 ثم انطلاق المارد العربي من رقدته وهزيمته ونهوضه غداة السادس من تشرين الأول عام 1973 واستعادته لكرامته وتحريره لبعض الأراضي المحتلة من الجولان وسيناء في معارك حرب تشرين التحريرية.. وربطه لأحداث التاريخ الماضية وأيامه الناصعة وانتصاراته المؤزرة ذاكراً لأسماء مدن هامة كالقنيطرة وحيفا وعكا مستحضراً أيام حطين وصلاح الدين عندما حرر بيت المقدس فيقول:

أتراها تُحبُّني مَيْسونُ

أمْ توَهَّمْتُ والنساءُ ظُنونُ؟

كم رسولٍ أرسلتهُ لأبيها

ذَبَحَتْهُ تحتَ النِّقابِ العيونُ

يا بنةَ العمِّ والهوى أُمويٌّ

كيف أخفي الهوى وكيف أُبينُ؟

ما وقوفي على الديارِ وقلبي

كجبيني قد طَرَّزَتْه الغُضونُ

يا زماناً في الصالحية سَمْحاً

أين مني الغِوى وأين الفُتونُ

يا سريري، ويا شَراشِفَ أُمِّي

يا عصافيرُ، يا شَذا، يا غُصونُ

يا زواريبَ حارتي خبِّئيني

بين جَفْنَيْكِ فالزمانُ ضَنينُ

واعْذُريني إذا بَدَوْتُ حَزيناً

إنَّ وجهَ المحبِّ وجهٌ حزينُ

هاهي الشامُ بعد فُرْقَةِ دهرٍ

أنهُرٌ سبعةٌ وحورٌ عينُ

النوافيرُ في البيوتِ كلامٌ
والعناقيدُ سُكَّرٌ مطحونُ
آهِ يا شامُ كيفَ أَشْرَحُ ما بي
وأنا فيكِ دائماً مسكونُ
سامحيني إنْ لم أكاشفكِ بالعِشْـ
ـقِ فأحلى ما في الهوى التضمينُ
يا دمشقُ التي تَفَشّى شَذاها
تحت جلدي كأنه الزيزفونُ
قادمٌ من مدائن الريحِ وحدي
فاحْتَضَنِّي كالطفلِ يا قاسَيونُ
أهي مجنونةٌ بشوقي إليها
هذه الشامُ أم أنا المجنونُ؟
جاء تشرينُ يا حبيبةَ قلبي
أحْسَنُ الوقتِ للهوى تِشرينُ
ولنا موعدٌ على جبل الشَّيْـ
ـخِ كمِ الثلجُ دافئٌ وحنونُ
سَنَواتٌ فيها استقلت من الحبِّ...
وجَفَّتْ على شفاهي اللَّحونُ
سَنَواتٌ سَبْعٌ بها اغتالنا اليأ
سُ وعِلْمُ الكلامِ واليانَسونُ
كيفَ أهواكِ والحِمى مُستباحٌ
هل من السهل أن يُحِبَّ السَّجينُ

شمسُ غرْناطَةٍ أطَلَّتْ علينا
بعد يأسٍ وزغردتْ مَيْسلونُ
شامُ يا شامُ يا أميرةَ حُبِّي
كيف ينسى غرامَه المجنونُ
جاء تشْرينُ إنَّ وجهَكِ أحلى
بكثيرٍ. ما سِرُّهُ تشرينُ
إنَّ أرْضَ الجَوْلان تشبهُ عَيْنَيْـ
ـكِ فماءٌ يجري ولَوْزٌ وتين
يا دمشقُ البسي دُموعي سِواراً
وتمَنيْ فكل صعبٍ يهونُ
وضعِي طرْحَةَ العَروسِ لأجلي
إنَّ مهرَ المُناضلاتِ ثمينُ
رضي اللهُ والرسولُ عن الشا
مِ فَنَصرٌ آتٍ وفتحٌ مبينُ
مَزِّقي يا دِمشقُ خارِطةَ الذُّلِّ
وقولي للدَّهْرِ كُنْ فيكونُ
اسْتَرَدَّتْ أيامَها بكِ بَدْرٌ
واستعادتْ شبابَها حِطِّينُ
كتبَ اللهُ أن تكوني دمشقاً
بكِ يبدأ وينتهي التكوينُ
هُزِمَ الرومُ بعد سَبْعٍ عجافٍ
وتَعافى وُجْدانُنا المطْعونُ

وقتلْنا العَنْقاءَ في جَبَلِ الشَّيْـ
ـخِ وألقى أضراسَهُ التِّنِّينُ
صَدَقَ السفُ وعْدَه يا بلادي
فالسياساتُ كلُّها أفْيونُ
صَدَقَ السيفُ حاكماً وحكيماً
وحَدَهُ السيفُ يا دمشق اليقينُ
اسْحبي الذيلَ يا قُنَيْطِرَةَ المجـ
ـدِ وكحِّلْ جَفْنَيْكَ يا حَرَمونُ
سَبَقَتْ ظلَّها خُيولُ هشامٍ
وأفاقتْ من نومها السكِّينُ
عَلِّمينا فِقْهَ العروبةِ يا شا
مُ فأنتِ البَيانُ والتبيينُ
وطني يا قصيدةَ النارِ والوَرْ
دِ تَغَنَّتْ بما صَنَعْتَ القُرونُ
إنَّ نهرَ التاريخِ ينبُع في الشا
مِ أيُلغي التاريخَ طِرْحٌ هَجينُ
نحنُ عَكَّا، ونَحْنُ كَرْمِلُ حَيْفا
وجبالُ الجليل واللطرونُ
كلُّ ليمونةٍ ستنُجِبُ طِفْلاً
ومُحالٌ أن ينتهي الليمونُ

ومن طريف ما وصفت به فروع بردى نظمه الشيخ شعبان الآثاري (28) مكثراً من التورية حيث يقول:

شوقي (يزيد) وقلب الصَّبِّ ما (بردا)
و(بانَ ياسي) من (المعشوق)
ومدمعي (قنوات) والعذول حكى
(ثورى) يلوم الفتى في عشقه
على مغنية بالجَنْك جاوبها
شبَّابةٌ كم بها من عاشقٍ سَهِدا
فالبدر (جبهتها) والدَّفُّ (ربوتها)
وخِلُّها مات في (خلخالها) كمدا

فقوله: (بان يأسي) أي (بانياس)

و(المعشوق): يريد به (العاشق والمعشوق)

وهما برجان للحمام في لحف جبل قاسيون المشرف على الربوة.

وأخيراً نلقي عصا التسيار عند أبيات شاعر دمشقيٍّ آخر هو محمد مراد بن محمد بن يحيى السقاميني (29) وقد أرسلها بعد توجهه للحج من الطريق يقول فيها:

يا نسيماً سرى بسفح الوادي
فوق روضٍ رُوِي بدرِّ العهادِ
مُزْرياً عَرْفُه بِنَشْرِ الخُزامى
وعبيرِ العَرار والأورادِ
إنْ أتيتَ الشآمَ دارَ مُنائي

صفوةَ اللهِ في جميعِ البلادِ

وسلكتَ الرُّبا التي في دمشقٍ

منتدى الصالحين والأوتادِ

حيِّ جَمْعاً من أهلها في سُوَيْدا

قلب حَلّوا وخيّموا بفؤادي

صِفْ لهم شوقي المبرِّح واشرَحْ

ما بجفنيَّ من أليمِ سُهادي

يا رعى الله جِيْرَةً في حِماهُمْ

قد تَقَضَّتْ لنا بصدقِ ودادِ

وَيْحَ قلبي كم ذا يقاسي عليهم

مِنْ غرامٍ ولوعةٍ وبِعادِ

ثم أَبْلِغْ سلامَ عَبْدٍ مُحبٍّ

قَلِقِ الفكرِ شَوْقُه في ازديادِ

للإمام الهمام مفتي دمشق الشا

مِ ذي الفضل والتقى والرشادِ

وبذلك نأتي على مسك الختام لدراسة هذا الديوان الدمشقي ولغرضه الموجز السريع من خلال استجلاء ما ورد فيه من ذكر لموضوعات وأمكنة ورجال وأشعار تدور كلها حول هذه المدينة جنة الدنيا وحاضرة العرب على مدى العصور والأحقاب.. دمشق الشام وشامة المدن، فالدعاء موصول بكل من ساهم لإظهار هذا العمل لجمهور القراء الكرام وأولاً وأخيراً لمن بذل الجهد الكبير في تأليفه وجمعه الأستاذ محمد المصري عليه من الله الرحمة والرضوان وذلك بمناسبة الاحتفال بدمشق عاصمة للثقافة العربية لعام 2008.

الهوامش

1 ـ العهاد: أول مطر الربيع.

2 ـ يريد محمد بن إبراهيم العمادي الذي وُلد بدمشق سنة 1075 هـ وطلب العلم على شيوخها وتولى إفتاء الحنفية بدمشق.

وهذا ثبت بتراجم الشعراء الذين تم اختيار طائفة من أشعارهم في هذه الدراسة، وهو على حسب تسلسل ورودهم هنا:

1 ـ عبد العزيز بن عبد الواحد بن محمد بن موسى المغربي المكناسي هو شيخ القراء بالمدينة النبوية، أديب شاعر. له مصنفات وشعر وأراجيز ومنظومات في ثمانية وعشرين علماً توفي عام 964 هـ ـ 1557م ترجمته في الأعلام (22/4) والكواكب السائرة (169/2) والديوان الدمشقي (533).

2 ـ حسان بن ثابت الأنصاري: صحابي وشاعر رسول الله محمد ﷺ، أحد الشعراء المخضرمين يقال إنه عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام. خزرجي من سكان المدينة المنورة، مدح الغساسنة والمناذرة. توفي في المدينة سنة 54 هـ ـ 674م. ترجمته في الأعلام (175/2 ـ 176) والديوان الدمشقي (508).

3 ـ عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر أموي جيد ناصر حزب الزبيريين ومدح عبد الله بن الزبير وأخاه مصعباً، وكان قرشي الهوى توفي سنة 75 هـ ـ 694م ترجمته في معجم الشعراء من تاريخ ابن عساكر (124/2 ـ 190).

4 ـ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ـ صقر قريش مؤسس الدولة الأموية في الأندلس ولد بدمشق 113 هـ ـ 731م استقر في قرطبة بعد أحداث انقراض الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية والمنصور العباسي هو الذي لقبه بصقر قريش توفي بقرطبة عام (172 هـ ـ 788م) ترجمته في الديوان الدمشقي (519).

5 ـ الرستمي أبو الحسن بن محمد بن حسن الرستمي شاعر مُجيد من شعراء العصر في الطبقة الكبرى كما يقول أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر ط1 جـ 3 ص (272 ـ 290) وذكر بعض شعره الديوان الدمشقي: (513).

6 ـ ابن النقيب: عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين محمد الحسيني الملقب بابن حمزة وابن النقيب: شاعر دمشقي وأديب دمشق في عصره وكان من فضلاء النبلاء (1048 هـ ـ 1081/1638 هـ ـ 1670م) له مصنفات وديوان شعر مطبوع. الديوان الدمشقي (542).

7 ـ عبد الله البدري: هو أبو البقاء عبد الله البدري هو شاعر وصف الجامع الكبير بدمشق.

8 ـ محمد البزم: هو محمد بن محمود البزم، عراقي الأصل ولد بدمشق (1306 هـ ـ 1889م) حفظ بعض آي القرآن الكريم وعمل في التجارة ونظم الشعر وانكب على المطالعة وعمل في التدريس انتخب عضواً في المجمع العلمي بدمشق سنة 1945 وتوفي بدمشق 1375 هـ ـ 1955م وطبع ديوانه بعد وفاته. ترجمته في معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين (ص: 63).

9 ـ فتيان الشاغوري: هو فتيان بن علي الأسدي مؤدب وشاعر من أهل دمشق نسبته إلى حي الشاغور بدمشق (533 هـ ـ 1139م/ 615 هـ ـ 1218م) اتصل بالملوك ومدحهم وعلّم أولادهم، له ديوان شعر مطبوع، قال عنه ابن خلكان: "فيه مقاطع حسان" وديوان آخر صغير جميع ما فيه "دوبيت".

(الأعلام: 137/5) و(وفيات الأعيان: 24/4 ـ 26).

10 ـ الأخطل الصغير: هو بشارة بن عبد الله الخوري البيروتي لبناني: (1302 هـ ـ 1885م) أنشأ جريدة البرق سنة 1908م وتوفي: 1388 هـ ـ 1986م) له ديوان شعر مطبوع بعنوان: (الهوى والشباب) (الأعلام للزركلي 53/2).

11 ـ جرج صيدح ولد بدمشق 1893م عمل في التجارة ذهب إلى القاهرة ثم إلى فرنسا ثم فنزويلا وأنشأ مجلة (الأرزة) وأنشأ الرابطة الأدبية إضافة إلى التجارة أصدر عدة دواوين (معجم المؤلفين السوريين: ص 308 ـ 309).

12 ـ المقري: أحمد بن محمد بن يحيى أبو العباس المقري التلمساني مؤرخ وأديب حافظ ولد 992 هـ ـ 1584م. كان خطيب فاس وقاضيها توفي بمصر 1041 هـ ـ 1631م) أشهر مؤلفاته: (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) ترجمته في خلاصة الأثر

302/1 ـ والأعلام 237/1).

12 ـ محمد مهدي الجواهري: شاعر عراقي فحل معاصر (1320 ـ 1418 هـ ـ 1903 ـ 1997م) ولد في النجف بالعراق. من أسرة علم ودين نبغ في الشعر مبكراً.

انخرط في الحركة الوطنية ضد الإنكليز، عمل مدرساً وأصدر عدة جرائد منها الانتداب، الشباب، الجهاد...

تنقل بين باريس ومصر وبغداد وعمل في الحقل السياسي الوطني القومي انتخب رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين ونقيباً للصحفيين.

له عدة دواوين شعرية منها ديوان الجواهري استقر أخيراً في دمشق وتوفي فيها (معجم البابطين 596/4) (الموسوعة العربية العالمية: 576/8).

13 ـ معروف الرصافي: هو معروف بن عبد الغني البغدادي الرصافي شاعر العراق في عصره وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق ولد ببغداد 1294 هـ ـ 1877م تتلمذ لمحمود شكري الألوسي في علوم العربية وغيرها عشر سنوات معظم شعره في الاجتماع والثورة على الظلم انتخب عضواً في مجلس المبعوثان (النواب) التركي وناصر ثورة رشيد عالي الكيلاني وكان شاعرها وانزوى في بيته بعد فشلها إلى أن مات 1364 هـ ـ 1945م، له مصنفات كثيرة وديوان شعر مطبوع، الأعلام: 268./7

14 ـ الشيخ عبد الغني النابلسي هو ابن إسماعيل، عالم بالدين والأدب متصوف مكثر من التصنيف ولد بدمشق 1050 هـ ـ 1641م وتنقل بين بغداد وفلسطين ولبنان ومصر والحجاز وأخيراً استقر وتوفي في دمشق (1143 هـ ـ 1731م) ترجمته في (الأعلام 32/4 ـ 33).

15 ـ أنور العطار: أنور بن سعيد بن أنيس العطار شاعر رقيق من أدباء المدرسين، دمشقي المولد والوفاة (1326 هـ ـ 1908م /1392 هـ ـ 1973م) له ديوان شعر مطبوع ومصنفات أخرى، الأعلام 29./2

16 ـ ابن عنين: هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن الحسن الزرعي الحوراني الدمشقي الأنصاري ولد بمشق عام 519 هـ ـ 1154م.

كان شاعراً هجاءً ومن أعظم شعراء عصره نفاه السلطان صلاح الدين فطاف في بلاد كثيرة منها العراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان والهند ومصر واليمن وعاد إلى دمشق بعد وفاة صلاح الدين.

تولى مناصب هامة كالوزارة عند الملك المعظم ثم لزم بيته في دمشق حتى مات سنة 630 هـ /1232م. له ديوان شعر مطبوع. الأعلام: 135/7 ـ 136 والديوان الدمشقي 528.

17 ـ محمد بن مصطفى بن خداويردي: المعروف بابن الراعي عاش في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي له كتاب البرق المتألق في محاسن جلق. ترجمته في الديوان الدمشقي ص 486.

18 ـ أمين الجندي: هو أمين بن خالد بن محمد الجندي شاعر من أعيان مدينة حمص في سنة 1180 هـ 1766م توفي فيها 1257 هـ/ 1841م.

أخذ عن علماء دمشق وعاشر أدباءها له

ديوان شعر مطبوع وفي شعره كثير من الموشحات.

الأعلام: 2/.16

19 ـ صلاح الدين الصفدي: خليل بن أيبك أبو الصفا، مؤرخ أديب، لغوي شاعر ولد بصفد وتولى كتابة الإنشاء بمصر ودمشق ووكالة بيت المال بدمشق وبها توفي عام 764 هـ/ 1263م له الوافي بالوفيات (في تراجم الرجال) وأعيان العصر. ترجمته في الدرر الكامنة (87/2).

20 ـ محمد بن عثمان.

21 ـ شفيق جبري: ولد بدمشق عام 1314 هـ/1898م بدأ نظم الشعر عام 1918، عين رئيساً لديوان المعارف وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية وعين أستاذاً ومديراً لأول كلية للآداب سنة 1928م ثم عميداً لها، له عدد من المؤلفات وديوان شعر طبع بعد وفاته توفي سنة 1980م، ترجمته في معجم المؤلفين السوريين (ص: 93).

22 ـ عدنان مردم بك ولد في دمشق 1917م مارس المحاماة سبع سنوات والقضاء وصار مستشاراً في محكمة النقض والإبرام سنة 1962 صدرت له مجموعة دواوين ومسرحيات شعرية منها: (ديوان) عبير من دمشق، ونفحات شامية ـ ومسرحية جميل بثينة، ومصرع غرناطة (معجم المؤلفين السوريين ص: 477) توفي بدمشق 1988م.

23 ـ وليد قصاب: أديب وشاعر من دمشق ولد حوالي 1947م درس في مدارس وجامعة دمشق ونال من جامعة القاهرة درجة الدكتوراه في الأدب العربي ـ النقد، له باع في التأليف وتحقيق كتب التراث وعدد من دواوين الشعر.

الديوان الدمشقي: ص .543

24 ـ عبد الله يوركي حلاق: أديب وشاعر حلبي معاصر له عدة مؤلفات ودواوين شعرية. الديوان الدمشقي (524).

25 ـ أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي أشهر شعراء مطلع القرن العشرين ولد بالقاهرة 1285 هـ/ 1868م وتعلم في بعض المدارس الحكومية وقضى سنين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، ثم أوفد إلى فرنسا لدراسة الحقوق فاطلع على الأدب الفرنسي، ولما عاد سنة (1891)م عين رئيساً للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس. ثم نفي إلى إسبانية سنة 1915م فلما عاد سنة 1919م عين عضواً في مجلس الشيوخ وبقي فيه حتى توفي 1351 هـ/ 1932م عالج أكثر الفنون الشعرية وتناول فيه الأحداث السياسية والاجتماعية. وعاش مترفاً. له مسرحيات شعرية وديوان الشوقيات طُبع في أربعة أجزاء (الأعلام: 136/1).

26 ـ خير الدين الزركلي: سوري مؤرخ ومن أكابر الشعراء المناضلين ولد 1893م وتوفي ي 1976/11/25م. (ترجمته ومؤلفاته وبعض ما كتبه في مجلة أخبار التراث الإسلامي الصادرة في الكويت العدد: 12 ص: 24 ـ 26).

27 ـ نزار قباني: شاعر سوري فحل متميز معاصر دواوينه كثيرة مسكون بالمرأة فهي محور شعره الأساسي. تأثر بالشاعر خليل مردم بك من الذين شغلوا الرأي العام. نظم الشعر مبكراً ابن 16 سنة، نال إجازة الحقوق سنة 1944 من الجامعة السورية، وعمل

بالسلك الديبلوماسي.

أصدر حوالي 35 مجموعة شعرية في المرحلة الأولى من حياته جل نتاجه في الحب والمرأة والغزل. وفي عام النكسة عام 1967 تبدأ المرحلة الثانية يتميز شعره السياسي بالنقد المر الصارخ للواقع العربي والإدانة مع نبرات متفائلة بالأجيال القادمة.

ولد الشاعر عام 1341 هـ ـ 1923م وتوفي عام 1419 هـ ـ 1998م. ترجمته في إتمام الأعلام للدكتور نزار أباظة ومحمد رياض المالح ص 460 ـ 461.

28 ـ محمد مراد بن محمد بن يحيى السقاميني: أديب وشاعر من رجال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي. (ترجمته وبعض من شعره في ذيل نفحة الريحانة ص: 101 ـ 123) والديوان الدمشقي ص: 536. وبالمناسبة فأسرة السقاميني تنتسب إلى مهنة أمين السقاية وهو المهتم بسقاية الحجيج إلى بيت الله الحرام وتروى أيضاً السقا أميني.

29 ـ الشيخ شعبان بن محمد بن داود الموصلي، زين الدين، المعروف بالآثاري، أديب، شاعر مشارك في بعض العلوم، ولد بالموصل، واستوطن دمشق وتوفي بالقاهرة سنة 828 هـ/1425م، له مصنفات وديوان شعر (ترجمته في الأعلام للزركلي: 164/3 وشذرات الذهب 267/9).

❑❑

أديبات من دمشق

منى الحسن

مدخل

عرفت دمشق في العصر الحديث عدداً كبيراً من الأديبات اللواتي ولدن على أرضها إما لأُسر دمشقية، أو لأُسر قدمت إلى دمشق من بلدان أخرى خارجها، أو من محافظات أخرى بداخلها، وقد كان للأديبات إسهام كبير في المشهد الثقافي بدمشق من النشاطات الكثيرة التي أسهمن بها مما أثر إيجابياً في الحياة التعليمية والثقافية في هذه الحاضرة الكبرى من حواضر الأمة العربية، وهذه المقالة تسهم في هذا العدد الخاص الذي خصصته هيئة تحرير مجلة الموقف الأديب للحديث عن دمشق بمناسبة إعلانها عاصمة للثقافة العربية هذا العام وذلك بالتعريف ببعض الأديبات الدمشقيات اللواتي كانت لهن أدوار مختلفة في مراحل مختلفة من التاريخ الحديث لهذه المدينة العظيمة.

ماري عجمي: (1888-1965)

ماري بنت عبده بن يوسف عجمي أديبة نابغة وشاعرة ولدت في دمشق وفيها نشأت، وتلقت علومها الأولى في المدرستين الروسية والإيرلندية وتمكنت من اللغتين العربية والإنكليزية.

درست ماري فن التمريض في بيروت ولم تكمله؛ فالتفتت إلى التعليم في المدرسة الروسية وأتاح لها استقرارها أن تراسل عدداً من الصحف والمجلات بما تكتبه، مثل "المقتبس" في دمشق و"المهذب" في زحلة و"الإخاء" في حماة و"الحسناء" و"لسان الحال" في بيروت.

ارتبط اسم ماري عجمي باسم مجلة "العروس" التي أصدرتها أول مرة عام 1910–1914م. ثم استأنفت إصدارها 1918 –1925م ثم توقفت نهائياً. شاركت ماري عجمي في نظم الشعر، ونشرت شيئاً من شعرها وحظيت بجائزتين للشعر من الإذاعة البريطانية عامي 1946–1947م إحداهما عن قصيدة الفلّاح ومنها:

هو الزارعُ الفلاح لولا جهادُه
لما شِمْتَ بالريحان حُسْنَ المخايلِ
نبيٌّ فقد أوحى إلى القفر بالشذا
وعلّق أقراط الغصونِ الحوامل

وكثر اهتمامها في شعرها بقضايا اجتماعية مختلفة، وبحب طبيعة دمشق وغوطتها:

دمشقُ إذا غبت عن ناظري

فرسمُك في حسنه الزاهر

إذا فتّح الوردُ في روضتك

وغنّى الهزارُ على دوحتك

يهبُّ نسيمُ الصبا هاتفاً

أما والذي طاب من تربتك

بعد إيقاف مجلة العروس التفتت ماري إلى أعمالها الأخرى من التأليف والترجمة والكتابة في الصحف والمجلات ومراسلة بعض الإذاعات والانخراط في أنشطة عدد من الجمعيات الثقافية والاجتماعية ولاسيما في الجمعيات النسائية.

أقيم لماري عجمي أكثر من احتفال تكريمي في بيروت 1926 وحيفا 1929 ودمشق 1929 واستمرت شخصية أدبية واجتماعية مشهورة.

توفيت ماري في دمشق عن 77عاماً. بعد مرحلة مرض طويل في مدة عاشتها منعزلة عن الناس. نشرت جمعية الرابطة الثقافية النسائية في دمشق "مختارات من شعر ماري عجمي ونثرها" عام 1944م، وأصدرت وزارة الثقافة بدمشق "دوحة الذكرى" عام 1969، فيها مجموعة مختارة من آثارها.

عزيزة مريدة (1929-1992م)

باحثة، وناقدة أدبية، وأول أستاذة جامعية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة دمشق. اهتمت بدراسة أدب المهجر الجنوبي في رسالتها "القومية والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي" التي نالت بها شهادة الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة عام 1964، وبالقصة الشعرية في الأدب العربي الحديث التي نالت بها شهادة الدكتوراة من الجامعة نفسها عام 1966، وكانت الرسالتان بإشراف الأستاذة الدكتورة سهير القلماوي.

ولدت الأستاذة الدكتورة عزيزة مريدة في دمشق، وبعد أن نالت شهادة الدراسة الثانوية، انتسبت إلى دار المعلمات الابتدائية بدمشق لدراسة التربية وعلم النفس وأصول التدريس، وبعد تخرجها انتسبت إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة دمشق لمتابعة دراستها العليا، فنالت الليسانس في الآداب عام 1951، وبعد أن درّست عدة سنوات في ثانوية البنات الرسمية بدمشق سافرت إلى مصر للحصول على شهادة الماجستير من معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة ثم الدكتوراة. وبعد الانتهاء كلياً من دراستها، عُينت أول أستاذة في قسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة دمشق، وفي عام 1968 عينت أستاذة مساعدة حتى عام 1973 حين

سافرت إلى المغرب للتدريس في جامعة الملك محمد الخامس بالرباط، فظلت هناك ثلاث سنوات، عادت بعدها لتشغل وظيفة أستاذة في كلية الآداب بجامعة دمشق.

أعيرت عام 1980 إلى المملكة العربية السعودية حيث عملت في كلية البنات بجدة، فظلت فيها سنتين، قامت فيهما بالتدريس والإشراف على رسائل الماجستير للطالبات، وكانت في الوقت نفسه تشرف على رسائل الماجستير لطلابها في جامعة دمشق عن طريق المراسلة.

بعد عودتها إلى دمشق عكفت على التدريس والتأليف والبحث بجد واجتهاد، غير عابئة بالجهود المضنية التي تبذلها، إلى أن وافتها المنية في 7/25، وقد أقامت لها كلية الآداب في التاسع والعشرين من أيلول عام 1992 حفلاً تأبينياً في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد الوطنية.

وتقديرها لمكانتها الأدبية والعلمية، ولكونها أول عضوة في الهيئة التدريسية بجامعة دمشق، فقد أطلق اسمها على إحدى قاعات كلية الآداب.

آثارها:

1. الصراع بين النزعتين القومية والإنسانية عند شعراء المهجر الجنوبي.
2. القومية والإنسانية في الشعر المهجري الجنوبي.
3. دراسة نصوص من الشعر العربي المعاصر.
4. توفيق الحكيم: آراؤه في النقد والأدب.
5. القصة والرواية.
6. حركات الشعر في العصر الحديث.
7. القصة الشعرية في العصر الحديث.
8. المسرحية بين القومية والمحلية.

خديجة الجراح النشواتي: (1923-2000م)

أديبة وقاصة وروائية، ولدت في حي "سوق ساروجة" الشعبي بدمشق في أسرة محافظة جداً على العادات والتقاليد، ولم تكد تنال الشهادة الإعدادية حتى اختطفها الزواج فغرقت في خضم الإنجاب وتربية الأولاد والمسؤوليات العائلية، الأمر الذي صرفها كلياً عن متابعة الدراسة وممارسة الكتابة.

وكان أدب القصة أكثر مايستهويها، فقرأت روايات عالمية مترجمة، وروايات سورية ومصرية، وأعجبت، أكثر ما أعجبت، بروايات الروائي المصري محمد عبد الحليم عبد الله، كغصن الزيتون، وشجرة اللبلاب وغيرهما..

حين آنست من نفسها القدرة على الكتابة الصحيحة، أخذت تنشر قصصها في جرائد: الأيام والنصر والوحدة وصوت العرب، والأهرام والأخبار، وفي مجلات: الثقافة والأديب والحسناء ودنيا المرأة والمرأة العربية

والموقف الأدبي.. وانتسبت إلى اتحاد الكتاب العرب في بداية تأسيسه عام 1969، كما أخذت تشارك في الأمسيات القصصية والأدبية، وعُرفت في الأوساط الأدبية أديبة مرموقة، لها مكانتها المحترمة... كل ذلك شجعها على دخول عالم النشر، فنشرت أول مجموعة قصصية لها بعنوان "ذاكر ياترى؟" في دار مجلة الثقافة عام 1960. ثم نشرت عام 1970 مجموعة قصصية ثانية بعنوان "إليك" ضمت اثنتي عشرة قصة، وفي عام 1980 مجموعة قصصية ثالثة بعنوان "عندما يغدو المطر ثلجاً". كما ولجت ميدان الرواية فأصدرت عام 1973 رواية "أرصفة السأم" بالاشتراك مع الشاعرة هيام نويلاتي (1932–1977).

جميع قصص خديجة الجراح ـ كما يقول الدكتور إبراهيم الكيلاني ـ رومانسية الموضوع والأسلوب والهدف، حزينة، فيها خيال وفيها واقعية، وفيها فواجع وموت وخيبات ومرارة وبأس، كما أن فيها صراعاً عنيفاً من أجل الحياة، وصون أعز ماتملكه المرأة وهو الحب.

عفيفة الحصني: (1918-2003م)

عفيفة محمد الحصني شاعرة وكاتبة ومربية نشيطة ودؤوبة. ولدت في دمشق ودرست في مدارسها حتى نالت شهادة البكالوريا الأولى بفرعيها الأدبي والعلمي، ثم البكالوريا الثانية (فرع الفلسفة)، ونجحت في مسابقة لإتمام دراساتها العالية في فرنسا، لكن والدها لم يسمح لها بالسفر وحدها، فحول إيفادها إلى مصر، حيث انتسبت إلى قسم اللغة العربية وآدابها في معهد التربية، وتخرجت عام 1940.

عملت بعد تخرجها مدرسة للغة العربية في ثانويات دمشق، ثم كلفت عام 1953 إدارة ثانوية الميدان للبنات، وفي عام 1958 أعيرت إلى وزارة التربية المركزية بالقاهرة، لتكون عضواً في تخطيط مناهج اللغة العربية وأنشطتها في المرحلتين الإعدادية والثانوية، ثمّ عادت إلى دمشق لتمارس تدريس اللغة العربية حتى أحيلت على التقاعد عام 1978م.

كانت عضواً في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، ونقابة المعلمين، والندوة الثقافية النسائية، وجمعية المكفوفين وشاعرة وطنية وحماسية ملتزمة، ودؤوبة على حضور المحاضرات والأنشطة الأدبية والثقافية التي تقام في المنتديات والصالونات الأدبية والمراكز الثقافية، ومتابعة كل مايجري في دمشق من فعاليات، مع تقدمها في السن.

آثارها:

1ـ وفاء (شعر) .1966

2ـ شهيد التضحيات (شعر) .1970

3ـ ولاء (شعر) .1971

4ـ عازفة القيثار (شعر) .1979

5. المرأة في شعر أبي العلاء المعري (دراسة) 1980.
6. مرايا ونساء (دراسات) 1982.
7. سراب البحر (شعر) 1989.
8. رسالة المرأة (دراسات) 1994.
9. وطني (شعر) 2000.

أصدرت الشاعرة عفيفة الحصني ستة دواوين من الشعر العمودي الذي لم تتخلّ عنه.

ناجت من الطبيعة زهرة بخور مريم، وشجرة الزيتون، والشمس، والقمر، والشروق والبلبل، والمطر، ودمشق التي تقول فيها:

دمشقُ ياجنة باهتْ بغوطتها

سحرَ الفراديس تُبْديه البساتينُ

ياروضةً يعتلي أزهارَ أيكتها

عطرُ الخلود بعهد الحر مرهونُ

وأيضاً:

دمشقُ ياموطنَ الأحرار

شعبُ العروبة أبطالٌ عرانينُ

سلوا الحوادثَ عن أمجاد أمتنا

بدرٌ تُنَبِّئكم عنا وحطينُ

أما قسم المرأة فكانت قصائده أكثر عدداً، ركزت فيه على الأم بالدرجة الأولى مثل قصائد: نصيحة الأم، وإباء الأم، وهدية الأم، ونداء الأم، وطيف الأم وترنيمة الأم التي تقول فيها:

ولدي ياخفقةَ القلب الندي

يانسيمَ الروح، يالحنَ النشيد السرمدي

أنتَ في دنياي نورٌ يهزمُ الليلَ البهيمَ

نهلة الحمصي (1930-2006)

مربية وأديبة من مواليد دمشق. نالت إجازة في الآداب 1953 ودبلوم في التربية عام 1954 من الجامعة السورية كلية الآداب، وشهادة في البحث التربوي من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام 1984.

- عملت كمدرسة في ثانويات دمشق ودار المعلمات من عام 1945–1973 وعملت في وزارة التربية عضواً باحثاً في مديرية البحوث من عام 1973–1985. ثم انتقلت إلى الموسوعة العربية (في دمشق)، وعملت فيها محررة ممتازة، ثم خبيرة من عام 1985–2000. وقد وصلت في السلم الوظيفي إلى المرتبة الممتازة.

زوجة المرحوم الحقوقي والشاعر السوري عبد الرحمن الخزندار.

توفيت بعد رحلة طويلة من الكفاح والمثابرة على العمل والكتابة بالرغم مما

عانته من أمراض عضال. وقد أنجزت العديد من الدراسات والكتب الأدبية والقصص الصغيرة نشر بعضها ولم تتمكن من نشرت الآخر حيث وافتها المنية.

نتاجها الأدبي:

تنوع إنتاجها الأدبي فمن دراسات أدبية وتربوية إلى قصص من التراث وقصص قصيرة ومجموع قصص للأطفال. في أثناء عملها في الموسوعة العربية ساهمت في إعداد مايقارب السبعين بحثاً تخص الحضارة العربية.

1ـ **الدراسات الأدبية:** وقد نشر معظمها في المجلات السورية والسعودية والليبية منها:

ـ الصنعة والتصنيع في الأدب العربي الحديث.

ـ اللون في الأدب الحديث.

ـ المدينة في الشعر.

ـ غنوا ياأطفال مع سليمان العيسى.

2ـ **البحوث التربوية:** وقد نشر معظمها في مجلتي "صوت المعلمين" و"المعلم العربي" في سورية أهمها:

ـ التوجيه المهني للطلاب.

ـ قدسية التعليم وعزوف الشباب عنه.

ـ التعليم من أجل المستقبل.

ـ التربية غير النظامية (أو تعليم الكبار) ـ واقعها، مشكلاتها، وآفاقها.

ـ مستوى اللغة العربية في نهاية المرحلة الابتدائية وهي دراسة نظرية وميدانية معاً، نشرت في مجلة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام 1983.

3ـ **الموضوعات الاجتماعية:** وهي بحوث قدمت للمنظمة التونسية للأسرة من أهمها:

ـ دور الأسرة في توجيه الشباب.

ـ دور الأسرة في الإسلام.

4ـ الكتب والقصص المنشورة:

1ـ قصص من التراث:

ـ أبطال بين الحقيقة والخيال (1999).

ـ رجال وأدباء ـ أبطال ورحالة (1999).

ـ وهنا كان العرب أيضاً (2006).

2ـ قصص قصيرة: خصلة شعر أشقر (2006).

3ـ مجموعة قصص للأطفال:

ـ سلسلة المحبة والفرح للأطفال مابين 7−10 سنوات (1989).

ـ زائر من المريخ ـ قصة من الخيال العلمي (2007).

5ـ الكتب والقصص المنجزة غير المطبوعة:

1ـ قصص من التراث: كتب تنقل وكتب

تغسل.

2. دراسات أدبية: موسوعات وموسوعيون - مع الشعر.

3. دراسات تربوية: قضايا تربوية (كتاب في جزأين).

4- قصص قصيرة:

خواطر من الحياة والعمل: مجموعة قصص قصيرة واقعية من الحياة عاشتها الكاتبة.

- الكتاب الملعون.

وكانت الأديبة نهلة الحمصي قد بدأت بكتابة مذكراتها والتي أرادت منها نقل واقع الحياة في الأسر المتوسطة في دمشق في فترة الاحتلال الفرنسي على سورية، ثم في عهد الاستقلال وظهور الحركات التحررية العربية، ومتابعة تطور حياة المرأة السورية وتحررها في تلك الفترة التي عاشتها الكاتبة من دخولها الجامعة وميادين العمل والمشاركة في النشاطات الأدبية والثقافية المختلفة، ولكن يد المنون عاجلتها ولم تتمكن من إنهائها أو نشرها.

سلمى الحفار الكزبري: (1923-2006م)

ولدت في دمشق في بيت عريق اشتهر بالسياسة والوطنية والعلم، فوالدها لطفي الحفار، كان أحد أقطاب الكتلة الوطنية في سورية أيام الانتداب الفرنسي وبعد الاستقلال، ونائباً في البرلمان السوري عدة دورات، ووزيراً للمالية والداخلية ورئيساً للوزراء.

تلقت دراستها الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدرسة الراهبات بدمشق، أتقنت فيها اللغة الفرنسية وتعلمت الانكليزية، كما درست العلوم السياسية بالمراسلة في الجامعة اليسوعية في بيروت وكان لمكتبة والدها الغنية بكتب التراث العربي فضل كبير في إغناء ثقافتها.

تزوجت عام 1941 من محمد كرامي شقيق الزعيم اللبناني عبد الحميد كرامي ورزقت منه طفلاً، لكنها ترملت بعد ولادته بشهر، ثم تزوجت عام 1948 من الدكتور نادر الكزبري وأنجبت منه ابنتين وكان أستاذاً في كلية الحقوق بجامعة دمشق، ثم سفيراً لسورية في الأرجنتين وتشيلي وإسبانيا، وقد استطاعت في مدة إقامتهما في هذه البلدان تعلّم اللغة الإسبانية.

أسست عام 1945 مع رفيقاتها الشابات جمعية "مبرّة التعليم والمواساة" التي أخذت على عاتقها تربية الأطفال اللقطاء منذ ولادتهم حتى بلوغهم السنة السابعة من العمر، وشاركت في عدة مؤتمرات نسائية وألقت الكثير من المحاضرات بالعربية والفرنسية والإسبانية في كل من دمشق وإسبانيا والأرجنتين وإيران وبغداد وبيروت وتونس.

شغفت بالموسيقا الكلاسيكية وتعلمت

العزف على البيانو منذ طفولتها كما أولعت بالرياضة، وتعرفت في أسفارها الكثيرة في أوروبا والأمريكتين والهند وإيران على مشاهير الأدباء والشعراء، وتبادلت معهم الرسائل ونالت جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام 1995، كما فازت بجائزة البحر الأبيض المتوسط الأدبية من جامعة بالرمو في صقلية عام 1980، ووسام "شريط السيدة" من إسبانيا عام 1965.

كتبت سلمى في معظم الفنون الأدبية، وتنوعت كتبها بين القصة القصيرة والرواية والسيرة والشعر والمقالة والدراسة الأدبية والتحقيق فمن قصصها القصيرة "هرمان" 1952، و"زوايا" 1955، و"الغريبة" 1966، و"حزن الأشجار" 1986.

ومن رواياتها: "عينان من أشبيلية" 1965، و"البرتقال المر" 1975.. ولها في السيرة "نساء متفوقات" 1961 و"عنبر ورماد" سيرة ذاتية 1970، "جورج صاند" 1979، و"مي زيادة أو مأساة النبوغ" 1987.

كما قامت بجمع رسائل جبران خليل جبران التي كتبها إلى مي زيادة ونشرتها. تحت عنوان "الشعلة الزرقاء" 1979، و"رسائل مي زيادة إلى أعلام عصرها" 1982. وجمعت أربع محاضرات من محاضراتها ونشرتها عام 1971 بعنوان "في ظلال الأندلس". كذلك أصدرت ثلاثة دواوين باللغة الفرنسية هي: "نفحات الأمس" 1966 و"الوردة الوحيدة" 1985، و"بوح"، ديواناً واحداً باللغة الاسبانية عنوانه "عشية الرحيل".

أما مقالاتها فقد جمعتها في كتاب "الحب بعد الخمسين" صدر عام 1989 وأهدته إلى والدها لطفي الحفار.

وقد أصدرت كتاب "لطفي الحفار - مذكراته وحياته وعصره".

إن حب سلمى للعمل والأسرة والناس والفنون، والتزامها باحترام الوقت، هو الذي أتاح لها أن تنشر هذا العدد الوافر من الكتب التي بلغ عددها ثلاثة وعشرين كتاباً، وأن تلقى الكثير من المحاضرات في الشرق والغرب، وأن تؤدي واجباتها كزوجة سفير وتربي ثلاثة أولاد، وتهتم بأصدقائها وبالموسيقا والطبيعة والشعر والفن.

ألفة عمر باشا الإدلبي: (1912-2007م)

ولدت الأديبة ألفة عمر باشا الإدلبي في دمشق، وتلقت علومها في مدرسة التجهيز، وتزوجت عام 1929 من الدكتور حمدي الإدلبي. ظهر ميلها إلى الأدب وهي صغيرة، حتى إن أحد أساتذتها تنبأ لها بأنها ستصبح أديبة مرموقة يوماً ما. وهذا ماحدث فعلاً، فقد كانت تقرأ عشر ساعات متواصلة يومياً، تنتقل فيها بين الأدب القديم والحديث والمترجم، إلا أن قراءة القصة كانت هوايتها الأثيرة.

لقد أحبت دمشق بكل مافيها، وحرصت على كل تقليد من تقاليدها في الأفراح والأتراح، ولذلك سجلت في قصصها ماكان يتردد في هذه المناسبات من زغاريد وأمثال وخرافات، لتصونها من الضياع والاندثار، فلا تمحى من الكتب إذا هي محيت من الأذهان.

ففي قصة "الرُّقية المجربة" تقول على لسان إحدى المحتفلات بالعرس الدمشقي:

حصّنتك بياسين

يازهر البساتين

ياورد وسوسن

على رؤوس السلاطين

ويرد عليها فوج آخر من الصبايا بزغردة أشد حماسة:

لأنت طويلة شامخة

ولا قصيرة هابطة

وياحلاوة سكرية

طبخناها البارحة

إن وصفها للمسحّر في شهر رمضان، والعرس الشامي، والدار الشامية في أكثر أقاصيصها يعطي هذه الأقاصيص قيمة متحفية كبيرة يجد فيها الباحث عن الفولكلور الدمشقي متعة ما بعدها متعة، كذلك تختار أبطال هذه القصص من الأحياء الشعبية القديمة.

ومن هنا كان لقصص السيدة ألفة الإدلبي هذه النكهة الخاصة، وتلك الأهمية عند المستشرقين، لذلك أقبلوا على قراءتها وترجمتها إلى لغاتهم المختلفة، باعتبارها تعكس صورة الحياة الشامية منذ مطلع القرن العشرين، فنقلت إلى اللغات الروسية والفرنسية والإنكليزية والصينية والبلغارية. ولعل اهتمامها باللون المحلي في قصصها هو الذي دفع الناقد الكبير مارون عبود (1886–1962م) لتقدير قصصها فراح يقول لها: "إن أرضنا بور ياسيدتي، فلنحرثها أولاً، ثم ننقل سكننا إلى الأراضي المجهولة، إلى الأرض الموات لنحييها وتصير لنا.. حسبها في كتابها "قصص شامية" أنها فتحت طاقة تطل على البيوت الشامية، فصورت بعض نواح من نواحينا الشرقية!... فخير للكاتب أو الكاتبة أن يكون له غرفة، بل كوخ من صنع يديه، من أن تكون له دار بالأجرة".

من الصعب الإحاطة بكل ماكتبته الأديبة السيدة ألفة الإدلبي في ميادين القصة القصيرة والدراسة الأدبية، ولذلك نذكر مؤلفاتها بحسب تسلسل صدورها:

1ـ قصص شامية، 1954 قصة.

2ـ وداعاً يادمشق 1963 قصص.

3ـ المنوليا في دمشق وأحاديث أخرى 1964

محاضرات.

4. ويضحك الشيطان 1970 قصص.

5. نظرة في أدبنا الشعبي ـ دراسة ـ 1974.

6. عصي الدمع ـ قصص 1976.

7. دمشق يابسمة الحزن ـ رواية ـ 1980.

8. حكايا جدي ـ رواية للفتيان ـ 1990.

9. نفحات دمشقية 1990.

10ـ وداع الأحبة ـ رثاءات ـ 1992.

11ـ ماوراء الأشياء الجميلة 1996.

12ـ عادات وتقاليد الحارات الدمشقية 1996.

خاتمة:

وهكذا نأتي إلى ختام هذه المقالة الموجزة التي عرفت باختصار ببعض الأديبات الدمشقيات اللواتي عرفهن العصر الحديث أملاً بأن يظل ذكرهن راسخاً في أبناء هذا الجيل والأجيال اللاحقة من أبناء سورية والأمة العربية.

❑❑

أعلام

أعلام دمشقيون من ثلاثة قرون

عبد القادر محمود الأرناؤوط

مدخل

لقد اقتضت حكمة الله عزّ وجل أن تكون دمشق الشام من أهم حواضر العرب والمسلمين الكبرى التي انتقلت إليها بواكير العلوم من المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى عقب الفتوحات العظيمة التي حرّرت بلاد الشام وغيرها من البلدان العربية والإسلامية آنذاك من الذل والقهر والعيش تحت ظل تسلط الفرس والروم قبل تلك الفتوحات العظيمة. وسرعان ما انتشرت في هذه الحاضرة الكبرى حلقات العلم فتحولت دمشق مع مرّ الأيام إلى مركز إشعاعٍ عظيم للحضارة العربية الإسلامية ثم انتقل نورها بعد ذلك إلى جميع أصقاع الأرض. وكان للتاريخ والحديث النبوي الشريف نصيب وافر من الانتشار من بين العلوم والفنون العربية الإسلامية الأخرى في دمشق الشام منذ تلك الفترة، فنشطت فيها مجالس العلم خلال القرون الهجرية الثمانية الأولى منها بشكل ملحوظ، يُقرُّ بذلك أهل العلم جميعاً من عرب ومسلمين ومستعربين أيضاً، وقد كانت القرون الثلاثة الأخيرة منها – السادس والسابع والثامن – من أهم القرون التي نبغ فيها عددٌ كبيرٌ من العلماء الأعلام في التاريخ والحديث معاً، لأن التاريخ والحديث فنان متداخلان تداخلاً عظيماً بسبب دراسة أسانيد النصوص الحديثية وحاجة المحدّثين إلى معرفة حال رواتها المقبول حديثه منهم، والمردود حديثه أيضاً بسبب ضعف صاحبه أو اتهامه بالكذب، أو الوهم، أو النسيان في أحسن الحالات. وحين قررت كتابة هذا البحث وصدرته بهذا العنوان خطر في بالي التعريف بثلاثة من الأعلام الكبار الذين عرفتهم دمشق الشام في القرون الثلاثة التي أشرت إليها، نظراً لأن كل واحد منهم قد جمع فيما وضعه من مؤلفات وصنفه من مصنفات بين فني التاريخ والحديث، أملاً مني في أن أسلط الأضواء

على أمثال هؤلاء الأعلام الكبار وأذكِّر بهم، وهم من الذين أثروا الحركة العلمية العظيمة في بلاد الشام في تلك الفترات الذهبية من الزمن بآثار يرتفع رأس دمشق بها عالياً أمام الحواضر والعواصم الأخرى، ولو كان حيّز هذه المقالة يتسع للكلام على غيرهم من العلماء والأعلام الذين كانت لهم أدوار هامة جداً في خدمة العلم ونشره في دمشق الشام على مرّ الأيام لفعلت، ولكن لا يمكن لمقالة واحدة بعدد صفحاتها القليلة أن تتسع لمثل ما دار في خاطري كتابته في هذا الأمر، فاقتصرت على التعريف بهؤلاء الأعلام الثلاثة، إشارة إلى مكانتهم ولفتاً لأنظار أبناء هذا الجيل والأجيال اللاحقة إلى ما كان لهم من فضل على أمر العلم والثقافة الأصيلة من أثر عظيم سيبقى مذكوراً بالخير ما دام في الدنيا من ينطق بالضاد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(1)
عبد الغني المقدسي

هو الإمام المُحَدِّث المحقّق المؤرِّخ حافظ عصره، تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر الجَمَّاعيلي(1) المقدسي ثم الدمشقي، صاحب «الكمال في أسماء الرجال» و«عمدة الأحكام» و«النصيحة في الأدعية الصحية» و«الاقتصاد في الاعتقاد» و«أشراط الساعة» و«تلخيص كتاب الكنى» و«اعتقاد الإمام الشافعي» و«الجامع الصغير لأحكام البشير النزير» و«محنة الإمام أحمد بن حنبل» وغير ذلك من المصنفات الكثيرة النافعة.

وقد انتهى إليه حفظ الحديث متناً وإسناداً ومعرفة بفنون، مع الورع والعبادة والتمسك بالأثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة(2) بجمَّاعيل، وكان قدومه مع أسرته من بيت المقدس إلى مسجد أبي صالح خارج الباب الشرقي لمدينة دمشق أولاً. ثم انتقلت أسرته إلى سفح جبل قاسيون، فبنوا داراً تحتوي على عدد كبير من الحجرات دعيت بـ «دير الحنابلة» ثم شرعوا في بناء أو مدرسة في جبل قاسيون، وهي المعروفة بـ «المدرسة العمرية»(3)، وقد عرفت تلك الضاحية التي سكنوها بالصَّالحيَّة فيما بعد نسبةً إليهم، لأنهم كانوا من أهل العلم والصلاح.

وقد نشرت هذه الأسرة الجليلة المذهب الحنبلي في الشام، فانتشرت مدارس المذهب لا في الصالحية فحسب، بل في دمشق ذاتها، وكثر أتباع هذا المذهب في ضواحيها، كدومة(4) والرُّحَيبة، الضُمَيْر، وبَعْلَبَك، وأثرت هجرتهم في مذهب الإمام أحمد، فقد استطاعوا بدراساتهم وتآليفهم الفقهية أن يوجدوا كتباً قيمة في مذهب الإمام أصبحت

عمدة المذهب الحنبلي في أيامنا، وأثّروا أيضاً في علم الحديث، وظلوا نحو مئة عام يُعَدُّون من فطاحل علماء الحديث، وانتشرت في عصرهم دور الحديث في الصالحية ودمشق، وأدخلوا على هذا العلم اتجاهات جديدة كان لها أكبر الأثر في تنسيق علوم الحديث وتصنيف أبحاثه المتعددة.

وقد تتلمذ الحافظ عبد الغني في صغره على عميد أسرته العلَّامة الفاضل الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ثم تتلمذ على شيوخ دمشق وعلمائها، فأخذ عنهم الفقه وغيره من العلوم، ثم قصد بغداد سنة (560هـ) ونزل عند الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه شيئاً من الفقه والحديث، وأقام عنده نحو أربعين يوماً، بعدها مات الشيخ الجيلاني، فأخذ عن الشيخ أبي الفتح بن المني الفقه والخلاف، ثم رحل إلى أصبهان فمكث فيها وقتاً طويلاً يدرس ويدرِّس إلى أن عاد إلى بغداد مرة ثانية سنة (578هـ)، فحدَّث بها، وانتقل من ثَمَّ إلى دمشق، فأخذ يقرأ الحديث في رواق الحنابلة من مسجد دمشق الأموي، فاجتمع الناس عليه، وكان رقيق القلب سريع الدمعة، فحصل له قبول من الناس عظيم، فحسده بنو الزَّكي، وبنو الدَّولعي، وجهزوا النَّاصح ابن الحنبلي فتكلم تحت قبة النسر في المسجد الأموي، وأمروه أن يجهر بصوته ما أمكنه حتى يشوش على الحافظ عبد الغني، وعند ذلك حوّل الحافظ ميعاد درسه إلى ما بعد العصر، فذكر يوماً عقيدته، فثار عليه القاضي ابن زكي الدين، وضياء الدين الدَّوْلَعي فعقدا له مجلساً في قلعه دمشق يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة (595هـ)، وتكلموا معه في مسألة العلّو، ومسألة النزول، ومسألة الحرف والصوت، وطال الكلام، فظهر عليهم الحافظ عبد الغني بالحجة، فقال له الصارم برغش والي القلعة: كل هؤلاء على ضلال وأنت على حق؟ فقال نعم، فأرسلوا من كسر منبره في الجامع، ومنعوه من الجلوس فيه، فضاق ذرعاً ورحل إلى بَعْلَبَك، ومنها إلى مصر، فنزل عند الطحانين، وصار يقرأ الحديث، فنفق سوقه، وصار له حشد وأصحاب، فثار عليه الفقهاء بمصر أيضاً، وكتبوا إلى الوزير صفي الدين بن شكر فأقرّ نفيه إلى المغرب، غير أن الحافظ عبد الغني مات قبل وصول كتاب النقي إليه.

كان لا يضيّع شيئاً من وقته، يصلي الفجر، ويقرأ القرآن أو الحديث، ثم يتوضأ ويصلي الكثير من النفل إلى قبيل الظهر، ثم ينام سويعة، ثم يصلي الظهر ويقبل على التسميع والتسبيح إلى صلاة العصر فيصليها، ويتابع ما كان عليه إلى الغروب، فيفطر إن كان صائماً، ويصلي المغرب، وينتقل إلى العشاء فيصليها وينام إلى نصف الليل ثم يستيقظ فيتوضأ ويصلي إلى قبيل الفجر فينام

قليلاً، ثم يستيقظ لصلاة الفجر، وهكذا دواليك.

وكان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آية بيّنة، يكسر الشبابات والطنابير، ويُريق الخمور، لا تأخذه في الله لومة لائم.

وكان جواداً لا يدّخر ديناراً ولا درهماً، فجمع إلى السخاء بالعلم السخاء بالمال، ولذا كان محبباً عند الناس جميعاً.

لقد وصفه جمع من مشاهير العلماء بأوصاف كثيرة تنبئ عن تمكنه من علم الحديث، وتحليقه في إطار علم الرجال، وصفاء سريرته، وقوة اعتقاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وغضبه لانتهاك حدود الله عزّ وجلّ.

قال ضياء الدين المقدسي: كان لا يُسأل عن حديث إلا ذكره وبيّنه، وذكر صحته أو سقمه، وكان يقال: هو أمير المؤمنين في الحديث جاء إليه رجل فقال: رجل حلف بالطلاق أنك تحفظ مئة ألف حديث، فقال: لو قال أكثر من هذا العدد لصدق.

وقال أيضاً: رأيت فيما ير النائم وأنا بمرو، كأن الحافظ عبد الغني جالس والإمام البخاري يقرأ عليه من جزء أو كتاب، وكأن الحافظ عبد الغني يرّد عليه شيئاً.

وقال تاج الدين الكندي: لم ير الحافظ عبد الغني مثل نفسه، ولم يكن بعد الدارقطني مثله.

وقال ابن ناصر الدين: هو محدِّث الإسلام وأحد الأئمة المبرزين الأعلام، ذو ورعٍ وعبادة وتمسك بالآثار، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

وقال ابن رجب: امتحن الشيخ ودُعي إلى أن يقول لفظي بالقرآن مخلوق، فأبى فمنع من التَّحديث، وأفتى أصحاب التأويل بإراقة دمه، فسافر إلى مصر وأقام بها إلى أن مات.

وقال فيه أبو نزار ربيعة بن الحسن.

يا أصْدَقَ النَّاس في بدوٍ وفي
وأحفظ النّــاس فيما قالت الرّسُلُ

إن يَحْسِدُوك فلا تعبأ بقائلهم
هم الغثاء وأنت السَّيِّدُ البَطَلُ

وكان إذا مر بأصبهان يصطف الناس في السوق فينظرون إليه، ولو أقام بأصبهان مدة وأراد يملكها لملكها من حبهم له ورغبتهم فيه، ولما وصل إلى مصر أخيراً كان إذا خرج يوم الجمعة إلى الجامع لا يقدر يمشي من كثرة الخلق يجتمعون حوله.

وقال الشيخ موفق الدِّين بن قدامة المقدسي: كان رفيقي، وما كنا نستبق إلى خير إلا سبقني إليه إلا القليل، وكمّل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدع وقيامهم عليه، وقد رزق العلم وتحصيل الكتب الكثيرة إلا أنه لم يُعمَّر حتى يبلغ غرضه في روايتها ونشرها.

وقال سبط ابن الجوزي: كان ورعاً، زاهداً، عابداً، يقوم أكثر الليل، وكان كريماً جواداً، لا يدّخر شيئاً، يتصدق على الأرامل والأيتام حيث لا يراه أحد، وكان يرقّع ثوبه، ويؤثر بثمن الجديد، وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء وكان أوحد زمانه في علم الحديث والحفظ.

وقال ابن كثير: رحم الله الحافظ عبد الغني فقد كان نادراً في زمانه في الحديث وأسماء الرجال.

وقال السيوطي: كان غزير الحفظ والإتقان، وقيّماً بجميع فنون الحديث، كثير العبادة، ورعاً، ماشياً على قانون السلف، وكان لا يسأله أحد عن حديث إلاّ ذكره له، ولا عن رجل إلاّ قال: هو فلان ابن فلان ونسبه.

قال ولده الحافظ أبو موسى ابن بنت الشيخ أبي عمر بن قدامة زوجة الحافظ عبد الغني قال لي والدي في مرضه الذي مات فيه: يا بني أوصيك بتقوى الله والمحافظة على طاعته، فجاء جماعة يعودونه فسلّموا عليه فردّ عليهم السلام وجعلوا يتحدثون، ففتح عينيه وقال: ما هذا الحديث؟ اذكروا الله وقولوا: لا إله إلا الله، فقالوها ثم قاموا، فجعل يذكر الله ويحرّك شفتيه يذكره، ويشير بعينه، فدخل رجل فسلّم عليه وقال له: ما تعرفني يا سيدي، فقال بلى فقمت لأناوله كتاباً من جانب المسجد، فرجعت وقد خرجت روحه، وذلك يوم الاثنين الثالث والعشرون من ربيع الأول، ودفناه يوم الثلاثاء بالقرافة مقابل قبر الشيخ أبي عمرو بن مرزوق.

(2)
محيي الدِّين بن شرف النّووي(5)

هو الإمام القدوة الحافظ المؤرخ الزاهد العابد الفقيه المجتهد الرَّبَّاني يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي الدمشقي، أبو زكريا صاحب «روضة الطالبين» و«رياض الصالحين» و«تهذيب الأسماء واللغات» و«الأذكار» و«الأربعين» و«المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج» وغير ذلك من المصنفات المفيدة النافعة.

ولد في نوى من أرض حوران في الجنوب الغربي من سورية، وذلك في العشر الأوسط من شهر الله المحرّم سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ونشأ نشأة صالحة، وشرع بحفظ القرآن الكريم وهو صغير، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره قدم به والده إلى دمشق لطلب العلم، فسكن المدرسة الرواحية، وأخذ العلم عن جمهرة غفيرة من العلماء الكبار في الشام آنذاك، منهم الرضي بن البرهان، وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد الأنصاري، وزين الدين عبد الدائم، والقاضي التفليسي، وغيرهم.

قال هو: وبقيت نحو سنتين لم أضع

جنبي إلى الأرض. وكان قوتي فيها جراية المدرسة لا غير. وحفظت «التنبيه» في نحو أربعة أشهر ونصف.

قال: وقرأت وحفظت ربع «المهذَّب» في باقي السنة، وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا كمال الدين إسحاق المغربي ولازمته، فأعجب بي وأحبني، وجعلني أعيد لأكثر جماعته.

ثم حج مع والده، فذكر والده قال: لما توجهنا من نوى، أخذته الحُمَّى، فلم تفارقه إلى يوم عرفة ولم يتأوه قطُّ. قال: وذكر صاحبه الشيخ أبو الحسن علي بن العطار أن الشيخ محيي الدين حدَّثه، أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ، شرحاً، وتصحيحاً، درسين في «الوسيط» ودرساً في «المهذب»، ودرساً في «الجمع بين الصحيحين» ودرساً في «صحيح مسلم»ودرساً في «اللّمع» لابن جنّي، ودرساً في «إصلاح المنطق»لابن السِّكِّيت ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، تارة في «اللُّمع» لأبي إسحاق وتارة في «المنتخب» لفخر الدِّين ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدِّين وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها، من شرح مشكل، ووضوح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي وخطر لي الاشتغال في علم الطب، فاشتريت كتاب «القانون» وعزمت على الاشتغال فيه، فأظلم على قلبي، وبقيت أيَّاماً لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت في أمري، من أين دخل عليَّ الداخل، فألهمني الله أن سببه اشتغالي بالطِّب، فبعت «القانون» في الحال واستنار قلبي.

وقد لاحت عليه أَمَارات النُّجابة والفهم، فاتفق أنه أقام بالمدينة المنورة شهراً ونصفاً، وتعلل في أكثر الطريق، ورجع وأكب على طلب العلم ليلاً ونهاراً اشتغالاً، فضرب به المثل، وهجر النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته إلا بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة، أو التردد إلى الشيوخ، وأكثر من رواية الدواوين الكبار، وقرأ «الكمال» للحافظ عبد الغني عل الزين خالد، وسمع «الصحيحين» على المحدِّث أبي إسحاق بن عيسى المُرَادي، وأخذ الأصول عن القاضي التفليسي، والفقه عن الكمال إسحاق، وشمس الدين بن نوح، وعز الدين عمر الإربلي، والعربية عن الشيخ أحمد المصري، وعن ابن مالك.

ولازم الاشتغال والتصنيف، والإفادة، محتسباً في ذلك، مبتغياً وجه الله، مع التعبّد، والصوم، والتهجد، والذكر والأوراد وحفظ الجوارح وذمِّ النفس.

تخرَّج به أئمة منهم الخطيب صدر الدِّين سليمان الجعفري، وشهاب الدين أحمد ابن جعوان والقاضي شهاب الدين الإربدي، والمفتي علاء الدين بن العطار.

وحدَّث عنه ابن أبي الفتح، والمِزِّي،

وجماعة.

وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر، يقبل شيئاً يسيراً ممن لا يشتغل عليه. قد أهدى له فقيرٌ إبريقاً فقبله، وعزم عليه صاحبه الخطيب برهان الدين الإسكندراني أن يفطر معه، فقال: هات الطعام ونفطر معاً، فأكل منه وكان لونين، وقل إن كان يأكل إدامين.

وكان قليل الضحك. عديم اللعب، بل هو جدٌّ صرفٌ، يقول الحق وإن كان عليه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ويواجه الأمراء والظلم بالإنكار، ويكتب إليهم، ويخوفهم بالله.

كتب مرة من عبد الله يحيى النَّووي، سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المحسن ملك الأمراء، بدر الدين أدام الله له الخيرات، وتوّلاه بالحسنات، وبلّغه من خيرات الدنيا والآخرة كل آماله، وبارك له في جميع أحواله آمين، أن أهل الشام في ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار، و ذكر فصلاً طويلاً، وفي طي ذلك ورقة إلى الملك الظاهر فرد جوابها رداً عنيفاً مؤلماً، فتلبدت خواطر الجماعة.

وله غير رسالة إلى الملك الظّاهر في النّهي عن المُنكرات.

ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية مع صغر سنه، ونزول روايته في حياة مشايخه بعد الإمام أبي شامة المقدسي، فما أجد ما مكنه فيما بلغني، بل كان يجيئه من والده شيء يقتات منه، واشترى بالجامكية كتباً وفقهاً.

لقد وصفه جمع من مشاهير الأعلام بأوصاف كثيرة:

قال الشيخ الرشيد الحنفي ابن المعلِّم: عذلت الشيخ محيي الدين في تركه الحمَّام وضيق العيش، وخوّفته من مرض يعطِّله عن العلم، فقال: إن فلاناً صام حتى أخضر جلده.

كان رحمه الله يمتنع جملة من أكل الخيار والفاكهة، ويقول: أخاف ترطبني وتجلب النوم.

وقال ابن العطار: كان قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل بالعلم، وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد العشاء الآخرة، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السَّحر، ولم يتزوج.

وقال أيضاً: كلمته في الفاكهة، فقال: دمشق كثيرة الآوقاف، وأملاك المحجور عليهم، ثم المعاملة فيها على وجه المساقاة، وفيها حلف، فكيف تطيب نفسي بأكل ذلك.

قال الذهبي: لزم الاشتغال ليلاً ونهاراً نحو عشرين سنة، حتَّى فاق الأقران، وتقدم على جميع الطلبة، وحاز قصب السبق في العلم والعمل ثم أخذ في التصنيف من حدود الستين وستمائة إلى أن مات. وكان مع تبحره

في العلم وسَعَة معرفته بالحديث، والفقه، واللغة وغير ذلك مما قد سارت به الرّكبان، رأساً في الزُّهد، وقدوةً في الورع، عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قانعاً باليسير، راضياً عن الله والله راضٍ عنه، مقتصداً إلى الغاية في ملبسه، ومطعمه، وأثاثه، تعلوه سكينة وهيبة، فالله يرحمه ويسكنه الجنة بمنه.

وكان تؤثر عنه كرامات وأحوال.

وكان أسمر، كث اللحية، ربعة، مهيباً، لا يرى الجدال ولا تعجبه المغالبة، ويتأذى ممن يُجادل ويُعرض عنه، وقلمه أبسط عن عبارته، رحمه الله تعالى، فقد كان عديم النظير.

وقال قطب الدين موسى اليونيني شيخنا: كان أوحد زمانه في العلم والزُّهد والورع والعبادة والتقلل من الدنيا وخشونة العيش، واقف الملك الظاهر بدار العمل غير مرة، فحكي عنه قال: أنا أفزع من هذا.

وقال الفقيه شمس الدين محمد بن الفخر: كان إماماً بارعاً حافظاً مفتياً، اتقن علوماً شتى، وصنَّف التصانيف الحسنة، وكان شديد الورع والزهد، تاركاً لجميع ملاذ الدنيا من المآكل، إلا ما يأتيه به أبوه من كعك وتين، وكان يلبس الثياب الرثة المرقعة، ولا يدخل حماماً، وترك الفواكه جميعها، ولم يتناول من الجهات.

وقال ابن ناصر الدين: هو الحافظ القدوة الإمام، شيخ الإسلام. كان فقيه الأمة وعلم الأئمة.

وقال الإسنوي: كان في لحيته شعرات بيض، وعليه سكينة ووقار في البحث مع الفقهاء، وفي غيره، ولم يزل على ذلك إلى أن سافر إلى بلده، وزار القدس والخليل، ثم عاد إليها فمرض بها عند أبويه.

وتوفي ليلة الأربعاء رابع عشري رجب سنة ست وسبعين وست مئة، ودفن ببلده رحمه الله ورضي عنه.

(3)
ابن كثير الدمشقي

هو الإمام الحافظ المؤرخ المفسّر الفقيه عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عُمر بن كثير بن ضوء بن كثير البصروي الدمشقي الشافعي(7).

صاحب «تفسير القرآن العظيم» و«البداية والنهاية» و«جامع المسانيد والسنن» و«اختصار علوم الحديث» و«شرح التنبيه» و«تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب» وغير ذلك من المصنفات المفيدة النافعة.

ولد في مجيدل القرية التابعة لبصرى الشام، وهي قرية والدته مريم بنت فرح بن علي وكان والده قد أسند إليه الخطابة بها، فأقام فيها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة

كثيرة، انتقل بعد ذلك إلى دمشق صحبة شقيقه كمال الدين عبد الوهاب سنة (707هـ) بعد موت أبيه.

وفي دمشق لقي عالماً من الشيوخ، وكانت دمشق آنذاك مركزاً أصيلاً من مراكز العلم في العالم الإسلامي، كانت تحفل بدور القرآن، ومعاهد العلم من المدارس والمساجد، ولقد أفاد ابن كثير من لقاء أعلام عصره. بدأ بطلب العلم على يد أخيه كمال الدين، ثم على يد كبار علماء دمشق، حفظ القرآن الكريم وعمره (10) سنوات، وقرأ القراءات، وبرع في التفسير ودرس الفقه على كبار علماء دمشق منهم برهان الدين الفزاري، وكمال الدين ابن قاضي شهبة، وسمع من الحجّار، والقاسم ابن عساكر وشهاب الدين ابن الشحنة، والشيخ علم الدين البرزالي، والحافظ جمال الدين أبا الحجاج المِزّي ولزم شيخ الإسلام ابن تيميّة وقرأ عليه واستفاد منه، وكان لملازمته له أثر كبير في تكوين شخصيته، فقد تأثر به في جوانب الفكر والعقيدة والاجتهاد، بينما تأثر في دراسته للتاريخ والحديث بشيخه الحافظ المِزّي، الذي أصهر إليه وتزوج ابنته زينب، وكان لصحبته له وقربه منه أثر واضح في مؤلفاته، وبرع في الفقه والتفسير والحديث، ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ، وقرأ في الأصول على الأصبهاني وألّف في صغره «أحكام التنبيه». ثم أقبل على الحديث، فاشتغل بمطالعة متونه ورجاله، فسمع «الموطأ» للإمام مالك، و«الجامع الصحيح» للإمام البخاري، و«الجامع الصحيح» للإمام مسلم، و«سنن الدارقطني» وشيئاً من «السنن الكبرى» للبيهقي، وسمع «مسند الشافعي» وغير ذلك من المصنفات الحديثية وهو لا يزال في مقتبل العمر.

وأجازه من مصر عدد كبير من العلماء. وكان ابن كثير كثير الاستحضار، قليل النسيان، حسن المفاكهة، جيد الفهم، يشارك في العربية وينظم نظماً وسطاً، ومن نظمه قوله:

تمرُّ بنا الأيامُ تَتْرَى وإنّما
نُساقُ إلى الآجال والعين تَنْظُرُ
فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذي
ولازائلٌ هذاالمشيبُ المُكَدَرُ

انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير.

وكان له تلاميذ كُثر. ولقد وصفه جمع من مشاهير العلماء بأوصاف كثيرة.

قال الحافظ الذهبي في «المعجم المختص» فقال عنه «الإمام المحدِّث المفتي البارع» ووصفه بحفظ المتون وكثرة الاستحضار جماعة، منهم الحسيني، وابن العرافي.

وقال ابن حِجّي: «ما اجتمعت به قط إلا

استفدت منه، وقد لازمته ست سنين».

وقال ابن حبيب: «إمام ذوي التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل سمع وصنّف، وأطرب الأسماع بأقواله وشنّف(8)، وحدَّث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه في البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير».

وقال ابن حجر: «كان كثير الاستحضار، وسارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس به بعد وفاته، ولم يكن على طريق المحدِّثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النَّازل ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من مُحّدِّثي الفقهاء».

وعقب الحافظ السيوطي على كلام الحافظ ابن حجر هذا في «طبقات الحفاظ» بقوله: «قلت: العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث من سقيمه، وعلله واختلاف طرقه ورجاله جرحاً وتعديلاً، وأما العالي والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات لا من الأصول المهمة».

وقال غيره كما قاله ابن قاضي شهبة في «طبقاته» كانت له خصوصية بابن تيميَّة ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك وأوذي، وقد وافاه الأجل . رحمه الله . في شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيميَّة رحمهما الله تعالى رحمة واسعة وأسكنهما فسيح جنانه. رثاه بعض طلبته بقوله:

لفقدك طلاب العلوم تأسَّفوا
وجادوا بدمع لا يبيدُ غزيزِ
ولو مَزجوا ماء المدامع بالدِّما
لكان قليلاً فيك يا ابن كثيرِ

خاتمة

وهكذا فقد قدَّمنا سير ثلاثة من أعلام علماء الشام في ثلاثة من القرون الزاهية أنموذجاً عن علماء تلك الفترة الذهبية من تاريخ الأمة العربية والإسلامية أيام كانت تتربع باقتدار على عرش الثقافة العالمية، أملاً بأن يقتدي أبناء هذا الجيل والأجيال اللاحقة من مثقفي أمتنا العربية والإسلامية بأمثال أولئك العلماء الأعلام الذين سطّروا بأقلامهم صفحات ستبقى مذكورة بالخير ما دام في الدنيا من يقرأ تراث أمتنا المجيد.

الهوامش

(1) نسبة إلى جَمَّاعِيْل: قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين ردها الله تعالى إلى المسلمين بفضله ومنه وكرمه. انظر «معجم البلدان: لياقوت (159/1).

(2) كذا في معظم المصادر، قال ابن

النجار في «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» ص (304): سئل – يعني الحافظ عبد الغني – عن مولده، فقال: أظنه في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقال الحافظ المنذري في «التكملة لوفيات النقلة» (19/2): ومولده في صفر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة.

(3) هذه المدرسة كانت من خيرة مدارس المسلمين في ذلك العصر، خرَّجت عدداً كبيراً من العلماء وكانت فيها مكتبة عظيمة عزَّ نظيرها. انظر «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية» لابن طولون (248/1) بتحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

(4) دومة بالتاء كانت قرية كبيرة في عصر المؤلف، وقد تحولت في أيامنا إلى مدينة صغيرة، تبعد عن دمشق عشرين كيلو متراً تقريباً، وقد تحرف اسمها في عصرنا إلى «دوما» انظر «معجم البلدان» (486/2).

(5) قال ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» (7/ 618): «بحذف الألف ويجوز إثباتها». أي يقال في نسبته: (النووي) أو (النواوي).

(6) زاد الإمام تقي الدين الفاسي في نسبه فقال: (القرشي الخصيلي الجعفري) انظر كتابه «تعريف ذوي العُلا بمن لم يذكره الذهبي من النبلا» ص (219).

(7) شنّف الآذان بكلامه: أمتع بها. انظر «المعجم الوسيط» (496/1).

مراجع البحث

1- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

2- البداية والنهاية، لابن كثير، (الجزء السابع عشر) تحقيق جدِّي العلَّامة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق.

3- تعريف ذوي العلا بمن لم يذكره الذهبي من النبلا، لتقي الدين الفاسي، تحقيق والدي وأستاذي الأستاذ محمود عبد القادر الأرناؤوط، والأستاذ أكرم البوشي، دار صادر بيروت.

4- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا، مؤسسة علوم القرآن، المنار للنشر والتوزيع، بيروت.

5- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق والدي وأستاذي

الأستاذ محمود عبد القادر الأرناؤوط، بإشراف جدِّي العلَّامة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق.

6- طبقات الحفاظ، للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة بالقاهرة.

7- عمدة الأحكام من كلام خير الأنام، تأليف الحافظ عبد الغني المقدسي، تحقيق والدي وأستاذي محمود عبد القادر الأرناؤوط، مراجعة جدِّي العلَّامة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار المأمون للتراث، دمشق.

8- فتاوى الإمام النووي، لابن العطار، تحقيق والدي وأستاذي الأستاذ محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، دمشق.

9- مقالاتي في مجلة التراث العربي، تأليف والدي وأستاذي الأستاذ محمود عبد القادر الأرناؤوط، تقديم الأستاذ الدكتور محمود الربداوي، مؤسسة النوري، دمشق.

10- مقدمة تحقيق كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، بقلم والدي وأستاذي الأستاذ محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق.

11- مولد رسول الله ﷺ ورضاعة، لابن كثير تحقيق والدي وأستاذي الأستاذ محمود عبد القادر الأرناؤوط والأستاذ ياسين محمد السواس، دار ابن كثير دمشق.

ابن الحاجب عالم عصره في الشام

د. أحمد الزبيبي

يحقٌّ للأمم أن تفخر بعظمائها وأذكيائها، وأن تردِّدَ سيرهم وتراجمهم، ولاسيما من كان له دورٌ مبرِّزٌ في الدفاع عن عقيدتها، وعن عزتها وكرامتها، وفي الإنكار على روح التقاعس والانهزام أمام الاعداء.

ومن هؤلاء الأعلام الذين كان لهم هذا الشرف العلامة ابن الحاجب الذي يعدُّ بحقٍّ عالِمَ عصره، ومن قادته العظماء الذين كان لهم في أحداث عصرهم مواقفُ شامخةُ سجّلها لهم التاريخ بأحرف من نور، ومن أذكيائه الفضلاء الذين أثْروا بإنتاجهم العلمي الثرّ العلم والمعرفة أيما إثراء.

وفي حديثنا عن هذا العلَمِ نقسم الدراسة إلى مبحثين: نتحدّث في الأول عن عصره، وفي الثاني عن سيرته الذاتية والعلمية.

المبحث الأول: عصر ابن الحاجب

تمهيد:

عاش ابن الحاجب في الثلث الأخير من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجري. ومن المعلوم أنّ هذه الحقبة الزمنية كانت جزءاً من دور الضعف والانهيار الذي مُنِيَتْ به الخلافةُ العباسية بوجهٍ خاصٍ والبلادُ الإسلامية بوجهٍ عام، ولقد تجلّت مظاهر هذا الضّعف في أمورٍ ثلاثة:

1 ـ تعدّد الدّول والملوك.

2 ـ التعرّض للهجمات الصّليبية الحاقدة من الغرب(1).

3 ـ التّعرض للاجتياح المغولي الهمجي من الشرق(2).

وممّا لاشك فيه أنّ الإنسان ـ أياً كان ـ يتأثّر بالبيئة التي يعيش فيها ويتفاعل معها؛ بحيث تنعكس آثارها على شخصيته سلباً أو إيجاباً، وذلك من مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعلمية. وسوف نركز في دراستنا لهذا العصر على الناحية السياسية والعلمية فقط، ولعلّ في ذلك ما يكفي لإعطاء صورةٍ واضحةٍ عن أهم

المؤثرات في شخصية ابن الحاجب.

أولاً: عصره من الناحية السياسية:

أنهى صلاح الدين الأيوبي حكم الفاطميين في مصر لمّا مات العاضد آخر خليفة لهم في العاشر من المحرّم سنة (567هـ) ثم بدأ في إصلاحاته السياسية والعلمية والاجتماعية والعسكرية.

ففي عام (570هـ) أحكم سيطرته على الدّيار المصرية بعد أن قضى على الفتن التي أشعلها جماعة من السودان والأعراب بصعيد مصر في مدينة طَوْد بزعامة رجلٍ يدعى الكنز(3) ثمّ اتجه بعد ذلك إلى دمشق وانتزعها من أيدي الزنكيين، وأصبح سيد الموقف في مصر والشام.

كما استطاع أن يقهر الصّليبيين، فاستردّ منهم بيت المقدس سنة (583هـ) وتابع تحرير فلسطين والساحل السوري حتى توفّاه الله تعالى سنة (598هـ) والحرب ما تزال بينه وبينهم مستمرة(4).

وبعد وفاته ـ رحمه الله ـ وقعت العداوة والفرقة بين حكام الإمارات والمدن من أبنائه وإخوته، وتآمر بعضهم على بعضٍ وتحاربوا. فهذا الملك الكامل في مصر يعطي ملك الفرنج فردريك القدس صلحاً سنة (626هـ) ليحاربَ ابنَ أخيه الناصر داود بن المعظم صاحب الكَرَك. وكذلك كان في شأن الملك الصالح إسماعيل بن العادل حاكم دمشق حين اعتضد بالفرنج وسلّمهم الشقيف(5) وصيدا وغير ذلك من حصون المسلمين لينصروه على ابن أخيه الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر، وكان قد بلغ به الخوف منه مبلغاً "منعه المنام والطعام والشراب"(6)!! وعندئذ هبَّ في وجهه سلطان العلماء العز بن عبد السلام(7) والعلامة ابن الحاجب، وأنكرا عليه صلحه مع الصليبيين وتقاعسه عن قتالهم، فأمر بحبسهما ثم أطلقهما بعد مدّة وأمرهما أن يخرجا من بلده، فخرجا إلى القاهرة سنة (638هـ). وقد سجّل التاريخ لهما هذا الموقف بأحرف من نور دون بقية رجالات دمشق وعلمائها الذين خنعوا للصالح إسماعيل.

وكان لهذه الصراعات والنزاعات أثر سيئ على البلاد فانتشرت الأوبئة والمجاعات(8). ولازالت الدولة الأيوبية تزداد ضعفاً إلى أن سقطت سنة (648هـ) وقامت على أنقاضها دولة المماليك البحرية.

ثانياً: عصره من الناحية العلمية:

شهدت بلاد الشام ومصر في العصر الأيوبي نهضة علمية كبيرة، فأقبل كثير من الأمراء على العلم، كما حظي العلماء بتشجيع الحكام وتأييدهم. وكان من مظاهر ذلك الاهتمامُ بإنشاء المدارس التي تعتبر بمثابة جامعات كبيرة مهمتها تدريس العلوم الإسلامية المختلفة. ومن أهم هذه المدارس: الناصرية والكاملية والصالحية في مصر،

والصلاحية في دمشق.

ويمكن تشبيه هذا العصر من الناحية العلمية بعصر المأمون من حيث النشاط ووفرة الإنتاج العلمي. يقول ول ديورانت متحدّثاً عن تلك الحقبة: "وجرى الحكام المسلمون جميعهم بل صغار الملوك أنفسهم على سنة الخلفاء العباسيين في مناصرة الآداب والفنون.. وإنْ كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشدّدهم في الدِّين، فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كلَّ خارجٍ على السنة من المسلمين... وقصارى القولِ: إنّ هذا العصر كان عصر اضمحلالٍ متلألئ ساطع"(9).

ويعود سبب هذا النشاط الثقافي الواسع إلى هجرة العلماء من الشرق والغرب إلى مصر وبلاد الشام، وذلك لأنّ الدولة الأيوبية كانت سنية العقيدة، وكان من أهم أهدافها القضاء على العقيدة الفاطمية التي نادى بها الخلفاء الفاطميون في مصر. ومن أجل تحقيق هذه الغاية قامت بإنشاء المدارس واستقدمت العلماء والفقهاء من أهل السنة كي يقوموا بمهمة التدريس بها، وهيأت لهم البيئة الصالحة وجرى مدّهم بالمعونات والمساعدات(10).

وترتّب على ذلك أن أصبحت القاهرة بشكل خاص ـ وهي التي نشأ بها ابن الحاجب ـ تموج بعددٍ كبير من العلماء والفقهاء. ولذا يمكننا أن نقول: إنه قد توفر لابن الحاجب بيئة ثقافية خصبة ساعدت على تهيئته للنبوغ والشهرة.

ونشير أخيراً إلى أنّ الفتن المذهبية كانت قائمة في الداخل، وأنّ الصّراع بين الباطنية وأهل السنة والجماعة كان على أشدِّه. كما كان الخلاف محتدماً بين الحشوية من الحنابلة وجمهور المسلمين، مما أدّى إلى حصول الفتنة، وتدخل الحكام في هذا الصراع. ولإبراز دور ابن الحاجب الهام في إعادة الحق إلى نصابه أنقل ما أورده السبكي في ترجمة سلطان العلماء العز بن عبد السلام باختصار وتصرّف يسير. قال: إن طائفة من مبتدعة الحنابلة قد صحبهم الأشرف في صغره يكرهون الشيخ عز الدين ويطعنون فيه، فقرروا في ذهن الأشرف أن الشيخ أشعري العقيدة يخطّئ من يعتقد الحرف والصوت ويبدِّعه.

فكتبوا فتيا في مسألة الكلام وأوصلوها إليه مريدين أن يكتب عليها بذلك، فيسقط موضعه عند الأشرف. فلما وصلت الفتيا إلى الأشرف استشاط غضباً وقال: صحّ عندي ما قالوه عنه. وكان ذلك في رمضان وعنده على سماطه عامة الفقهاء من جميع الأقطار، فلم يستطع أحدٌ منهم أن يردّ عليه. وأقام الحق سبحانه وتعالى الشيخ العلامة جمال الدين أبا عمرو بن الحاجب المالكي، وكان عالم مذهبه في زمانه، وقد جمع بين العلم والعمل في هذه القضية فمضى إلى

القضاة والعلماء والأعيان الذين حضروا هذه القضية، وشدَّد عليهم النكير وقال: العجب أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل وما فيكم مَنْ نطق بالحق وسكتم، وما انتخيتم لله تعالى وللشريعة المطهرة: "ولم يزل يوبخهم ويعنفهم إلى أن اصطلح معهم على أن يكتب فتيا بصورة الحال، ويكتبوا فيها بموافقة ابن عبد السلام، فوافقوه على ذلك وأخذ خطوطهم بموافقته.

والتمس ابن عبد السلام من الأشرف أن يعقد مجلساً للشافعية والحنابلة ويحضره المالكية والحنفية وغيرهم من علماء المسلمين، وذكر له أنه أخذ خطوط الفقهاء الذين كانوا بمجلس السلطان لما قرئت عليه الفتوى بموافقتهم له، وأنهم لم يمكنهم الكلام بحضرته في ذلك الوقت لغضبه.

فلما وصل هذا إلى الأشرف أجاب الشيخ عز الدين بجواب شديد مضمونه: منع عقد المجلس للمناظرة.

فأجابه الشيخ عز الدين عن كتابه بجواب سديد كانت نتيجته: أن الأشرف منع الشيخ عز الدين من الفتوى ومن الاجتماع بأحد وأمره بلزوم بيته، وبقي الشيخ على هذه الحالة ثلاثة أيامٍ.

ثم التقى الشيخ العلامة جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية في زمانه بالملك الأشرف، فقال له الشيخ: أَيْش بينك وبين ابن عبد السلام؟ وهذا رجلٌ لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا لكان للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده ويفخر به على سائر الملوك. قال السلطان: عندي خطُّه باعتقاده في فتيا، وخطُّه أيضاً في رقعةِ جوابِ رقعةٍ سيّرتها إليه فيقف الشيخ عليهما، ويكون الحكم بيني وبينه. ثم أحضر الورقتين، فقرأهما الحصيري وقال: هذا اعتقاد المسلمين، وشعار الصالحين، ويقين المؤمنين، وكل ما فيهما صحيح... فقال الأشرف: نحن نستغفر الله تعالى مما جرى ونستدرك

الفارط في حقّه، واسترضاه وطلب محاللته ومخاللته.(11)

وبهذا الجهد الطيب من الصديق المخلص لسلطان العلماء العلامة ابن الحاجب عاد الحق إلى نصابه، وعرف الأشرف مكانة العز وقدره.

المبحث الثاني: سيرته الذاتية والعلمية

أولاً: اسمه ونسبه:

هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكردي، الدُّويني، الإسنائي، المصري، الدمشقي، الإسكندري، المالكي. هذا هو اسمه باتفاق جميع المصادر التي ترجمت له.وأما ما جاء نسبه:

فالكرديُّ: لأنّ والده من الأكراد.

والدُّويني: لأنّ أصله من "دُوِين" وهي بلدة من نواحي أران في آخر حدود

أذربيجان، منها ملوك الشام ومصر من بني أيوب(12).

والإسنائي: نسبة إلى (إسْنَا) وهي بلدة شهيرة بالصعيد الأعلى من مصر، من أعمال القُوصية، تقع على الشاطئ الغربي للنيل(13). ولد بها ابن الحاجب.

والمصري: نسبة إلى مصر (القاهرة) التي نشأ بها وتعلّم.

والدمشقي: نسبة إلى دمشق التي استوطن بها فترة من الزمان، وسمع من علمائها ودرّس وعلّم.

والمالكي: نسبة إلى مذهب الإمام مالك في الفقه الإسلامي. وقد تفقّه ابن الحاجب على هذا المذهب، وأفتى به، وأصبح "شيخ المالكية في زمانه"(14).

ثانياً: كنيته وألقابه:

يكنى صاحبنا بأبي عمرو، ويلقّب بجمال الدِّين، ويعرف بابن الحاجب لأنّ أباه كان حاجباً للأمير عز الدين مُوسَك الصلاحي. هذا ما ذُكِرَ في أغلب الكتب التي ترجمت له؛ إلا أنّ الأدفوني حكى رواية لبعض المؤرخين وفيها أن أباه لم يكن حاجباً؛ وإنما كان يصحب بعض الأمراء؛ فلما مات كان أبو عمرو صبياً فربّاه الحاجب فَعُرِفَ به. ثم عقّب عليها بقوله: "والأوّل أشهر"(15).

ثالثاً: ولادته، ونشأته، ووفاته:

ولد ابن الحاجب بصعيد مصر في أواخر عام (570هـ) على أرجح الأقوال(16). انتقل به أبوه إلى القاهرة وهو لا يزال صغيراً، وفيها بدأ تحصيله العلمي، فحفظ القرآن الكريم، ودرسَ العلومَ المتصلة به كالفقه وأصوله، ثم اشتغل بالعربية والقراءات، وبرع فيما درسه وأتقنه غاية الإتقان ولا سيما الأصول والعربية(17).

ثم رحلَ في طلب العلم فدخل دمشق وسمع من علمائها، ولزمَ الاشتغال حتى ضُرِبَ به المثل، وتكرَّرَ دخوله إليها للاستفادة حيناً وللتدريس أحياناً، وآخر ما دخلها سنة (617هـ) إذ أقام بها مدرساً في الزاوية المالكية في الجامع الأموي(18) وفي المدرسة النورية(19) أيضاً. فأكبَّ عليه الفضلاء وانتفعوا به كثيراً، وصار شيخاً لجمهور الدارسين في علمي القراءات والعربية(20).

ثم نزح عن دمشق بصحبة العزِّ بن عبد السلام سنة (638هـ) ـ كما سبق ذكره ـ وعاد إلى القاهرة، وهناك تصدّر بالمدرسة الفاضلية، وجلس موضع أستاذه الشاطبي، فقصده الطلبة وانتفعوا به كثيراً(21).

وأخيراً ألقى عصا التسيار في الإسكندرية، ولم تطل مدّته هناك حيث توفي ضحوة يوم الخميس السادس والعشرين من

شوال سنة (646هـ)(22) ودفن خارجها في المقبرة التي بين المنارة والبلد(23)، وله ست وسبعون سنة(24).

ورثاه تلميذه ابن المنيِّر (25) بهذه الأبيات:

ألا أيُّها المختالُ في مَطْرِفِ العُمْرِ

هَلُمَّ إلى قَبْرِ الفقيهِ أبي عَمْرِو

ترى العلمَ والآدابَ والفضل والتقى

ونيلَ المنى والعزّ غُيبِّنَ في قَبْرِ

فتدعو له الرحمنَ دعوةَ رحمةٍ

يكافأ بها في مثْلِ منزلهِ القَفْرِ(26)

رابعاً: شيوخه:

درس ابن الحاجب العلوم الدينية والعربية بمختلف فنونها على كبار أساتذة عصره وأئمة العلم فيه. وسنقتصر على ذكر تراجم موجزة لأهمهم.

1 ـ الشاطِبي: هو القاسم بن فِيْرُّه بن خلف بن أحمد، أبو محمد الشاطبي الرُّعَيْني الضرير. إمام القراء، ومصنف "الشاطبية" في القراءات السبع. وكان عالماً بالحديث والتفسير واللغة. تولّى مشيخة الإقراء بالفاضلية في القاهرة وبها توفي سنة (590هـ)(27) قرأ عليه ابنُ الحاجب ببعض الروايات، وسمع منه "التيسير" و"الشاطبية"(28) وسمعَ منه أيضاً الحديث، وتأدّب عليه(29).

2 ـ البوصيري: هبة الله بن علي بن ثابت بن مسعود الأنصاري، أبو القاسم البوصيري، الكاتب، الأديب. مسند الديار المصرية. حدَّث بالقاهرة والإسكندرية، وتفرّد في زمانه، ورُحِلَ إليه. توفي سنة (598هـ)(30) سمعَ ابنُ الحاجب منه الحديث، كما سمعه من إسماعيل بن ياسين وجماعة(31).

3 ـ أبو الفضل الغزنوي: محمد بن يوسف بن علي بن شهاب الدين، أبو الفضل الغزنوي المقرئ، النحوي، الفقيه. تصدَّر للإقراء، ودرّس المذهب بمسجد الغزنوي المعروف به. مات بالقاهرة سنة (599هـ)(32) قرأ عليه ابنُ الحاجب جميع القراءات(33).

4 ـ القاسم بن عساكر: هو القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله، أبو محمد بن عساكر الدمشقي الشافعي. محدّث من أهل دمشق. كان حسن المعرفة، شديد الورع، كثير المزاح. تولّى مشيخة دار الحديث النورية بعد والده صاحب التاريخ الكبير. مات سنة (600هـ)(34) سمع منه ابنُ الحاجب بدمشق(35).

5 ـ أبو الجود اللخمي: هو غياث بن فارس بن سكن: أبو الجود اللخمي، المنذري، المصري، المقرئ، الفرضي، النحوي، شيخ القراء بالديار المصرية. وكان ديِّناً، فاضلاً،

بارعاً في الأدب، متواضعاً، كثير المروءة. توفي سنة (605هـ)(36). قرأ عليه ابن الحاجب القراءات(37).

6 - أبو الحسن الأبياري: علي بن إسماعيل بن علي، الفقيه، الأصولي، المتكلّم. كان بعض الأئمة يفضّله على فخر الدين الرازي في الأصول. درّس بالإسكندرية وتوفي سنة (618هـ)(38). تفقّه عليه ابنُ الحاجب، وعليه اعتماده(39).

7 - أبو الحسن الشاذلي: هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، أبو الحسن الشاذلي المغربي. رأسُ الطائفة الشاذلية. وهو رجل كبير القدر، كثير الكلام، عالي المقام. كان العز بن عبد السلام يخضر مجلسه ويعجب به. وكان ضريراً. مات بصحراء عيذاب وهو متوجّه إلى الحج سنة (656هـ)(40) قرأ عليه ابنُ الحاجب "الشفاء" وغيره(41).

خامساً: تلاميذه:

كان ابن الحاجب محطَّ أنظار طلبة العلم حيثما حلّ وأينما نزل. ونذكرها هنا تراجم موجزة لأهمِّ تلاميذه في البلاد المتفرّقة التي أقام بها.

1 - الشهاب القرافي: هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن القرافي، الصنهاجي، المصري، المالكي، أبو العباس. الفقيه، الأصولي، المفسّر، المتكلّم. انتهت إليه رئاسة المالكية في عصره. له مؤلفات مفيدة منها: "التنقيح في أصول الفقه"، و"الذخيرة في الفقه" من أجل كتب المالكية، و"شرح الأربعين" للرازي في أصول الدين. مات سنة (684هـ)(42).

2 - ابن المُنَيِّر: هو ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور الإسكندراني، المالكي، أبو العباس. المفسّر، الفقيه، الأديب. ولي قضاء الإسكندرية وخطابتها مرتين. من تصانيفه. "تفسير القرآن" و"تفسير حديث الإسراء على طريقة المتكلمين" و"مختصر التهذيب" في الفقه. توفي سنة (683هـ)(43).

3 - المنذري: هو الحافظ الكبير زكي الدين أبو محمد، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المصري الشافعي. أصله من الشام، ومولده ووفاته بمصر. ولي مشيخة الكاملية، وانقطع بها نحو عشرين عاماً. وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث بمختلف فنونه، إماماً حجّة، بارعاً في الفقه والعربية والقراءات. توفي سنة (656هـ)(44).

4 - القسنطيني: هو الإمام أبو بكر بن عمر بن علي بن سالم، رضي الدين القسنطيني، النحوي، الشافعي. من كبار أئمة اللغة، وله معرفة تامة بالفقه، ومشاركة في الحديث. ولد ونشأ في القدس. وكان صالحاً، خيّراً، ديّناً، متواضعاً. مات سنة (695هـ)(45).

5 - ابن مَلِّي: نجم الدين أحمد بن محسن، المعروف بابن مَلِّي الأنصاري،

البعلبكي، الشافعي، المتكلّم. ولد ببعلبك، واشتغل بدمشق. قرأ النحو على ابن الحاجب، وأحكم الأصول والكلام والفلسفة، وعُرِفَ عنه علمٌ غزير. توفي سنة (699هـ)(46).

سادساً: صفاته الشخصية ومكانته العلمية:

حبا الله عزّ وجلّ شخص ابن الحاجب كثيراً من الصفات الكريمة والخصال الحميدة، فكان بحقٍّ مثلاً صالحاً للعلماء الأتقياء المحسنين، الأوفياء المخلصين. وصفه أبو شامة فقال: "كان من أذكى الأمة قريحة، وكان ثقة، حجّة، متواضعاً، عفيفاً، كثير الحياء، منصفاً، محباً للعلم وأهله، ناشراً له، محتملاً للأذى، صبوراً على البلوى"(47).

وقال فيه معاصره الحافظ عمر بن الحاجب الأميني: "هو فقيهٌ، مفتٍ مناظرٌ، مبرِّزٌ في عدَّة علوم، متبحرٌ، مع دين وورع وتواضع واحتمال واطِّراحٍ للتكليف(48).

وبهذه الصفات الجليلة استكمل ابن الحاجب مقومات الشخصية العلمية الفذَّة؛ التي أهّلته لأن يكون من أبرز علماء مصر والشام في العصر الأيوبي. ونذكرها هنا جملةً من أقوال العلماء في الثناء عليه وبيان مكانته وتضلعه في العلوم المختلفة:

1 ـ قال أبو شامة: "كان ركناً من أركان الدين في العلم والعمل، بارعاً في العلوم الأصولية وتحقيق علم العربية، متقناً لمذهب مالك بن أنس رحمه الله"(49).

2 ـ قال ابن خلّكان: "تبحّر في الفنون، وكان الأغلب عليه علم العربية"(50).

3 ـ قال الحافظ الذهبي: "كان من أذكياء العالم، رأساً في العربية وعلم النظر"(51).

4 ـ قال الحافظ ابن كثير: "حرّر النحو تحريراً بليغاً، وتفقّه وساد أهل عصره، ثم كان رأساً في علوم كثيرة منها الأصول والفروع والعربية والتصريف والعروض والتفسير وغير ذلك"(52).

5 ـ قال الشيخ محمد بن مخلوف التونسي: "الفقيه، الأصولي، المتكلّم، النّظّار، خاتمة الأئمة المبرِّزين الأخيار، العلاّمة المتبحر، إمام التحقيق، وفارس الإتقان والتدقيق"(53).

6 ـ قال الشيخ عبد الله المراغي: "كان رحمه الله إماماً، فاضلاً، فقيهاً، أصولياً، متكلّماً، نظاراً، مبرِّزاً، علامةً، متبحراً، محقّقاً، أديباً، شاعراً"(54).

سابعاً: آثاره العلمية:

ألّف ابن الحاجب في مختلف العلوم الإسلامية، و"رُزِقَ السَّعْدَ في تصانيفه: شَرَّقت وغَرَّبت، واعتني بشرحها"(55) وهي في غاية التحقيق والإجادة(56).

قال الأدفوني موضحاً سبب عناية العلماء بآثار ابن الحاجب: "انتفع الناسُ بتصانيفه لما فيها من كثرة النقل مع صغر الحجم وتحرير اللفظ(57). وعلّل ذلك السيوطي بقوله: "ورُزِقَتْ تصانيفه قبولاً تاماً لحسنها وجزالتها"(58) ولا غَرْوَ في ذلك وهو البليغ الضَّليع. قال الإمام أبو الفتح محمد بن علي القشيري في حقّه: "تيسرتْ له البلاغة فتفيأ في ظلّها الظّليل، وتفجّرت ينابيع الحكمة فكان خاطره ببطن المسيل، وقرّب المرمى فخفف الحِمْلَ الثقيل، وقام بوظيفة الإيجاز فناداه لسان الإنصاف ما على المحسنين من سبيل"(59).

وهذه هي مؤلفاته مقسّمة حسب العلوم:

1ً ـ النحو والصرف:

1 ـ الكافية: وهي مقدمة وجيزة في النحو، اختصر بها ابن الحاجب "مفصل" الزمخشري طبقت شهرتها الآفاق، وأخذ العلماء يشرحونها ويعربونها ويختصرونها، ومن أعظم شروحها وأدقّها شرح رضي الدين الاستراباذي. طبعت عدة طبعات منها طبعة بولاق سنة (1241هـ)(60).

2 ـ الشافية: أجمل فيها مسائل الصّرف والخط، وبلغت من الشهرة ما بلغته أختها الكافية. طبعت عدّة مرّات مع شروحها، منها طبعة الآستانة (1850م) وعدّة طبعات في القاهرة(61).

3 ـ شرح الكافية: نسخه المخطوطة كثيرة، وقد طبع في استانبول سنة (1311هـ) (62) ثم حقّقه جمال عبد العاطي مخيمر ونال به درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة القاهرة.

4 ـ شرح الشافية: ذكره ابن خلكان، والأدفوني، والسيوطي، وحاجي خليفة.(63) وقال بروكلمان: توجد منه نسخة في بولون رقم (316)(64).

5 ـ الوافية في نظم الكافية: في (980) بيتاً. ذكرها السيوطي ومخلوف(65). وقال بروكلمان: توجد منها نسخة مخطوطة في مكتبة الأسكريال رقم (146)(66).

6 ـ شرح الوافية: ألفه نزولاً عند رغبة الملك الناصر(67). حقّقه طارق نجم عبد الله ونال به درجة الماجستير من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر. وطبع في العراق سنة (1980م) بتحقيق الدكتور موسى بناي العليلي.

7 ـ الإيضاح في شرح المفصل للزمخشري: حقّقه وقدّم له موسى بناي العليلي، وحصل به على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة (1975م) وطبع في بغداد برعاية وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سنة (1982) وقام بدراسته وتحقيقه أيضاً إبراهيم عبد الله ونال به درجة الدكتوراه من كلية الآداب في جامعة دمشق سنة (1993م).

8 - الأمالي: في النحو. أملاها ابن الحاجب في أماكن مختلفة: القاهرة، ودمشق، وبيت المقدس. تحدّث فيها عن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وعن أبيات من شواهد "المفصل" للزمخشري، وبعض أشعار المتنبي وغيره، وعن مواضع من كافيته، وأشياء أخرى متفرّقة. قام بدراستها وتحقيقها فخر صالح سليمان قدارة، ونال بها درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر. طبعت في بيروت دار الجيل، وعمان دار عمار عام (1409هـ).

9 - القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة: عدد أبياتها (23) بيتاً. طبعت عدّة طبعات لا تخلو من الخطأ، ومنها نشرة لويس شيخو في بيروت (1908م) ثم طبعت في مجلة اللسان العربي(68) ص 27 - 30 بتحقيق إحسان جعفر، العدد (21) سنة (1982م - 1983م).

10 - رسالة في العَشْر: هي بحث صغير في استعمال كلمة (عشر) مع الصفتين (أول وآخر). توجد منها نسخة مخطوطة في مكتبة برلين رقم (6894)(69) وهي موجودة أيضاً آخر نسخة الأمالي الموجودة في مكتبة شهيد علي باستانبول رقم (2337)(70).

11 - شرح كتاب سيبويه: ذكره حاجي خليفة، وإسماعيل باشا البغدادي(71).

12 - المكتفي للمبتدئ: شرح فيه ابن الحاجب "مختصر الإيضاح" لعبد القاهر الجرجاني. و"الإيضاح" كتاب في النحو لأبي علي الفارسي(72).

13 - شرح المقدمة الجزولية: ذكره بروكلمان وقال: إنه توجد منه نسخة خطية محفوظة في جامع القرويين بفاس رقم (1198)(73) والمقدمة الجزولية من تصنيف أبي موسى عيسى بن عبد العزيز يَلَّبَخْت المتوفى سنة (607هـ) في علم النحو.

4 - إعراب بعض آيات من القرآن العظيم: ذكر بروكلمان أنه موجود في مكة المكرمة(74).

15 - الإمامي: في النحو. انفرد بذكره الشيخ عبد الله المراغي.(75).

2ً ـ الفقه والأصول:

1 - **منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل:** اختصر به كتاب "الإحكام في أصول الأحكام" لسيف الدين الآمدي المتوفى سنة (631هـ) واستوعب عامة فوائده طبع مراراً.

2 - مختصر المنتهى: ويسمّى أيضاً: مختصر ابن الحاجب الأصلي "وهو مختصر غريب في صنعه، بديع في فنه، لغاية إيجازه يضاهي الألغاز، وبحسن إيراده يحاكي الإعجاز، واعتنى بشأنه الفضلاء"(76) طبع عدّة طبعات منها طبعة بولاق(1316هـ).

3 - عيون الأدلة: وهو أيضاً اختصار

آخر لكتابه "المنتهى" توجد منه نسخة مخطوطة في باريس رقم (5318)(77).

4 - **جامع الأمهات:** ويسمّى أيضاً: مختصر ابن الحاجب الفرعي أو الفقهي. وهو من "أحسن المختصرات؛ انتظم فيه فوائد ابن شاش"(78) ويقال: "إنه اختصره من ستين ديواناً، وفيه ست وستون ألف مسألة"(79) توجد منه عدّة نسخ محفوظة: في الجزائر رقم (1074) وفاس رقم (982) وتونس رقم (761)(80).

3ً ـ علم الكلام:

1 - **عقيدة ابن الحاجب:** وهي عقيدة مختصرة ذكر فيها ابن الحاجب ما يجب اعتقاده مجرّداً عن الأدلة. وتسمى أيضاً بـ: "الحاجبية". نسبها لابن الحاجب:

أ - أبو زكريا السراج المتوفى سنة (805هـ) في "الفهرسة" ونقل ذلك عنه التنبكتي المتوفى سنة (1036هـ) في نيل الابتهاج ص 280، والمقري المتوفى سنة (1041هـ) في نفخ الطيب (7/ 337).

ب - الوَرْثِيْلاني: الحسين بن محمد المتوفى سنة (1193هـ) في رحلته المسماة بـ: "الرحلة الورثيلانية" ص 653.

جـ - مرتضى الزبيدي المتوفى سنة (1205هـ) في "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين" في مواضع متعددة.(81).

د - حاجي خليفة في كشف الظنون (1/ 356) وفي (2/ 1157) أيضاً وقالَ أولَها: الحمد لله مبدع الأكوان الآفاقية... الخ. وهذا وهم منه، والصّواب: أنّ المذكور هو مطلع شرحها "تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب" الآتي ذكره.

هـ - البغدادي في هدية العارفين (1/ 654).

و - بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (5/ 341) وذكر لها ثلاث نسخ.

ز - محمد بن مخلوف التونسي في شجرة النور الزكية ص 168.

ح - المراغي في الفتح المبين في طبقات الأصوليين (2/ 66).

وقد كُتِبَ على هذه العقيدة شرحان:

الأول: "تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب" لأبي عبد الله محمد بن أبي الفضل قاسم البكي الكومي المتوفى سنة (916) قاضي الجماعة بتونس. وقد وفق الله عز وجل كاتب هذه السطور لتحقيقه، ونال به درجة الدكتوراه من قسم الدراسات الإسلامية في جامعة البنجاب، لاهور سنة (1996م).

والثاني: "بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب" لابن زكري أحمد بن محمد التلمساني المتوفى سنة (899هـ).

4ً ـ العروض:

ألف ابن الحاجب في العروض منظومة من البحر البسيط سمّاها "المقصد الجليل إلى علم الخليل" عدد أبياتها (171) بيتاً. لها نسخ خطية عديدة، منها مخطوطة برلين رقم (7126) وليدن رقم (273).(82)

5ً ـ علوم متفرّقة:

1 ـ في القراءات: قال ابن فرحون: "وصنف ابن الحاجب في القراءات"(83).

2 ـ في الأدب:

أ ـ "جمال العرب في علم الأدب" ذكره حاجي خليفة وإسماعيل باشا البغدادي ومحمد بن مخلوف التونسي(84).

ب ـ "ذوي الأرب في معرفة كلام العرب" ذكره إسماعيل باشا البغدادي(85).

3 ـ في التاريخ: ذكر في هدية العارفين (1/ 655) أنّ من مصنفات ابن الحاجب "معجم الشيوخ" وهو خطأ، والصواب أنّ صاحبه هو عمر بن محمد بن منصور الأميني، المتوفى سنة (630هـ) المعروف بابن الحاجب أيضاً(86).

وبعد هذا التطواف في آثار ابن الحاجب في المجالات العلمية المختلفة يتّضح لنا بجلاء مبلغ العناية والاهتمام التي حظيت به تلك الآثار. كما نجد أن معظم شروح كتبه قد حققت ودرست أيضاً، ونال بذلك الجهد باحثون كثرٌ شهاداتٍ جامعية عليا (ماجستير ودكتوراه).

وأخيراً أرجو أن أكون قد ألقيت الضوء على ترجمة عالم فاضل جدير بأن يوصف أنه عالم عصره، وقد قدّمت ما يوافي مكانته وقدره.

إنّ أصل هذه الدراسة في رسالتي للدكتوراه، وهي بعنوان: "تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب" (دراسة وتحقيق) ذكرت منه هنا ما يوافق القصد وهو الاحتفال بدمشق عاصمة للثقافة العربية فاضطررت إلى شيء من الاختصار والحذف. والحمد لله رب العالمين

الهوامش:

1 ـ كانت أول حملة صليبية سنة (493هـ) واستمرت الحملات بعدها مئتي عام.

2 ـ هاجم جنكيزخان أول دولة إسلامية تليه (خوارزم) سنة (617هـ) وسقطت بغداد على يد حفيده هولاكو سنة (656هـ).

3 ـ انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (11/ 414).

4 ـ انظر: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص 75 وما بعدها، والروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية النورية لأبي شامة

(2/ 75) وما بعدها، والبداية والنهاية لابن كثير (12/ 328) وما بعدها، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تعزي بردي (6/

7) وما بعدها، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي (2/ 4) وما بعدها.

5 ـ قلعة تقع في كهف جبل قرب بانياس من أرض دمشق فيما بينها وبين الساحل. انظر: معجم البلدان (3/ 356).

6 ـ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/ 243).

7 ـ عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي. من كبار فقهاء الشافعية، بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق،وزار بغداد وأقام بها مدة شهر، ثم عاد إلى دمشق وتولى الخطابة والتدريس. وبعد الذي كان منه مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق رحل إلى مصر فولاه صاحبها نجم الدين أيوب القضاء والخطابة. توفي بالقاهرة سنة (660هـ). انظر ترجمته في: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (2/ 350 ـ 352) وطبقات الشافعية الكبرى (8/ 209 ـ 255) والأعلام للزركلي (4/ 21).

8 ـ انظر: الخطط للمقريزي (2/ 235).

9 ـ قصة الحضارة لول ديورانت (13/ 321 ـ 322).

10 ـ انظر: الخطط للمقريزي (2/ 343 و 363).

11 ـ انظر: الطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/ 218 ـ 239).

12 ـ انظر: الأنساب للسمعاني (5/ 375) وقد تفتح دال (دوين) كما في معجم البلدان لياقوت الحموي (2/ 491) ووقع في بعض المصادر كوفيات الأعيان لابن خلكان (3/ 248) (الدوني) وفي الأكثر الأول.

13 ـ انظر: معجم البلدان (1/ 189) وقد تفتح الهمزة كما في وفيات الأعيان (3/ 250).

14 ـ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (3/ 365).

15 ـ الطالع السعيد للأدفوني ص 356.

16 ـ وقع في بعض المصادر كسير أعلام النبلاء للذهبي (23/ 265) وغاية النهاية لابن الجزري (1/ 508) أنّ ولادته كانت في سنة (570هـ) أو (571هـ) كذا بالشك معزواً لابن الحاجب نفسه، وما أثبتناه ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان (3/ 250) وغيره، وهو أولى لأنه معاصرٌ له.

17 ـ انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (3/ 248 ـ 249).

18 ـ انظر: غاية النهاية لابن الجزري (1/ 509).

19 ـ انظر: الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (2/ 3 و 8).

20 ـ انظر: تراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبي شامة المقدسي ص 182.

21 ـ انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (23/ 266) وبغية الوعاة في طبقات اللغويين للسيوطي (2/ 135).

22 ـ تفرّد ابن قنفذ في الوفيات ص 319 وقال: توفي سنة سبع وأربعين وست مئة. وهذا وهمٌ محض منه، لأنّ كلّ الذين أرّخوا لوفاته من السابقين واللاحقين ذكروا أنّ وفاته كانت سنة (646هـ).

23 ـ انظر: تراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبي شامة ص 182، وذكر المراغي في الفتح المبين في طبقات الأصوليين (2/ 66) أنّ موضع ضريحه الآن في الطابق السفلي من مسجد أبي العباس المرسي.

24 ـ وقع في حسن المحاضرة (1/ 456) "خمس وثمانون سنة" وهو خطأ محض، ويخالف ما ذكره السيوطي نفسه في بغية الوعاة (2/ 135).

25 ـ سيأتي التعريف به ضمن تلاميذه.

26 ـ الديباج المذهب لابن فرحون (2/ 29) وانظر أيضاً: الطالع السعيد للأدفوني ص 356.

27 ـ انظر ترجمته في: معرفة القراء الكبار للذهبي (2/ 573 ـ 575) والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (6/ 136) والأعلام للزركلي (5/ 180).

28 ـ انظر: معرفة القراء الكبار للذهبي (2/ 648)، وغاية النهاية لابن الجزري (1/ 508).

29 ـ انظر: الطالع السعيد للأدفوني ص 353.

30 ـ انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (6/ 182) والأعلام للزركلي (8/ 75).

31 ـ انظر: الطالع السعيد للأدفوني ص 353، وسير أعلام النبلاء للذهبي (23/ 265) وغاية النهاية لابن الجزري (1/ 508).

32 ـ انظر ترجمته في: معرفة القراء الكبار للذهبي (2/ 579) والنجوم الزاهرة (6/ 184).

33 ـ انظر: معرفة القراء الكبار للذهبي (2/ 648) وغاية النهاية لابن الجزري (1/ 508).

34 ـ انظر ترجمته في: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/ 352 ـ 353) وطبقات الحفاظ للسيوطي ص 484 ـ 485، والأعلام للزركلي (5/ 178).

35 ـ انظر: سير أعلام النبلاء (23/ 265) وغاية النهاية (1/ 508 ـ 509).

36 ـ انظر ترجمته في: معرفة القراء الكبار (2/ 589 ـ 590) وحسن المحاضرة (1/ 498).

37 ـ انظر: معرفة القراء الكبار (2/ 648) وغاية النهاية (2/ 508).

38 ـ انظر ترجمته في: الديباج المذهب (2/ 121 ـ 123) وحسن المحاضرة (1/ 454 ـ 455) وشجرة النور الزكية ص 166.

39 ـ انظر: الطالع السعيد ص 353.

40 ـ انظر ترجمته في نكت الهميان في نكت العميان لصلاح الدين الصفدي ص 213، وحسن المحاضرة (1/ 520) والأعلام (4/ 305).

41 ـ انظر: شجرة النور الزكية ص 167، والفتح المبين (2/ 65).

42 ـ انظر ترجمته في: الديباج المذهب لابن فرحون (1/ 236 ـ 239) وشجرة النور الزكية ص 188 ـ 189، والأعلام للزركلي (1/ 94 ـ 95).

43 ـ انظر ترجمته في: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (1/ 149 ـ 150) وشجرة النور الزكية ص 188، والأعلام (1/ 220).

44 ـ انظر ترجمته في: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (2/ 366 ـ 367) وطبقات الحفاظ للسيوطي ص 501 ـ 502، والأعلام للزركلي (4/ 30).

45 ـ انظر ترجمته في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين للسيوطي (1/ 470 ـ 471).

46 ـ انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات للصفدي (7/ 305 ـ 306) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/ 31 ـ 32).

47 ـ تراجم رجال القرنين ص 182.
48 ـ سير أعلام النبلاء للذهبي (23/ 265 ـ 266).
49 ـ تراجم رجال القرنين ص 182.
50 ـ وفيات الأعيان (3/ 249).
51 ـ سير أعلام النبلاء (23/ 265).
52 ـ البداية والنهاية (13/ 206).
53 ـ شجرة النور الزكية ص 167.
54 ـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين (2/ 65).
55 ـ البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروز آبادي ص 143.
56 ـ انظر: شجرة النور الزكية لمحمد بن مخلوف التونسي ص 167.
57 ـ الطالع السعيد ص 354.
58 ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين (2/ 135).
59 ـ الطالع السعيد للأدفوني ص 353.
60 ـ انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (5/ 309) وانظر المؤلفات حولها فيه (5/ 309 ـ 326) وبحث أبو بكر حمزة بعنوان: "كتاب الكافية لابن الحاجب وجهود علماء شبه القارة الهندية حوله باللغة العربية والأوردية" رسالة ماجستير مرقونة على الآلة الكاتبة بكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد عام 1990م.
61 ـ انظر معجم المطبوعات العربية والمعرّبة لسركيس ص 71.
62 ـ انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (5/ 309).
63 ـ انظر: وفيات الأعيان (3/ 249) والطالع السعيد ص 354، وبغية الوعاة (2/ 135) وكشف الظنون (2/ 1020).
64 ـ تاريخ الأدب العربي (5/ 327).
65 ـ انظر: بغية الوعاة (2/ 35) وحسن المحاضرة (1/ 456) وشجرة النور الزكية ص 168.
66 ـ تاريخ الأدب العربي (5/ 326).
67 ـ انظر: كشف الظنون (2/ 1370 و 1374).
68 ـ تصدر عن المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، جامعة الدول العربية، الرباط، المملكة المغربية.

69 ـ انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (5/ 334).
70 ـ انظر: أمالي ابن الحاجب (1/ 32) القسم الدراسي للمحقق فخر صالح سليمان قدارة.
71 ـ انظر: كشف الظنون (2/ 1427) وهدية العارفين (1/ 655).
72 ـ انظر: كشف الظنون (1/ 211 ـ 212) وهدية العارفين (1/ 655).
73 ـ تاريخ الأدب العربي (5/ 350).
74 ـ تاريخ الأدب العربي (5/ 341).
75 ـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين (2/ 66).
76 ـ كشف الظنون (2/ 1853) وانظر: الشروح والحواشي عليه في: كشف الظنون (2/ 1853 ـ 1857) وتاريخ الأدب العربي (5/ 335 ـ 340).
77 ـ تاريخ الأدب العربي (5/ 534).

78 ـ البداية والنهاية لابن كثير (13/ 206).
79 ـ شجرة النور الزكية لمخلوف ص 167.
80 ـ انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (5/ 340).
81 ـ انظر على سبيل المثال: (2/ 3 و 111).
82 ـ تاريخ الأدب العربي (5/ 332).
83 ـ الديباج المذهب (2/ 88) وانظر: شجرة النور الزكية من 168، وطبقات الأصوليين (2/ 66).
84 ـ انظر: كشف الظنون (1/ 593)، وهدية العارفين (1/ 655) وشجرة النور الزكية ص 168.
85 ـ انظر: هدية العارفين (1/ 655).
86 ـ انظر: هدية العارفين للبغدادي (1/ 785) والأعلام للزركلي (5/ 62).

❑❑

أحمد عبيد
أمين التراث العربي وناشره بدمشق
(1892 – 1989)

محمد عيد الخربوطلي

مقدمة

عرفت دمشق الكثير من العلماء العباقرة الباحثين المهتمين بما تركه الأقدمون من مخطوطات قيمة، فقد عرف طاهر الجزائري (1852 – 1921م) الذي أولع منذ صغره باقتناء المخطوطات، فاجتمع له منها مع الزمن مجموعة عظيمة، ولكثرة غرامه فيها عرف الجيد منها والرديء، كما عرف أماكنها ونسخها المتفرقة في خزائن العالم، ولشدة ولوعه بهذا التراث استعان ببعض الغيورين فكانت الظاهرية دار الكتب الوطنية، كما ساهم في ترتيب وفهرسة المكتبة الخالدية في القدس، وعرف في دمشق ممَّن سار على خطاه وكان رائدهم المرحوم أحمد عبيد الشاعر الكتبي العالم بالمخطوطات والمحقق لها، فكان رئيس ورَّاقي بلاد الشام، وكانت المكتبة العربية بدمشق التي أخرجت للباحثين نوادر التراث العربي.

إنه أحمد عبيد، إحدى العبقريات التي أنجبتها دمشق في القرن العشرين، الذي لم يتلق علوم اللغة أكاديمياً، ومع ذلك كان متنوع المعرفة في علوم العرب بين أدب وشعر ولغة وفقه وتفسير وحكمة، إنه عاشق الكتاب والمتيم بالكلمة والمولع بالحكمة، والذي أثرى مكتبته بشرائه للكتب النادرة من ورثة العلماء الذين يجهلون قيمتها العلمية.

ودمشق تعيش هذه الأيام عرساً ثقافياً فمن حقه علينا أن نعيد ذكراه، ونذكر الأجيال الحالية والقادمة بأحد أبناء دمشق الذين أبرُّوها ووهبوا حياتهم للحفاظ على تراثها، ونشر الثقافة بين ربوعها.

الولادة والنشأة:

أحمد عبيد بن محمد حسن عبيد ولد بدمشق 1310هـ/ 1892م وأمضى حياته فيها حتى وفاته عام 1409هـ/ 1989م،

ينتهي نسبه إلى أنس بن مالك، توفي والده وهو صغير، فكفلته أمه، وكعادة أهالي دمشق ألحقته أمه بالكتَّاب فحفظ القرآن الكريم، ثم درس العلوم الإبتدائية في المدرسة الريحانية الخاصة، التحق بعد ذلك بالمدرسة العثمانية، وفي سنة 1327هـ دخل المدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، وأراد له أخوه الكبير أن يدرس الطب... لكنه لم يتمكن من ذلك.

انكب أثناء دراسته في المدرسة العثمانية على قراءة كتب التراث، وصار يبحث عنها في كل مكان، كما شغف بالروايات التاريخية والمسرحيات الشعرية، وصار يكثر من اقتناء الكتب من دمشق وخارجها، وممن كان يمده بالكتب محمد خير الطباع المتوفى عام 1329هـ، ثم بدأ يهتم بقراءة المخطوطات في الأدب والدين والتراجم واللغة والشعر، وصار يقتنيها ويصنفها ويفهرسها بعد أن ينتهي من مطالعتها ودراسة وحفظ ونقل ما يغرب منها، وليخدم مخطوطاته تماماً تعلم مهنة تجليد الكتب بسرعة عند أحد الوراقين لقاء مبلغ دفعه إليه.

من أعماله:

- اشترك في تأسيس النهضة المسرحية في سورية، فنشر مقالات في النقد الأدبي والمسرحي، في الصحف والمجلات السورية واللبنانية والمصرية.
- أسس مكتبة (المكتبة العربية) في دمشق سنة 1327هـ، وأصدر عنها جلَّ كتبه المحققة والمؤلفة والمعدة، كما ساهم في نشر الكثير من مؤلفات أصدقائه الأدباء.
- حوَّل مجموعة من الكتب والمخطوطات التي حصل عليها إلى المكتبة الظاهرية ليحصل الخير وتعم الفائدة، مثل مجموعة الصحاح للجوهري وعليه تعليقاته الكثيرة.
- أول من أصدر التقويم في بلاد الشام باللغة العربية عام 1918م.
- قام برحلات كثيرة وأقام طويلاً في لبنان ومصر.
- ساهم في إعداد موسوعة الأعلام لخير الدين الزركلي، وقد أشار الزركلي في أعلامه لذلك في عدة مواضع، فكان يستعين فيه لخبرته في المخطوطات، ولتبيان بعض التوضيحات.
- لم يلتحق أحمد عبيد بنادٍ أو جمعية سياسية أو أدبية، إنما كان يرتبط بأعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق بعلاقة قوية، وعلى رأسهم محمد كرد علي ومن بعده د. حسني سبح.
- وقد عرف بشرائه للكتب النادرة من ورثة العلماء الذين يجهلون قيمة العلم، فعندما كان يموت أحد العلماء في دمشق، ويعرف أنه كانت له مكتبة قيمة يمضي بعد أيام من وفاته ويشتريها بالسعر الذي يدفعه لزهادة الورثة فيها.

صفاته:

كان أحمد عبيد يتمتع بأمانة عالية، وذلك بدقته باستخدام المصطلح الذي يتصدر بحوثه، فتارة نجد كلمة (تأليف) وتارة (إعداد) وأخرى (تقديم) فلم يكن يدعي ما ليس له، وإنما يضع العبارة التي تدل على عمله في الكتب على استحياء.

ومن صفاته أنه كان منذ بدايته يؤثر العزلة والإبتعاد عن الأضواء ويرفض الشهرة، لأنه كان يريد العلم والعلم فقط. كان كل همه أن ينشر اللغة العربية وتراثها ولا يهمه شيء غير ذلك، وهكذا قضى عمره حتى وفاته التي كانت بصمت، فلم يخرج في جنازته إلاّ القليل.

وصفه الباحث عدنان الجوهرجي الذي لازمه خمساً وأربعين سنة فقال أنه كان رَبْعَةً من القوم أو يكاد، هو إلى القصر أقرب، متين البنيان، ركيناً، مهيباً، حذراً حذر التوقد والألمعية، لا حذر التردد وفساد الرأي، تراه إذا مشى كما تراه إذا جلس، وكما تستمع إليه إذا تحدث وقورا في ذلك كله، مستوي النبرة، ساكن الطرف، هادئ القسمات، تتلامح إليك من وراء ذلك وفي خلاله ابتسامة خفيفة، ورقة ودماثة، لا تخطئ أن تردها منه إلى طبيعة صافية، ونفس رضية، وخلق مستقيم.

وبعد أن جاوز أحمد عبيد السبعين من عمره، ترك المكتبة وتفرغ لدارته، فكان لا يزور المكتبة إلاّ لماماً، فصار صاحبه في البيت الكتاب، فدائماً بين يديه كتاب يراجعه، أو يرجع إليه كشفاً لمشكل إن كان، أو تنبيهاً على صواب.

وفي سنة وفاته كان يراجع مطبوعة كتاب ابن قتيبة (إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث) وقد حققه بإتقان، وهكذا كان دائماً في بيته، كما كان في مكتبته عالماً ثبتاً جلدا.

أحمد عبيد الخبير بالمخطوطات:

كان لا يشك أحد بقدرته على تبيان قدر المخطوط وبيان أهميته، فهو الخبير بتراث الأجداد، والأمثلة التي تثبت أنه كان خبيراً ضليعاً بالمخطوطات الكثيرة، واكتشافه لرسالة الملائكة للمعرّي خير شاهد على ذلك، فقد ذكر ابنه زاهر في كتابه عن أبيه، قصة اكتشافه لهذه الرسالة فقال: لقد كان ذلك في يوم من أيام عام 1944 وكان أمامه عدة أكوام من المخطوطات المهداة إلى المكتبة الظاهرية بدمشق من ورثة الراحل محمد المنير أحد أعيان دمشق بعد مقتله عام 1944، ولفت نظره مخطوط منها، فاقد أولى صفحاته التي تحتوي على عنوان الكتاب وموضوعاته واسم مؤلفه، وكذلك ناقص من آخره ورقات لا يعرفه عددها بالضبط، وهي التي تحتوي في نهايتها عادة على اسم

الناسخ وعصره.... بعد ذلك نهض وعيناه مسمرتان في المخطوط الذي معه وكأنه يسير في حلم، دخل على الدكتور يوسف العش في غرفته وكان رئيس المجمع محمد كرد علي جالساً عنده، فأطلعهما على اكتشافه وقال.... إنه كتاب رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري... وبعد تعجبهم شرح لهم بهدوء المتيقن وثقة العارف... وقال أن القطعة من رسالة الملائكة التي أوردها السيوطي في كتابه الأشباه والنظائر والتي اعتقد العلماء المتأخرون بأنها هي التي عرفها المتقدمون منهم وذكروها بشيء من الوصف في مؤلفاتهم... على أنها النص الكامل لرسالة الملائكة بعينيها، فأطلقوا عليها اسم رسالة الملائكة، وقد عثر المغاربة على نسخ منفردة لا تزيد عمّا في الأشباه والنظائر، فطبعوها أكثر من مرة، وعني جماعة بضبطها وتحريرها على اعتقاد منهم أنها رسالة الملائكة بتمامها، وقال: وإن كان المشارقة والمغاربة قد عرفوها من خلال الأشباه والنظائر، فإن الغربيين عرفوا أمرها حين دخلت نسخة خطية من مقدمتها مكتبة ليدن ولم يعرفوها عن طريق كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي، وقد عمل عليها المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عشرين عاماً في تحقيقها وضبطها، ولم يتم عمله إلاّ بعد اطلاعه على نسخة ليدن والأزهر ونسخة أحمد تيمور باشا، ووضع لها مقدمة جيدة بالروسية، بعد كل هذا الشرح من خبير المخطوطات التراثية أحمد عبيد، كلف رئيس المجمع محمد كرد علي سليم الجندي بتحقيقها، وتم طبعها بالمجمع العلمي العربي بدمشق. وهذا مثال واحد من الأمثلة التي تدل على خبرة أحمد عبيد في عالم الوراقة وحرصه على المخطوطات وما تحتويه، كما تدل على قدرته الفائقة على الموازنة.

أحمد عبيد الشاعر:

عندما كان أحمد عبيد طالباً في المدرسة الريحانية كان يميل إلى قرض الشعر، وبرزت فيه موهبته، ومما يذكر أن عبد الرحمن باشا اليوسف كان يقيم ندوة شعرية في بيته المجاور لبيت عبيد بسويقة ساروجا، شارك فيها أحمد عبيد بقصيدة وفاز وقتها بليرتين ذهبيتين، وكان لقصيدته في الندوة صدى واسع شجعه على قرض الشعر، فمضى ينهل من تراث العربية الشعري، وقد اختط لنفسه العمود الشعري العربي، وصار ينشر قصائده التي تدعو إلى الوحدة العربية والأخلاق الحميدة، وتفند أساليب الاستعمار في صحفٍ ومجلاتٍ سورية ولبنانية ومصرية، كما نشر بعضاً من شعره في تقويمه الخاص، وجاءت أشعاره متنوعة بغرضيها بين المديح والرثاء، وإن كانت الحكمة أوفر أغراضه حظاً ولم يذكر عنه أنه هجا أحداً بشعره، أو أنه قال شعراً في الغزل والحب والعشق، فهموم الأمة كانت تشغله،

وقد ذكر محمد البزم في مقالاته النقدية في شعراء الشام والتي كان ينشرها في جريدة الميزان السورية عام 1925م : "أن أحمد عبيد أديب، أريب، سليم الذوق، حسن الاختيار، يضع القطعة أو القصيدة، فإذا رآها جهابذة القول، وقهارمة البيان، لم يجدوا بداً من الاعتراف بأن ناظمها أديب ثاقب النظر، كثير الخبرة بوجوه الفصاحة وتأليف الكلمة، وكان ينشر شعره باسم مستعار وهو اسم أبي الطيب".

وقال خير الدين الزركلي يصفه وشعره:

رويدك يا شاعراً ساحراً
عقود البلاغة ما ينظم
إذا أنت ما نلته
فإن الإجادة لا تكتم
تقول فتطرب أسماعنا
وينطق في شعرك الأبكم

كما كان ينشر مقالاته النقدية بتواقيع مستعارة ومنها ابن رشيق ونزيل القاهرة، ومن شعره الذي قاله في الحكمة:

لا تحسبن سعادة الدنيا بما
تحوي يداك من الغنى فيزول
إن السعادة باليقين وبالرضا
وهما دعام لا يكاد يميل
والقلب ينبوع السعادة إن يفض
منه فليس لها إليك سبيل

وقال في الحكمة أيضاً:

ثمانون عاماً جزتُها بسلام
وعشرة أعوام مضت بتمام
تقلبتُ فيها بين لينٍ وشدة
وإخفاق آمال ونيل مرام
وما كان لي غير التحمل حلية
وغير ادِّراع الصبر حين صدام
وإني لأرجو أن أعود إلى الثرى
بخالص إيمانٍ وحسن ختام

وشعره في قضايا الشرق لا يقل عذوبة عن أشعاره في الحكمة، فمن أشعاره التي لاقت ذيوعاً وشهرة في حينها قوله:

إني أنا الشرق الذي جنباته
بالمكرمات ندية الأعواد
مهد الهداة المرسلين ومنزل الـ
ـعز القديم وموئل الأجواد
قد كنت من أن أستضام بمنعة
ضربت سرادقها يد الأجداد

ومن خصوصيات شعره أنه كان مصراً بنظمه على مهاجمة الاستعمار وأعداء الأمة، كما كان مصراً على دعوته للوحدة والتآخي ونبذ الأحقاد، فقد قال معبراً عن ألمه لفرقة العرب ونزاعاتهم المستمرة:

أرى الدهر يستشري على العرب شره

وأنهم من عدة الأيد عُزَّل

وما الأيد إلا أن يكونوا على العدى

يداً بأسها يوهي العُداة ويَعقِل

لكل امرئ منهم نوازع ينتحي

بها في بُنّيات الطريق فيُخذل

ويوغل كل في مجاله قطعها

يقطّع أعناق الرجال ويفصل

وعندما تساقط الشهداء على أرض ميسلون وهم يدافعون عن دمشق والشام، أكد أن القادمين ما هم إلاّ الظالمين للشعوب التي يستعمرونها، فقال فيهم:

في ميسلون لنا معالم غرة

هي للمغير صحائف سوداء

بثوا السرايا والجيوش يحثها

للظلم حاد شأنه الخيلاء

هي رمز آثار الحضارة عندهم

رمزت به المدينة الخرقاء

مع أدباء عصره:

ظروف مجتمعة أحاطت أحمد عبيد جعلته صديقاً مقرباً من أدباء وشعراء عصره كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمازني والعقاد ومحمود محمد شاكر وغيرهم كثير.. وكان بينه وبينهم علاقة الإحترام، ويؤكد ذلك ما نجده في كتابه (مشاهير شعراء العصر) من رسائل الإحترام والتوقير التي أرسلها أولئك الأدباء له، ولعل علاقته بالمرحوم خير الدين الزركلي كانت أقوى صداقة تربط بين أديبين من أدباء العصر، ورحلتهما معاً في دمشق والقاهرة تؤكد ذلك، وكتاب الأعلام يشهد أيضاً على ذلك، هذا المعجم الخاص بالأعلام الذي صار مرجعاً للباحثين، طبع أول أمره في القاهرة تحت عين أحمد عبيد، وقد أكد ذلك الزركلي في أعلامه في أكثر من موضع.

وعرف أحمد عبيد بصداقته للمرحوم د. شكري فيصل ولخاله الشيخ محمود ياسين مقرئ الشام، كما عرف بصداقته المتينة لمحمد البزم وشفيق جبري ومحمد كرد علي وأنور العطار ويوسف العش وعلي الطنطاوي وحسني سبح، فقد كانت تربطه بهم كلهم علاقة قوية جداً خاصة بالدكتور حسني سبح، فعندما كان رئيساً للمجمع اعتاد أن يزوره كل خميس، وعندما توفي أخفى أولاده

خبر وفاته عن أبيهم، فلما أقبل الخميس ولم يدخل الدكتور حسني سبح.. أحسَّ ما وقع بقلبه.. فرثاء بقصيدة من أعذب شعره مثبتة في ديوانه. ويقول عبد الغني العطري عن جلساته مع أهل الأدب: "كان أحمد عبيد صديقاً لأعلام الشعر والنثر، يلتقونه كل يوم، ويتبادلون أحاديث الغابرين وعمالقة الأدب والحكمة، الكتاب صديقهم جميعاً، وكنز الكلام وجواهر المعاني التي يطفح بها، ثروتهم التي يحرصون على المزيد منها، جلسات الأدب يحضرها كل يوم أعلام الشعر والنثر والحكمة.. كرد علي – الزركلي – البزم – المغربي – المبارك – مردم بك، وآخرون..." وقال: "هذه الجلسات تعقد في زاوية من المكتبة العربية في آخر سوق الحميدية.. هذه الجلسات واللقاءات كان لها صدى عميقاً في نفسه، فقد ازداد تعلقه بالأدب وبات واحداً من رفاق الدرب الذين يلقاهم كل يوم...

وبالإجمال كانت علاقته مع أدباء عصره خاصة بأعضاء المجمع العلمي العربي علاقة وثيقة، وقد شارك بخدمة أهدافه منذ تأسيسه في عام 1919، كما ساهم بنشر مجلته وتوزيعها..

مؤلفاته:

لقد ترك أحمد عبيد أكثر من ستين أثراً بين مخطوط ومطبوع، بعضها من تأليفه وبعضها من تحقيقه وضبطه وإعداده، ومن هذه الآثار:

1- تخميس لامية ابن الوردي لابن الملاح، وهو أول مخطوط حققه وطبعه، عام 1326هـ وقد كلفه ليرتين ذهبيتين.
2- طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، اختصار محمد بن عبد القادر النابلسي، صححه وعلق عليه وطبعه بدمشق وجاء بـ 466 صفحة.
3- مشاهير شعراء العصر في الأقطار العربية، وهو كتاب موسوعة، قرر أحمد عبيد إنجازه بأجزائه الثلاثة التي تتناول شعراء مصر والشام والعراق، وفق خطة فريدة، وهو أن يرسل له الشاعر صورة حديثة له مع ترجمة ذاتية بقلمه، إضافة إلى أشعار لم تنشر من قبل، وقد صدر الجزء الأول منه عام 1341هـ/ 1922م، بعنوان (شعراء مصر)، ثم توقف عن إتمام الجزأين الأخيرين، ولعلهما ضمن مسوَّداته التي خلفها.
4- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، مختصر عبد القادر بدران، طبع منه 6 مجلدات عام 1351هـ.
5- كلمات المنفلوطي، جمعه ورتبه وطبعه عام 1403هـ.
6- سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه لابن عبد

الحكم، صححه وعلق عليه، وطبعه في القاهرة، بمكتبة وهبة عام 1403هـ، وجاء بـ 165 صفحة.

7- المعيد في أدب المفيد والمستفيد لعبد الباسط بن موسى العلموي، صححه وعلق عليه وطبعه بدمشق عام 1349هـ.

8- طرائق الحكمة، وهي مجموعة رائعة من أقوال المتقدمين والمتأخرين في الأدب والحكمة، طبعه بدمشق بمكتبته عام 1346هـ بجزأين.

9- ذكرى الشاعرين تناول فيه ذكرى شاعر النيل حافظ إبراهيم وأمير الشعراء أحمد شوقي، والكلمات التي قالها فيهما أساطين الأدب العربي وفكره، نقداً في حياتهما وتأبيناً عند وفاتهما، إضافة إلى مجموعة من أشعارهما التي لم تنشر قبل صدور هذا الكتاب، وتعود أهميته إلى تلك الكلمات التي كادت أن تضيع بين أوراق الصحف القديمة لو لم يجمعها في هذا العمل، وقد قال عنه أنور العطار (إنه موسوعة كاملة تتضمن أجود الأدب نثره وشعره، وأقوم النقد فيهما...) طبعه بدمشق عام 1351هـ وجاء بـ 760 صفحة.

10- ديوان أبي الحسن الشيخ محمد خير الطباع.

11- المراح في المزاح للبدر الغزي، علق عليه وجاء بـ 299 صفحة.

12- الروايات الشعرية التي ينشدها سلامة حجازي طبعه عام 1331هـ.

13- الأسماء الإنكليزية بالأحرف العربية، طبعه عام 1338هـ.

14- نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر للإمام السيوطي، طبعه بدمشق عام 1349هـ وجاء بـ 16 صفحة.

15- سحرة البلاغة وسر البراعة لفقيه اللغة الثعالبي، طبعه عام 1351 هـ وجاء بـ 214 صفحة.

16- نشر ما انطوى (ديوان شعره) طبعه عام 1406هـ.

17- مجلة أنفس النفائس، صدر منها تسعة أعداد فقط، وذلك بدمشق عام 1331 هـ.

18- الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب للسيوطي.

19- في سبيل الأخلاق (مجموعة شعرية).

20- الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء للسيوطي.

21- الأرج في الفرج للسيوطي.

22- فتاوى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

23- الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، جاء بـ 96 صفحة.

ومن آثاره المحققة والتي لم تنشر بعد:

1- الوجوه والنظائر لابن الجوزي.

2- البر والصلة لابن الجوزي.
3- السياسة الشرعية لابن تيمية.
4- رحلة الإمام الشافعي.
5- مختار الصحاح.
6- عقلاء المجانين.

وقد كان له السبق في تنفيذ أول مشروع لإحياء التاريخ الإسلامي منذ عام 1346هـ وذلك بنشره لسير أبطاله وتراجم أعماله.

وكان قبل وفاته معتكفاً على تحقيق وتصحيح ونقد كتاب ابن قتيبة (إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث)، الذي تعقب فيه أبا عبيد القاسم بن سلام في أكثر من خمسين موضعاً.

قالوا فيه:

لقد قيل في أحمد عبيد وأدبه وتحقيقه وفهمه للتراث الكثير، فقد قال عنه:

محمد كرد علي: "أثبت الأستاذ أحمد عبيد بما نشر من تركة السلف حتى الآن، أنه سائر على الطريقة العصرية في نشر كتب الأدب والتاريخ يخدمها ويعلق عليها، ويشفعها بفهارس كثيرة تفتح مخابئها وتجلي مغالقها، وما نشره يدل على ذوق في النشر، ضاهى به علماء المشرقيات في تدقيقهم".

وقال الدكتور **شكري فيصل:** "وما أحسب أن ناشراً من الناشرين العلماء، يتولى بنفسه وعلمه وخبرته تدقيق ما ينشره، يبلغ ما بلغ الأستاذ أحمد عبيد من دقة، وإن له في ذلك جهوده التي توازي في كل كتاب من الكتب التي تولى تحقيقها.."

والشاعر **سليم الزركلي** له شهادة قيمة فيه حيث يقول: "وما عرفت أنه ضنّ يوماً بذخرٍ ادّخره، أو قنية اقتناها بعد جهد جهيد، فكأنه حارس وقف، أو أمين مؤتمن، لا يمنّ ولا يستأثر، كل ما بين يديه موقوف للناس، يغرفون أنى شاؤوا، ويقبسون حيث يعوزهم القبس، فكان مصباحاً لا ينطفئ، ونبراساً لا ينضب، هو حاضر لكل قاصد، باذل لكل طالب، بضاعته العلم والمعرفة، وما حجزهما دون أحد، فأفاد من سعيه كل ساعٍ، واستفاد من عونه كل مستعين، ويهش ويبش للقريب والغريب، على حد سواء، لقد عاش بين الكتب وفي خزائنها المتفرقة هنا وهناك، يقطف أزهى ما فيها من نضارات، وينشر أزكى ما فيها من معارف، ويُبسطها ويبسِّطها لكل متطلع إلى المعرفة، ولكل متلهف إلى اكتناه أسرار العلوم، فكان بذلك المرشد إلى النور في مجاهل الظلام، والناصح الأمين في الدلالة على الخير العميم، القابع في بطون الكتب وزوايا العرفان..".

أما **حليم دموس** فقد قال عنه في مجلة ألف باء 1927: "الشاعر الأديب المدقق،

أذكره تنويهاً وتقديراً لفضله القدير، وإعلاناً لأدبه الجم الغزير".

وهذا **عيسى إسكندر المعلوف** يشهد به فيقول: "... وهو من مجتهدي الشبان الألباء، ومن الأدباء الذين يصح أن يقال إنهم أدباء، اتخذ خطة جديدة في التأليف والجمع، نودّ أن يسير عليها أدباء العصر والمؤلفون عندنا، لما لها من الشأن في عالم التصنيف".

وقال في حقه **إسماعيل مروة:** "أحمد عبيد كبير ورّاقي بلاد الشام، ولم أقصد بالوراق تاجر الورق والكتب، بلد أقصد الخبير بشؤونه ومخطوطاته، ومن خلال مكتبته العربية التي أنشأها بدمشق كان الناشر الأول في بلاد الشام، الذي يقدم الكتاب التراثي المحقق بأرخص الأثمان، إنه الذي قام بنشر العديد من المخطوطات ومن أهمها تخميس لامية ابن الوردي وسيرة عمر بن عبد العزيز وروضة المحبين ونزهة المشتاقين والمراح في المزاح وغير ذلك... وقد كان من عادته في التحقيق أن لا يتدخل في النص إلاّ بما يوجب عليه ذلك وما يزيد النص غنى وفائدة.

إنه أحمد عبيد الذي كان مرجعاً من مراجع المحققين المهمين في بلاد الشام، يقصده المحققون لمراجعة أعمالهم ولتزيينها بملاحظاته التي صنعتها الخبرة الطويلة في عالم المخطوطات والوراقة الذي آثره..".

وعنه وعن مكتبته العربية قال الشاعر **أنور العطار:** "للمكتبة العربية بدمشق مهارة فائقة، يدعمها ذوق شامل بطبع الكتب النافعة والآثار القيمة".

وشهد الدكتور الباحث **محمود الطناجي** بخبرته في كتابه المدخل إلى نشر التراث العربي فقال: "ومن خبراء المخطوطات والتراث المعاصرين الذين أفادوا المستشرقين إفادات شتى... أحمد عبيد في دمشق...".

ومما ذكرته **جريدة الشعب** في شباط 1933 عن دور مكتبته وما تقدمه من مطبوعات: "لقد سدت المكتبة العربية في أدبنا العربي فراغاً كبيراً، فهي بين آونة وأخرى تتحفنا بنفائس المطبوعات الأدبية والتاريخية..".

وذكره **عبد العزيز الرفاعي** فقال: "إن الأستاذ الكبير الشاعر أحمد عبيد صاحب المكتبة العربية بدمشق، مؤلف كتاب ذكرى الشاعرين، إليه يعزى الفضل في نشر وإخراج بعض النفائس والمخطوطات، وهو الباحث الجليل الذي آثر الصمت في آخر حياته...".

وقال الباحث **محمد عدنان الجوهرجي** يرثيه في ذكر الأربعين: "... لقد أثرى أحمد عبيد المكتبة العربية بنفائس من الكتب تصنيفاً وتحقيقاً، وبروائع من عيون الشعر والحكمة، هما للأجيال القادمة ذخيرة باقية وتراث خالد، لقد ترك في نفوس عارفيه ذكريات لا تبلى، وهي موعظة وعبرة وعلم وعرفان...".

وفاته:

توفي أحمد عبيد يوم الإثنين في 3 آذار 1989 ودفن في مقبرة باب الصغير بدمشق، وأقامت له وزارة الثقافة حفلاً تأبينياً في مكتبة الأسد الوطنية تكريماً له مساء السبت في 13 أيار 1989.

وبوفاته تكون دمشق قد خسرت أحد أبنائها الذين أفنوا عمرهم في خدمة التراث، وهو وإن غاب جسده إنما عمله باق يتداوله كل الدارسين، وشعره يردده كل العاشقين للأدب والحكمة، وتقويمه لا يخلو بيت دمشقي منه، إنه أحمد عبيد ابن دمشق الذي أعطاها كل عمره ووهبها كل خبراته، فتحية له في ذكراه ودمشق عاصمة الثقافة العربية دائماً.

المصادر:

1- إتمام الأعلام – أباظة والمالح 1/ 34.
2- تتمة الأعلام للزركلي – محمد خير رمضان يوسف – 1/ 47 – 49.
3- معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة.
4- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين – عبد القادر عياش – 338 – 339.
5- أحمد عبيد أمين التراث العربي وقرن من تاريخ العرب – زاهر عبيد.
6- المعاصرون – محمد كرد علي – 269.
7- تاريخ علماء دمشق لأباظة والحافظ 3/ 538 – 544.
8- عبقريات من بلادي – عبد الغني العطري – 225 – 235.
9- من أعلام الأدب العربي – عيسى فتوح – 236 – 239.
10- رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري – تحقيق محمد سليم الجندي – مطبوعات المجمع 1944م بمناسبة المهرجان الذي أقامه المجمع لمرور ألف سنة على مولد أبي العلاء المعري.
11- مجلة الفيصل 105 – 153.
12- مجلة الثقافة – عدد خاص عن أحمد عبيد – آب 1989.
13- مجلة نهج الإسلام.
14- صحيفة البعث عدد 21/ 3/ 1989.
15- صحيفة الثورة 25/ 3/ 1989.

❑❑

نضال امرأة وصمود وطن
أمينة عارف الجراح (1920 - 2007)

جمانة طه

أعطتها الحياة فرصة تكتب فيها للناس تجربتها الغنية، وتعطيهم بعضاً من فرحها بالحياة. فقدمت للأدب سجلاً عنوانه إنسان وأحداثه حياة ونبضه تاريخ وفكره حرية وزينته محبة وعنوانه عطاء. إنها المناضلة المربية أمينة عارف الجراح، التي كانت في جميع مواقعها، طيبة بحزم، لطيفة بموضوعية، وأمينة في كل المواقف والظروف.

ولدت في دمشق عام 1920، أمها مزين ووالدها عارف الجراح. عاشت سنواتها الثلاث الأولى في بيت بحي المهاجرين، وبعد وفاة والدها الشاب بالحمى التيفية، وزواج أمها باعوا البيت وانتقلوا إلى حي الصالحية. نشأت أمينة، وتربت في كنف عمتها لطفية. وبفضل رعايتها وتوجيهها الفطري السليم، تبلورت شخصية أمينة، إنسانة ذات قلب طيب، وعقل متفتح للمعرفة. فمنها تعلمت الجرأة في المواقف، والحكمة في التصرف، والطيبة في التعامل، والنخوة في العطاء. وعنها أخذت مبادئ التربية السليمة، التي تقوم على الصراحة والاحترام المتبادل بين الكبير والصغير، وبين المعلم والتلميذ. وما العمة لطفية ومزاياها العديدة، إلا شاهد على نساء ذلك الجيل. فمع أن النساء في تلك الفترة من الزمن، لم يكن متعلمات ومثقفات، إلا أنهن قمن بدور مميز في المجتمع وفي تربية أولادهن، وذلك بفضل وعيهن الفطري وإنسانيتهن في التعامل، وحكمتهن في التوجيه.

* * *

الحزب والنضال:

تعد أمينة عارف الجراح في عصرها إحدى الرائدات، في مجال العمل السياسي. والفضل في هذا يعود، كما تقول، إلى أستاذها (نظيم الموصلي)، الذي أيقظها على الأسباب التاريخية والاقتصادية للظلم الاجتماعي، وأنار بأسلوب غير مباشر النواحي الإنسانية المضيئة، في التاريخ العربي والعالمي. فمنحها بذلك مقدرة للحكم على الأحداث، وخلق في نفسها ثورة على الظلم السائد في المجتمعات.

انتسبت إلى الحزب الشيوعي، وتبنت مبادئه الاشتراكية شعاراً ومنهجاً وموقفاً وعملاً. وكانت صادقة في عقيدتها، مخلصة في عملها، وفية لانتمائها. ولم تقبل مقولة انحسار الشيوعية، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. بل ظلت ملتزمة بالمبادئ التي اختارتها، حتى آخر لحظة وعي في حياتها.

اختارت طريق الكفاح، ضد جميع المعادين للإنسانية. وشاركت بل اعتداد، في العمل النضالي للحزب الشيوعي، حتى في أصعب الأوقات سرية. كان هذا العمل مصدر مسرة لها، يفرحها ويريح ضميرها ويمنحها طمأنينة داخلية. ولا عجب في ذلك، وهي التي ورثت جيناتها الثورية الوطنية عن والد شجاع، أحب الوطن وتصدى للانتداب الفرنسية، ونفي إلى جزيرة أرواد، مع مجموعة من زملائه الضباط الوطنيين.

تتذكر أمينة الملاحقة التي تعرضت لها، في حي لم يشهد من قبل ملاحقة سياسية لامرأة. فتقول: "سلوكنا الطيب وإخلاصنا في النضال، جعلا ثقة الناس حولنا لا تتزعزع.

فالسلطة أرادت إرهاب أهلي وأهل الحي وإساءة سمعتي، لكن ذلك زاد الجميع استنكاراً لهم وتعاطفاً معي"(1).

فقد أثبت الناس في سورية في مختلف المراحل، أنهم واحد في القضايا الإنسانية. لذا كان النبل الفطري الذي يتحلون به، يدفعهم إلى التعاطف مع ذوي المبادئ، وإلى مساندتهم وتحمل المخاطر من أجلهم.

تعرضت أمينة إلى ملاحقات ومضايقات وسجن واعتقال، وعن دورها في العمل النضالي الحزبي، تروي ما جرى معها في ذات مرة، فتقول: "عهد إلي الحزب عام 1947 بنقل رسالة إلى لبنان، فلبست الملاءة وحملت ابنتي وخبأت الرسالة في ترمس ماء. ركبت مع جار لنا يسوق سيارة أجرة، من دمشق إلى بيروت. عندما وصلنا إلى شتورا، علمنا بأن الطريق إلى بيروت مغلق بسبب تراكم الثلوج، وأن علينا الذهاب عن طريق مرجعيون. فأصابني دوار من طول الطريق، فأوقف السائق السيارة، وهبّ أحد الركاب وأخذ الترمس من يدي، ليصب على يدي الماء الذي فيه لأغسل وجهي. وخوفاً من أن يكتشف أمر الرسالة، أفقت واسترجعت منه الترمس، وقلت: إن فيه شراب البابونج لابنتي. وبهذا وصلت الرسالة بأمان(2).

لم تكن أمينة وحدها في مشوار النضال والملاحقات الأمنية، وإنما رافقها فيه زوجها نجاة قصاب حسن ورافقته. فعندما طلب الحزب من نجاة السفر إلى بيروت للتواري عن أنظار السلطة التي كانت تلاحق الشيوعيين، لحقت به أمينة وبقيا فيها عامين، اضطرا خلالهما إلى انتحال أسماء مختلفة باختلاف المكان الذي سكنا فيه.

مثلت أمينة رابطة النساء السوريات عام 1949 في مؤتمر نساء آسيا ـ إفريقيا، الذي عقد في الصين وكانت في بداية نهضتها. وقد تبنى المؤتمر شعارات تتعلق تضامن النساء في العالم أجمع، وبتأمين حقوق المرأة والطفل ورفع مكانتهما، وضرورة النضال للتحرر من الاستعمار ووقف الحرب العدوانية ودعم السلام العالمي.

وقد ظهر اهتمامها بالطفل، من خلال تعاطفها مع الأمهات في مسألة الحضانة عند الطلاق بين الزوجين، فتقول: "أمهات يبكين بحرقة، بعد رجوعهن من المحكمة الشرعية حيث انتزعت منهن باسم القانون فلذات أكبادهن، ليتم تسليمها للزوج"(3).

ورأت أن حل هذه المشكلات "لا يكون إلا في أن تناضل المرأة مع المستنيرين من الرجال لتبديل القوانين وجعلها إنسانية حقاً"(4).

شغفت أمينة بالمطالعة، وكانت إذا أحبت كتاباً، تحس بأن علاقة صداقة تربطها بكاتبه.

وظل الكتاب جليسها المفضل، حتى في الظروف المادية الصعبة. وترد الفضل في ولعها بالمطالعة إلى جارهم عبد الرحمن أفندي التكريتي الذي ذلل الصعاب في دراستها، وجعل مكتبته الغنية تحت تصرفها.

* * *

المسيرة التربوية والإدارية:

أحبت أمينة الأطفال كثيراً، وعدت تربيتهم وتثقيفهم من أقدس المهمات. فكانت تنحني أمام ضحكة طفل، وتجد أن الله موجود في قلب طفل.

وبفضل هذه المشاعر الصادقة، تمكنت من أن تكون معلمة ناجحة ومديرة مميزة في مدرسة التطبيقات المسلكية. فتحلت بحزم في القرار، وبتفهم لمواقف زميلاتها، وبإنسانية في التعامل مع التلميذات. وبهذا كله، حققت في مدرستها سلوكاً تربوياً واجتماعياً نموذجياً متطوراً. فاستطاعت أن تلفت نظر المعلمات إلى أهمية المطالعة، وأن تخصص ساعتين في كل أسبوعين، لندوة تتحدث فيهما إحدى المعلمات عن كتاب تربوي قرأته وأعجبها. كما رسخت تطور السلوك التربوي والاجتماعي في المدرسة، من خلال تشكيل مجالس الآباء وفتح قناة تعاون بين الأسرة والمدرسة.

كانت بدايات العمل صعبة، بل ومتعثرة في بعض الأحيان. لكن مرور الأيام أنعش العلاقة بين الآباء والمدرسة، فمنحوا ثقتهم للجهاز الإداري والتعليمي، وأولوه اهتمامهم. وصاروا يحضرون الاجتماعات، ويقبلون على الندوات التربوية التي تنظمها المدرسة،

ويحاضر فيها نخبة من المختصين في حقلي التربية والقانون، يناقشون فيها موضوعات متعددة، مثل الخلافات الزوجية وتأثيرها على الأولاد، مشكلة النطق عند الأطفال، الكذب والسرقة، والمشكلات الجنسية، وسوى ذلك من أمور تهم المدرسة والبيت والمجتمع. وكان من نتائج هذا التعاون بين المدرسة والآباء، أن ساهم المقتدرون منهم مادياً في صندوق التعاون للإنفاق على التلميذات الفقيرات.

أما الخطوة الأكثر إثارة، فكانت دعوة آباء تلميذات الصف الأول إلى حضور الدروس في القراءة الجميلة، التي كانت طريقة حديثة التطبيق. والغاية من هذه الدعوة هي اطلاع الآباء على أسلوب التعليم، لكي يتمكنوا من مساعدة بناتهم في الدراسة البيتية. والنجاح الذي تحقق من حضور الآباء، برهن على أن الناس خامة اجتماعية ممتازة تحتاج إلى من يكتشفها ويستنهضها لفعل الخير. فالإخلاص في العمل يعدي، كما تقول السيدة أمينة. والأفكار الجديدة لا بد من أن تأتي أكلها، إذا قيض الله لها من ينفذها بمحبة وشجاعة.

ومن إنجازاتها الرائدة في مجال التعليم، قيامها باستحداث شعبة للصف الخامس الابتدائي، يتم التعليم فيها على طريقة (دالتون) التي تقوم على مبادئ: الحرية، والمسؤولية، ومراعاة الفروق الفردية، والتعاون. تشجيعاً للتلميذ للاعتماد على نفسه في التنقيب عن المعلومات، ومناقشتها مع زملائه في الصف. وقد أعطت هذه الطريقة في التعليم نتائج باهرة، وقدمت للمدرسة تلميذات متفوقات.

شكَّل التعليم والارتقاء به، هاجساً عند أمينة الجراح فكانت دائمة التفكير بطريقة ترفع من مستواه، ومن مستوى المعلمات علمياً وتربوياً وحياتياً. وقد أفادها في هذا المجال، اطلاعها على القوانين الاجتماعية المطبقة في منظومة الدول الاشتراكية. فحاولت الاستفادة منها، وحلمت في تطبيقها في المدرسة وتعميمها في المجتمع، لما وجدت فيها من إعلاء لشأن الإنسان. فسعت جهدها ليكون في سورية مثل هذه القوانين أو بعضها على الأقل، وهي التي رفضت كل مظاهر التفاوت الطبقي واحتكار المال والموارد. كما حلمت بان يعيش الأطفال في عالم خالٍ من الاستغلال ومن الفقر والتشرد. فمسألة تشغيل الأطفال في البيوت أو في الشحاذة، كانت تؤلمها وتتمنى اندثارها من المجتمع. ولهذا طمحت إلى إقامة دورات تدريبية لعدد من التربويين، تؤهلهم للتعرف إلى إمكانات الأطفال وقدراتهم المدهشة، ومساعدتهم في تفجيرها إبداعاً وتفوقاً وتطوراً حضارياً.

تأثرت أمينة بالكلمات التي قالها الأديب تشيخوف لنظيره مكسيم غوركي عندما زاره

في قريته، فتمثلتها فكراً وعملاً، واتخذتها هادياً لها في دفاعها عن المعلمات وعن المعلمين. وهي: "لو كان لدي نقود كثيرة، لأقمت هنا مصحاً للمدرسين الريفيين المرضى، ولشيدت مبنى مضيئاً بنوافذ كبيرة وأسقف عالية، ولزودته بمكتبة رائعة وبمختلف الآلات الموسيقية وبمنحل ومزرعة خضراوات وبستان فواكه، ولكان من الممكن تنظيم محاضرات في الزراعة والأرصاد. فالمدرس يا عزيزي بحاجة إلى معرفة كل شيء. وينبغي أن يكون فناناً ومصوراً، ومتيماً بعمله. فالدولة من غير شعب مثقف ثقافة واسعة، ستنهار. مثل بيت مبني من آجر، لم يحرق جيداً".

ومن هذا المنطلق، تقدمت عام 1967 بتقرير إلى مديرية التربية، شكرت فيه جهود المعلمات في مدرستها، وضمنته مقترحات تتمنى تنفيذها دعماً لمسيرة العلم وتشجيعاً للمعلمة، للارتقاء بالمجتمع وبالوطن:

1 ـ تخصيص منح مالية للمعلمات المتفوقات.

2 ـ إيفاد معلمة أو أكثر كل سنة، إلى دورات اطلاعية تجدد معلوماتهن وأسلوبهن في تقديم المعلومة.

3 ـ السعي لمنح المتفوقات من المعلمات، وسام الاستحقاق السوري. فالوسام يكتسب معنى جديداً، حين يعطى للمكافحين على جبهة الفكر.

4 ـ السعي لاستصدار نص تشريعي، يسمح بإعطاء المتفوقين والمتفوقات في التعليم مدة خدمة إضافية، تضاف إلى سنوات الخدمة عند الإحالة إلى التقاعد، أسوة بالذين يخدمون في المناطق النائية.

5 ـ إعطاء المتفوقين والمتفوقات، أولوية في الحصول على قروض السكن.

ومع هذه المقترحات، أرفقت طلباً تلتمس فيه الموافقة على تخصيص غرفة صغيرة في المدرسة، تجهزها المعلمات الأمهات بالأسرّة والضروريات اللازمة للأطفال، ليستطعن في أثناء الدوام الإشراف على أولادهن ورعايتهن. وأظن أن مبادرتها هذه تسجل لها قصب السبق في هذا المجال.

ولا تنسى أمينة أن تشي إلى مساعدة زوجها لها، في عملها التربوي. فتقول: "كان زوجي أبو سلمى عوناً لنا في أكثر من ميدان. فهو يحرص على مساعدتي في عملي، ويقوم بكل ما يطلب منه كأب، ولأنه عمل في بداية حياته معلماً، أدرك حاجات التربية ومبادئها. فكان يشترك في الندوات ويؤلف القصائد أو يقتبس معانيها من كبار الكتاب، لتنشدها التلميذات في مختلف المناسبات(5).

* * *

الحب والزواج:

في الاجتماعات الحزبية، تعرفت أمينة إلى المحامي الشاب نجاة قصاب حسن، واتفقا على الزواج. رفضت عمتها لطفية ارتباطها بنجاة لأنه يعمل في السياسة، خوفاً عليها من مفاجآت الأيام. لم تتمكن أمينة من إقناع عمتها بالموافقة على نجاة زوجاً مناسباً لها اجتماعياً وثقافياً وعقائدياً، كما لم تتمكن هي أيضاً من التخلي عنه. وعندما تزوجت نجاة، بقيت عمتها عاتبة عليها، وانقطعت الصلة بينهما. لكن أمينة ظلت تحاول التقرب من عمتها لتليين موقفها، ولتؤكد لها محبتها وبأنها لم ترفض رأيها عناداً، وإنما لأنها نذرت روحها وجهدها، للمبدأ الذي اختارته هي وزوجها. فتقول لها: "المبدأ الذي اخترته، ليس غريباً عن طباعك الإنسانية، التي كان لك الفضل في توجيهي إليه. أما تعاطفت أخيراً معنا؟. ألم تطلبي من صديقنا المحبب عثمان أفندي، وهو الشيخ الوقور، أن يرافقني إلى بيروت عندما علمت أنني سأسافر إليها متنكرة لأستقل منها الطائرة إلى الصين، لحضور مؤتمر نساء آسيا وإفريقيا؟. ألم ترسلي لزوجي ولي الألبسة الداخلية الصوفية إلى السجن خوفاً علينا من البرد؟.(6).

ولم تتزحزح عمتها عن موقفها، ولا عن عنادها. أما الزوج الذي أحبته أمينة بقلبها وأفكارها، "فكان رجلاً ثابتاً على مبدئه، غيوراً على مصلحة وطنه وتقدمه الحضاري. يحب الناس ويفتش عن النواحي الإيجابية فيهم، فيقدرها ويعرف كيف يرجع السلبي في تصرفاتهم إلى أسباب خارجة عن نطاق قدرتهم ويعمل على تحويل هذه القدرات السلبية إلى أنفع.."(7).

أحاط نجاة بحبه أفراد أسرته وأسرة زوجته، فكان عطوفاً على الجميع خدوماً لهم. وقد أعجبت أمينة بحبه الدائم لأبويه، وبالعلاقة العميقة التي تربطه بهما، ولا سيما بوالدته التي احترم فيها المرأة بمعناها الواسع. وقد امتد حب أمينة لزوجها، إلى أهله مثلما امتد حبهم إليهم. وقد احتل حماها في نفسها مكانة مميزة، فكان إعجابها به مقروناً باحترام كبير، لما يتمتع به من رهافة حس وذوق وكياسة. كما كان هو يكرم فيها المرأة المستقيمة الملتزمة بمبدأ، أعطته كل طاقاتها. واللافت في موقف هذا الوالد، أنه كان يضيّق بتدينه المتزمت على كل النساء اللواتي حوله. في حين يحترم حرية كنته ويتقبل منها ما يأباه من الآخرين، وحتى من بناته. فكان يتستر على نشاطها السياسي، ويساعدها في مواقف الشدة. واحتراماً له وتقديراً لمشاعره، كانت أمينة تضع المنديل الأسود على رأسها ووجهها عندما تصبح على مقربة من البيت وعلى مرأى من سكان الحي، بالرغم من عدم قناعتها بذلك.

كما أحبت حماتها الوديعة الصابرة، ذات الإطلالة الأنيسة والبسمة اللطيفة والصوت

الرقيق الألوف. صاحبة العينين الجميلتين اللتين تشعان رضا، على الرغم من التعب الذي كان يهدهما. وأشفقت عليها من كثرة الأعباء، حيث "كانت تقضي في كل يوم جزءاً كبيراً من وقتها وهي جالسة خلف طبق الغسيل، تغسل بيديها ثياب زوجها وأولادها بالماء الساخن والصابون والصودا وكانت تجلي الأواني الكثيرة في قدر كبيرة، تغلي فيها الماء على بابور الكاز، وتضيف إليه الرماد أو الأشنان أو الصابون ليكشط ما علق عليها من دهون. وفي المساء ترفع كفيها بعد دهنهما بمادة الفازلين، لتخفف من التشقق فيهما(8).

أنجبت السيدة أمينة ثلاث بنات، سلمى وحنان وصفاء. سلمى فنانة، وأستاذة موسيقى مميزة. وحنان أستاذة مادتي النقد والمسرح في قسم اللغة الفرنسية بجامعة دمشق. وصفاء مربية، استطاعت بجهدها الطموح أن تؤسس مدرسة تعد من أهم المدارس الخاصة بدمشق.

العمل:

آمنت أمينة بالعمل، قيمة وحياة. فاتخذت شعاراً لها مقولة الشاعر اليوناني "هوسيودوس": "اشتغل، فالعمل هو القانون الذي فرضته الآلهة على البشر. واحذر يوماً تضطر فيه أن تطلب بقلب منكسر ما تمسك به الرمق، من الجيران الذين يشيحون بوجوههم عنك. اشتغل، لتتخلص من الجوع"(9).

لهذا كانت ترى أن طبقة العمال، هي الطبقة الطليعية التي تحمل الأمل إلى الإنسانية للوصول إلى طريق السعادة المرجوة.

وقد شكلت أمها وعمتها، مثلاً أعلى لها في العمل الشريف وعدم الاتكال. فأمها تعلمت الخياطة وأتقنتها، وهي أم لثلاثة أولاد وصارت خياطة بالأجرة، لكي لا تحتاج أحداً، وأتقنت عمتها شك الخرز وهي في عمر متقدم، لتبيعه إلى التجار وتنفق على نفسها.

مارست أمينة في أثناء سكنها حي الصالحية عملاً منوعاً، شمل مختلف أنواع الحرف. فساعدت في أعمال المبيض والسمكري والحذّاء، وقضت في أيام العطل المدرسية الوقت عند الصيدلي، تصفّ البرشام على المنضدة، تملؤه بالدواء، تغطيه وتضعه بالظرف وتكتب عليه طريقة الاستعمال. وأحياناً تسجل الوصفات الطبية المكتوبة بالفرنسية، على الدفتر العام. ولم تكن هذه المساعدات لقاء مقابل مادي، وإنما للتسلية وملء الفراغ.

المرأة:

شغلت أمينة وضعية المرأة في المجتمع، وما تتعرض له من ضغوط ومهانة. فانتقدت الزواج المتكرر للرجل، الذي يشكل في نظرها

جريمة بحق المرأة، ولا سيما إذا لم يكن له مبرر. لكن المبررات عند الرجال كثيرة، كما تقول. فهي تعجب من تنكر الرجل لزوجة سعد بعشرتها، ومن تخليه عنها من أجل امرأة أخرى تفوقها شباباً أو جمالاً. وتعتقد أمينة بأن الشريعة والقوانين هي التي تسهل للرجل الزواج، مثنى وثلاث ورباع. وتشير إلى الدور السلبي الذي تلعبه الأدبيات الاجتماعية في تنشئة المرأة على أنها أدنى مرتبة من الرجل، لهذا فهو قوّام عليها وله الحق في أن يتزوج أو يطلق متى يشاء. وهذا الوضع اضطر المرأة للجوء إلى المشعوذين، ليعملوا لزوجها سحراً ويكتبوا له الحجب والرقوات، من أجل استمالته واستعادته.

في كتابها "أيامي كانت غنية" تذكر أن جارهم السمان أبو كاسم، تزوج مرة ثانية بسبب عقم زوجته. وتصف حفل الزفاف وتصور حال الزوجة الأولى وما تنطوي عليه نفسها من حزن وألم، مع كل ما تظهره من مرح وسرور. فها هما المرأتان، الأولى والثانية ترقصان معاً وتتحاوران غناء، فتقول الأولى:

آه يا يَما من جوز التنتين

حمَل وجمَل على بغلتين

فترد عليها الثانية:

أنا الجديدة على قلبه لديدة

بحمَي الحديدة وبلطَه عالجين

ويقول له بدي غصب عنك

ويقول له بدي ما بعرف شو بدي

ويقول له بدي وبدي وبدي

بدي حلق ألماس يكون حقه

ثم ترددان معاً: آه يما من جوز التنتين.

وتعود الأولى، لتقول:

أنا العتيقة محبة وصديقة

بحمله العقيقة ويخاف عليه من العين

ويقول له بدي دخيلك بدي

ويقول له بدي الله يخليك بدي

بدي صحن مجدرة عليه

تقدم أمينة في كتابها "أيامي كانت غنية"، نماذج نسائية مميزة في مقدمها عمتها المتنورة لطفية المرأة الوحيدة السافرة في حي الصالحية. وكان أهل الحي يتقبلون سفرها لأنهم يحترمون فيها المرأة المستقيمة الصادقة. وتروي أمينة حادثة جرت عندما كانت تلميذه في المدرسة الابتدائية، تدلل فيها على حكمة عمتها وذكائها، فتقول: "قصرت ذات مرة في حفظ أحد الدروس، مع أنني كنت من المتفوقات. فهددت المعلمة بإخراج التلميذات المقصرات، إلى (نص) الباحة. فلما وجدت أن المعلمة جادة في تنفيذ تهديدها، انسللت خارجة من المدرسة إلى

البيت. أعلمت المديرة عمتي بالأمر، وطلبت منها الحضور إلى المدرسة. وعلى مسمع من المعلمات، أعلنت المديرة بكلمات قاسية استنكارها لتصرفي. عندها طلبت عمتي من المديرة، أن تعطيها ورقة نقلي من المدرسة. وقالت لها: يجب ألا تبقى أمينة في مدرسة، لا تحترم عذرها في التقصير مرة واحدة، بعد أن كان الاجتهاد دوماً من سماتها. ثم إن التصرف الذي قامت به، يجب ألا يؤدي إلى إهانة كرامتها وكرامة زميلاتها"(11). عند ذلك أيدت المعلمات موقف العمة، ووافقنها على وجهة نظرها، وبقيت أمينة في المدرسة. ونوهت بشفافية عمتها ورقتها. إذ كانت توقظها للذهاب إلى المدرسة بهدهدة على لحن يا حنينة، وكانت تعتمد الحكاية لتوصل إليها فكرتها التوجيهية. وتشير إلى أن عمتها وإن كانت في بعض الأحيان تراعي المحيط الذي تعيش فيه، إلا أنها كانت في الوقت ذاته، تتمسك بما تراه صحيحاً. وهذا ما حصل عندما رفضت نصيحة بعض الأصدقاء، بأن تخرج أمينة من المدرسة وتعلمها مهنة الخياطة.

كما تحكي عن أمها الجميلة ذات الأصول التركية، والتي تحمل لها أحلى المشاعر وأنبلها، مع أنها لم تسكن معها طويلاً. فلو لم يمت الوالد مبكراً، لعاشت في بيت هنيء مع أم حنون ووالد محب. لكن الوفاة اضطرت الأم للانتقال إلى بيت أختها المتزوجة، قبل أن تفكر بالزواج بسبب الوحدة النفسية والضائقة المادية. افتقدت أمينة أمها وعانت من غيابها، ومع ذلك رفضت أن تراها عقاباً لها على زواجها، وتضامناً مع موقف عمتها.

وتذكر بالخير المعلمات اللواتي تعلمت منهن وعلمن معها، فكن مربيات حقيقات ساهمن في إنجاح العمل التعليمي والتربيوي. منهن: المديرة خير النساء الحسيني التي كانت على قدر كبير من الإنسانية، تفكر بمن حولها وتريدهم أن يكونوا بخير. ورعت الطفولة في زمن لم يكن أحد في بلدنا، يقدر أن للطفولة حقوقاً. وعنها أخذت أمينة، مسلكها الإنساني في الإدارة. وبلقيس عوض، ونزيهة الحمصي، ونديدة القباني، وصبرية طرزي التي كان فضل كبير على طالبات ذلك الجيل، تعليمياً وتربوياً وإنسانياً. ولا سيما عندما صارت مفتشة على المدارس الابتدائية للإناث، فكانت بذلك أول سيدة تستلم منصباً حكومياً. فأقام لها الاتحاد النسائي بهذه المناسبة حفلاً تكريماً على مدرج الجامعة السورية.

ونازك خباز التي شجعت الطالبات على المطالعة، وعملت على تزويد مكتبة مدرسة التطبيقات بسلاسل من الكتب المشوقة، وأقامت ندوات تناقش فيها التلميذات القصص التي قرأنها. وهيفاء الدقر مشرفة اللجنة الرياضية في المدرسة، التي كانت تبعث

الحماسة وتبث الروح الرياضية في نفوس التلميذات.

ونبيلة أبو الشامات، معلمة الموسيقا التي استطاعت أن تخلق في تلميذاتها القدرة على الأداء الجيد والانسجام التام، وأحرزت للمدرسة الجائزة الأولى في مهرجان الموسيقا العام الذي أقيم في دمشق في ذلك الحين.

ولا تنسى معلمتها في دروس اللغة العربية في الصفين الرابع والخامس الابتدائيين، السيدة مليحة سعيد، التي نبهتها إلى جمال اللغة وعلمتها أن تتذوق الكلمة الأدبية.

* * *

الحي والبيت الدمشقي، والجيران:

تذكر أمينة في كتابها، أن حارتهم الأصلية هي حارة القولي في حي ساروجة، أي قبل أن ينتقلوا أهلها إلى حي المهاجرين فالصالحية. ففي ذات مرة وعندما هاجها الحنين، ذهبت إلى الأزقة في تلك الحارة، فمرت من تحت الأقواس ورأت "البوابات العريضة والضيقة التي يحيط بها الرخام الوردي والأسود أو الأبيض والأسود، وعليها تلك السقاطات المصنوعة بفن وعناية على شكل يد من النحاس الأصفر يزين أصابعها خاتم وتمسك بحجر دائري يقرع به الباب ليجيبك صوت من الداخل، مين؟. (12).

فأخذتها ذكرياتها إلى بيت القريشي، الذي كان "بابه من الأبواب الضيقة ذات الدرفتين، ولكنه عال يعطي انطباعاً من الهيبة والأصالة. كنت أدخل منه إلى ممر مسقوف هو الدهليز وعلى جانبه الأيسر قاعة لاستقبال الضيوف الأغراب من الرجال لكي لا يضطروا الولوج إلى الباحة. ولهذه القاعة باب آخر يطل على صحن الدار. على جانب الممر يوجد أصص من نباتات دائمة الخضرة، مثل السيف وورق الليمون. وتتوسط الباحة بحرة كبيرة من الرخام الوردي وفي وسطها فسقية يتدفق منها الماء. وفي صدر الدار الليوان صفت على يمينه ويساره أرائك لجلوس أهل الدار وضيوفهم. في الجانب الآخر من الباحة باب يؤدي إلى مطبخ واسع بارد بطبيعة بنائه يغني عن ثلاجات اليوم(13).

وقد أخذ بلب أمينة اليافعة، مصباح كهربائي موضوع على كومودينة في غرفة نوم بيت القريشي، حتى أنها لم تتمنى عندما تتزوج سوى أن يكون لها مصباح كهربائي بجانب السرير، وسجاد يلصق على درج البيت بقضبان صفر رفيعة. وإذا كانت قد استغنت عن السجاد على الدرج، فإنها لم تستغن عن المصباح الذي أتيح لها أن تحصل على أنواع مختلفة منه. لكنها كما قالت: "لم تبلغ أبداً جمال ذلك المصباح السحري الذي كان حلمي الطفولي يريني إياه بشكل أجمل من الرؤية الواقعية"(14).

وفي ذات مرة خطر لها أن تعود إلى حارة قولي وترى ماذا حل ببيت القريشي، فصدمها الواقع، وتقول: "أشفقت على روعة ذكرياتي أن تتلاشى، وخفت على مصباحي السحري أن ينكسر، وينفلت منه مارد الذكريات إلى غير رجعة(15).

***

وهكذا عندما تكون الطفولة تمثلاً لما في البيئة الشعبية من أصالة.. وعندما يكون هوى الشباب نضالاً في سبيل عالم أفضل.. عندما يكون النضج عطاء للأجيال.. وعندما تكون صاحبة التجربة امرأة مربية ومناضلة، تصبح الحياة أفضل.. والأيام أغنى.

*** المصدر:**

أيامي كانت غنية، أمينة عارف الجراح، دمشق: مكتبة الخدمات الطباعية، ط 1، 1985.

الهوامش:

(1) ص 123.
(2) ص 131.
(3) ص 89.
(4) ص 91.
(5) ص 312.
(6) ص 98.
(7) ص 99.
(8) ص 102.
(9) ص انظر ص 32.
(10) ص 72.
(11) ص 18.
(12) ص 37.
(13) ص 38.
(14) ص 40.
(15) ص 41.

❑❑

دمشق.. حاضنة العروبة

ممدوح فاخوري

ماذا يمكن أن يقال في دمشق أجمل وأروع مما قال فيها الشعراء المبدعون، في ماضٍ لها وحاضر، من أمثال البحتري وأحمد شوقي والجواهري وسعيد عقل وأحمد رامي وغيرهم.. وهل في وسعي ووسع أحدٍ من محبّي دمشق، عز الشرق، ومن عشّاقها، وهم كُثر لا يحصون عدداً، أن ينسى ما قاله فيها البحتريّ، وهو في غيبوبة حالمة من سحرها وجمالها، فيقول مفتتناً بها ومتفنناً في وصفها:

أمّا دمشقُ فقد أَبْدَتْ محاسِنَها
وقد وَنَى لكَ مُطْرِيها بما وَعدَا
إذا أردتَ ملأتَ العَيْنَ من بَلَدٍ
مُسْتَحْسَنٍ وزمانٍ يُشْبِه البَلَدا
يُمْسي السَّحابُ على أجْبالها فِرقاً
ويُصبح النَّبْتُ في صحرائها بَدَداً
كأنَّما القَيظُ وَلَّى بَعْدَ جيْئَتِهِ
أو الربيع دنا مِن بَعْدِ ما بَعُدا

وهل بعد هذه الشهادة من شاعر الحضارة البحتري، عاشقِ الطبيعة ونزيلِ العواصم، ومقلّب النظر في كلّ ما هو معجب مطرب، من شهادةٍ أوفى وأرقى، وليله يشعّ جمالاً وصدقاً؟

ولا أطيل، فالمجالُ محدودٌ محدَّد، على أن تكون لي عودة إليه قريبة، أقصرُ كلامي الآن على ما أُعدَّ وما سيعَّد من احتفالات ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، وعلى مكان الشاب والمثقفين والأدباء والشعراء فيها؛ فهي فرصة ثمينة لهم ليوفوها العهد، ويطلق كلٌّ منهم ما يختزن لها في صدره من حبّ، ويعبِّر عما تكتحل به عيناه من رؤىً حالمة، ومَغانٍ باسمة، ومشاعرَ فيّاضة..

دمشق.. هوى الشعراء

بهذا وغيره ممّا أُعدَّ ويُعدّ، تبزر دمشقُ

في زيّها الجميل الذي قال فيه الشاعر الوجدانيّ أحمد رامي، وهو يبثّ حنينه، ويستحضر ذكرياتِهِ في دمشق وفي سحر غوطتها وداريها:

جنَّةٌ تبهر العيون ووادٍ
ضاحكٌ لطلٍّ هادرٌ بالعيونِ
سألوني في مصرَ كيف رأيتَ
القومَ في ذلك الجناب الأمين
قلت أهلٌ لنا وإخوانُ صدقٍ
في صلاحٍ من أمرِ دنيا ودينِ

ولا ننسى هنا تعلُّق أحمد شوقي بها، وترنُّمهُ بمفاتنها بسحر جمالها حيث يقول:

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنَّتهُ
دمشقُ روحٌ وجنَّاتٌ وريحانُ
دخلتُها وحواشيها زُمُرَّدةٌ
والشمس فوق لجين الماء عقيانِ

وهو في وصف تكتبها، أيَّامَ الاستعمار الفرنسيّ، يصفها بأنها "عزُّ الشرق" في قصيدته المشهورة:

سلامٌ من صَبا بردى أرقُّ
ودمعٌ لا يكفكف يا دمشقُ

وتعود بنا الذكرى إلى قصيدة "الجواهري" الرائعة في "دمشق جبهة المجد" وفيها يقول، ولكم وددتُ لو أرد القصيدة كلّها فكلُّ بعث فيها يكاد يسيل حباً وعبقاً:

تموِّجين ظلالَ الذكريات هوىً
وتسعدين الأسى، والهمَّ،

ومن ينسى "شاميات" سعيد عقل وقصيدته "سائليني يا شام"، ومطلعها المضيء العطر:

سائليني حين عطَّرت السلامْ
كيف غارَ الوردُ واعتلَّ الخزامْ

ومنها:

ضفَّتاك ارتاحتا في خاطري
واحتمى طيرُك في الظنِّ وهامْ
وتهاوى الضَّوءُ إلاَّ نجمةً
سهرت تطفي أواماً بأُوام
قلْ لذاك الليث في آجامه
واحدٌ نحنُ إذا الشامُ تُضامْ
أهلُكِ التاريخُ من فضلتهمْ
ذكرهم في عُروة الدهرِ وسامْ

وهل ننسى الشاعر القرويَّ "رشيد سليم الخوري" وقوله:

يا نسيمَ البحرِ البليلَ سلامُ
زاركَ البومَ صبَّكَ المستهامُ

إنْ تكن ما عرفتني فَلَكَ العُذْرُ
فقد غيَّر المحبَّ السَّقامُ
يا برازيلُ لو أفضتِ عليَّ المالَ
ما طابَ فيكِ المقامُ
كلُّ حيٍّ إلى الشَّام سيمضي
حين يقضى، إنّ السماءَ الشآمُ

ويطلُّ علينا شاعر العروبة بقصيدته "الخالدون"، إطلالةً شمَّاءَ من شممَ دمشق؛ ابن الشهامة والعزّة العربية سليمان العيسى:

يا شامُ.. مُدِّي بساطَ الحبِّ، واحدةٌ
كأسُ العروبةِ، وليَخْضَوْضِرِ الثمرُ
مدّي بساطَ الهوى مازالَ في دَمنا
ومن ياسمينكِ كنزٌ للهوى عطرُ
وقفتِ في عتباتِ الخُلدِ شامخةً
بالأنبياء تغطَّى المرجُ والزَّهرُ
أمانةُ البعث والتاريخ في عنقي
فاشرقي في دمي يا شمسُ، يا قمرُ!
قصيدةٌ نحن، يمليها ويبدعُها
دَمُ الشهيد... وجَلَّ العودُ والوترُ
ويقول، وهمَّه همُّ دمشقَ.. الوحدة
أمتّنا العربية الممزَّقة العظيمة الخالدة

إنَّه السيف والقصيدة والإنسان..
وهذا نزار... نزار الهوى والفتون
هاهيَ الشامُ بعد فرقةِ دهرٍ
أنهرٌ سبعةٌ، وحُورُ عيْنُ
النّوافيرُ في البيوت كلامٌ
والعناقيدُ سُكَّر مطحونُ
والسماءُ الزرقاء.. دفتر شعرٍ
والحُروفُ التي عليه... سُنونُو
هلْ دمشقٌ، كما تقولونَ، كانت
حين في الليل فكَّرَ الياسمينُ
آهِ يا شامُ كيف أشرحُ ما بي
وأنا فيكِ دائماً مشكونُ
..أهيَ مجبونةٌ بشوقي إليها
هذه الشامُ، أم أنا المجنونُ
جاء تشرين يا حبيبة عمري
أحْسَنُ الوقت للهوى تشرينُ
ولنا موعدٌ على "جبل الشيخ"
كمِ الثلجُ دافئٌ وحنونُ
سنواتٌ سبْعٌ بها اغتالنا
اليأسُ ويحلم الكلام واليانَسونُ
فانقسمنا قبائلاً وشعوباً
واستُبيحَ الحمى وضاعَ العرينُ

كيف أهواكِ حينَ حولَ سريري
يتمشَّ اليهودُ والطاعونُ
غيرَ أنَّ الهوى يصيرُ ذليلاً
كُلَّما ذَلَّ للرجال جبينُ
شامُ.. يا شام يا أميرة حبِّي
كيف ينسَ غرامَهُ المجنونُ؟
أوقدي النارَ فالحديث طويلٌ
وطويلٌ لِمَنْ يُحبُّ الحنينُ

ويصوغ الشاعر "شفيق الكمالي" ابن الفرات الأبيّ قلادةً عربيةً عنوانها "يا شامُ.. فيكِ ابتدأنا" يقول فيها:

يا غوارة الشام يا أرضاً زهت كرما
ويا رحاب سماءٍ أمْطَرت شيمَا
هذا التراب "صلاح الدين" سالَ به
مروءةً، وصلاح الدين سالَ دما
أرى بها خالداً "اليرموك" منتفضاً
وألتقي طارقاً فيها ومعتصماً
وتستقبل فأرض "ميسلون" بها
محدٌ يسلِّم مجداً بعدَهُ العَلمَا
فالشام مأسدةٌ حتْفٌ لنازلها
وأقمُن لصيَّد صيدٍ قبَّح الأجمَا

وهذا الشار خير الدين الزركلي يقول في عوامة دمشق:

يا طائراً غنَّى على غصنٍ
والنِّيلُ يسقي ذلك
أذكرْتني "بردى وواديهُ
والطَّيْرَ آحاداً به وثُنى

ولا أجد ما أختم به هذه "النقلات" الهزارية أجملَ من هذه العندلة للشاعر "جميل حسن". يقول في رائعته هذه من خلال بردى، لؤلؤة دمشق:

أيا بردى! مازلتَ في أُمنياتنا
حبيباً، ومن في جانبيك حبيبُ
تُبَشّرنا؟ حُيِّيتَ يا بْنَ كفاحنا
وصبوتنا تمضي بنا وتؤوْبُ
وتحضُنَنَا الفيحاءُ بين طيوبها
وكلُّ ندى الفيحاء فيك طُيوبُ
ألست ترى الزوراء في كبريائها
تكابد بعدَ الخطوب خطوبُ
يراد لها أن تُسْلِمَ القَيْدَ معصماً
عَصَى كُلَّ قَيْدٍ والزمانُ جَديبُ
دمشقُ الفتاةُ العذبة الريق حُلْوةٌ
بعيني ولو أنَّ الزمانَ يَشِيبُ
وتحفُزِني السَّبعونَ أخطب وُدَّها

وفي كل دارٍ في دمشقَ حبيبُ
.. نُحبُّكِ في صحْوِ الزمانِ وزهوِهِ
نُحبُّكِ والدنيا أسىً وكُروبُ

وأصدر الشاعر العربيّ الدكتور "مانع سعيد العتيبة" ديواناً خاصًّا عنوانه "شاميّات"، ومن قصيدة له عنوانها "دمشق" أختار هذه الأبيات:

دمشقُ إليك تلتجئ الأماني
ونَنْشُدُ في صَبا "بردى" الأمانا
فأنت لنا المنارة حين تُدْجي
ليالينا ونَغرق في دُجانا
دمشقُ دمشقُ ماذا حلَّ فينا
وماذا يا حبيبةُ قد دهانا
دمشق أتيتُ محزوناً فصبّي
على جُرْحي المودَّةَ والحنانا
أمُدُّ يدي إليكِ فصافحيني
ورُدّي البأسَ لي والعُنفوانا

أرى أمَلاً لنا في "قاسيون"
يُطلُّ فنستعيدُ به رُؤانا
دمشقُ أتيتُ من واحاتِ "ليوا"
وحُزني في عذابي ما توانى
أبثُّ الغوطةَ الخضراءَ همّي
وأَجمعُ مِن ثراها الأُقحوانا..

* * *

وبعد، فهذه دمشق، دمشقُ العروبة، حاضنةُ الثورة العربية المجيدة وزهرة الزمان..

دمشق "الحميدية"... دمشق صلاح الدين ويوسف العظمة، وسلطان الأطرش دمشق صالح العلي وهنانو.. وغيهم من الأبطال الشهداء.. دمشق الشواهد الأثرية والتراث الذي يُشِعُّ أبداً... دمشق السلام والمحبّة والتسامح والإخاء والكرامة، والقلعة الحصينة التي تتحدّى الغزاة والطامعين.

❑❑

دمشق في شعر عدنان مردم

حسين حموي

دمشق مدينة التاريخ

إذا كانت المدينة بمواصفاتها الكلية الجزئية، وبما اعتورها من تطور عمراني وتزايد سكاني، تشكل علامة فارقة في الشعر العربي؛ فإن دمشق عروسة المدن، ومدينة التاريخ؛ كانت ومازالت، النجمة الساطعة في سماء تلك المدن، والشآمة الرائعة فوق خدّ الزمان، بمفاتنها وجمالها، قصدها الشعراء والمبدعون من جهات الأرض، وتغنوا بغوطتها، وتاريخها، وياسمينها، وقاسيونها، وبنهر بردى الذي يطوّق جيدها بفروعه السبعة.

فكانت لهم ملاذاً عند الشدّة، ومراحاً ومستراحاً عند الرخاء

وصفها أمير الشعراء أحمد شوقي بالجنة، وبردى خازنها رضوان بقوله:

قم ناج جلق وانشد رسم من
مشت على الرسم أحداث وأزمان
آمنت بالله واستثنيت جنته
دمشق روح وجنات وريحان
جرى وصفق يلقانا بها بردى
كما تلقاك دون الخلد رضوان(1)

وجعلها رمزاً للحرية الحمراء، وعنواناً لعزّة الشرق، وضواً للتاريخ الذي دخلته شامخة الجبين من أوسع أبوابه كأقدم مدينة في التاريخ، وقلب العروبة النابضة.

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق
وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق
وللأوطان في دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق
جزاكم ذو الجلال بني دمشق
وعزّ الشرق أوله دمشق(2)

وصوّرها الشاعر بدوي الجبل، وقد عاد إلى ربوعها بعد غياب طويل، بالأم الرؤوم التي تضم أبناءها إلى صدرها الدافئ بقوة وضان عندما يعودون إليها أو ميناء بررة

بقوله:

ضمتني الشام بعد النأي حانية

كالأم تحضن بعد الفرقة الولدا

ردّت إلي شبابي في متارفه

وهيأت للصيّال الفارس النجدا

أنا الوفيّ وتأبى الغرّ من

كفران نعمة من أسدى إليّ يدا(3)

أما الشاعر خليل مردم، والد الشاعر عدنان مردم، فيستعير من شوقي بعض معانيه ولاسيما قوله:

والحور في دمّرٍ أو حول

حورٌ كواشف عن ساقٍ وولدان

بوصف مرصّع بالحب والجمال حين يقول:

نهرٌ عرائسه من عبقرٍ عزفت

له ولاحت بأرواح وأشباح

أهلّ كالطفل وضاء مخايله

دلّت على مائر العطفين طمّاح

وربٍ صفصافةٍ قد أطرقت

إذا شمّر الحور عن ساق كسبّاح

جنات عدنٍ بها من كل فاكهةٍ

ومن ثمارٍ وأعنابٍ وإطلاح(4)

عدنان مردم سليل أسرة عريقة في النسب والأدب والنضال

غير أن الشاعر عدنان مردم بك، بما نسجته أصابعه ومخيلته من روائع شعرية في وصف مدينة دمشق. ونهر بردى، وغوطتها، وقاسيونها، والبيت الذي تربى في كنفه، والحي الذي درج في ملاعبه، والنهر الذي مشى متأملاً جمال الطبيعة، والأشجار الوارفة الظلال على ضفتيه، هذا الشاعر الممتلئ إلى حافة العنق حباً لمدينته، يفوق والده خليل مردم في الوصف والتصوير، ولا غرابة في ذلك، فهو ولد في مجرها، عام 1917م في دار أبيه الكائنة بسوق الحميدية، شارع فخر الدين الرازي، وتعلّم في مدارسها إلى أن تخرّج من كلية الحقوق بجامعة دمشق عام 1940م. ومارس المحاماة فيها مدّة ثماني سنوات، ثم انتقل للعمل في سلك القضاء قاضياً للتحقيق في مدينة دمشق، ثم رئيساً لمحكمة الاستئناف، ثم مستشاراً في محكمة النقض ولم يغادرها إلا للمشاركة في ندوة أدبية، أو أمرٍ يتطلب السفر، ورهن حياته كلها للإبداع الشعري، والمسرحي، وتحقيق مخطوطات والده وطباعتها مخلفاً وراءه بعد تلك الرحلة الطويلة التي استمرت من عام 1971م وحتى 1988م أربعة مجموعات شعرية وهي نجوى، صفحة ذكرى، عبير، نفحات شامية، وست عشرة مسرحية شعرية وثلاثة عشر كتاباً من مخطوطات أبيه خليل مردم مبدع النشيد العربي السوري الذي

تتردد أصداء كلماته كل صباح على امتداد الوطن.

حماة الديار عليكم سلام

أبت أن تذل النفوس الكرام

عرين العروبة بيت حرام

وعرش الشموس حمى لا يضام

نفوس أباة وماض مجيد

وروح الأضاحي رقيب عتيد

فمنا الوليد ومنا الرشيد

فلم لا نسود ولم لا نشيد(5)

"في كنف هذه الأسرة العريقة في أدبها ونسبها وحبها لوطنها، العابقة بالزوّار من الشعراء والأدباء الكبار في أرجاء الوطن العربي، العامرة بالحوارات الأدبية، والجدل والمناقشات الفكرية والسياسية، نمت وترعرعت شخصية الشاعر عدنان مردم بك العاشق الصوفي لأمته وشعبه من المحيط إلى الخليج، والشاعر الوفيّ لمسقط رأسه بلاد الشام في (دمشق واسعة العقد) المدينة التي حملها في قلبه واحداً وسبعين عاماً، يتذكر كل شيءٍ فيها بعاطفة مشبوبة الجوارح والحنين، فلا يستطيع مبارحتها والابتعاد عنها أكثر من أيام معدودات حتى يجد نفسه في حالة من التبرّم والضيق والضجر، إلى أن يعود إلى أحضانها، متنسّماً هواءها العليل، ومتأملاً جمال الطبيعة في رحابها الخلاّبة"(6) ولا غرابة في ذلك فذاكرة المكان لها جذور ضاربة في عمق التاريخ الغربي والعربي على السّواء وقد بلغ هذا التذكار أقصى درجاته في قصيدتي ت. إس. إليوت (أرض الخراب) و(الرجال الجوف) اللتين تجعلان من الذاكرة الإنسانية وشماً أبدياً لا يعتوره النسيان، وكذلك نجد في تراثنا العربي شيئاً مشابهاً عند تلك المرأة العربية (ميسون بنت مجدل) الشاعرة البدوية التي تزوجها معاوية بن أبي سفيان، ونقلها إلى حاضرة الشام، فثقلت عليها الغربة، وأكثرت من الحنين والوجد إلى حالتها الأولى، وضاقت نفسها أكثر لما ألم بها من ذكريات ذلك البيت القديم الذي لم تفارق صورته ذاكرتها رغم تلك القصر المنيف الذي أسكنها فيه معاوية، فصاحت من أعماق روحها العاشقة لجماليات ذلك المكان:

لبيت تخفق الأرواح فيه

أحبّ إليّ من قصر منيف

وكلب ينبح الطراق عني

أحبّ إليّ من قط ألوف

ولبس عباءة وتقر عيني

أحبّ إليّ من لبس الشفوف

وأكل كسيرة في كسر بيتي

أحبّ إليّ من أكل الرغيف

وأصوات الرياح بكل فج

أحبّ إليّ من نقر الدفوف

خشونة عيشتي في البدو أشهى

إلى نفسي من العيش الطريف

فما أبغي سوى وطني بديلاً

فحسبي ذاك من وطن

هذه الأبيات على قدمها وبساطتها تذكرنا بالأمير العربي جبلة بن الأيهم الذي سببت له تلك الصفعة لمن داس على إزاره في موسم الحج النفي إلى بلاد الروم، وعندما ضاق ذرعاً بحياة الغربة والمنافي أرسل بعض أبيات من الشعر إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان لكلمته المشهورة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) بعد تلك الحادثة مع جبلة. صداها في بقاع الأرض، يصف حالته قائلاً.

تغرّبت الأشراف من عار لطمة

وما كان فيها لو صبرت لها ضررْ

تكنفني فيها لجاج ونخوة

فبعت بها العين الصحيحة بالعورْ

فيا ليت أمي لم تلدني وليتني

رجعت إلى القول الذي قاله عمرْ

ويا ليت لي بالشام أدنى معيشةٍ

أجالس قومي ذاهب السمع

إنه عشق الأرض، والأهل، والتعلق بما يوحي به حب الأرض والمكان والأهل من ذكريات وحنين لا يعرفها إلا من يكتوي بنار الاغتراب والفراق عن المكان الذي ألفه زمناً طويلاً، وارتسم في ذاكرته كالوشم. وكما حمل نزار قباني، وعدنان مردم، ومحمد البزم، وشفيق جبري، وأنور العطار، وخير الدين الزركلي وغيرهم من شعراء الشام دمشق في قلوبهم أين حلوا وأين رحلوا.

تفاصيل مسكونة في أعماق الذاكرة عن دمشق

من يقرأ بتمعّن إبداع الشاعر عدنان مردم الشعري والنثري، يتلمس ثلاثة اتجاهات رئيسية تسيطر سيطرة تامة على إبداعه

الاتجاه الأول: تطابق المعطى الفني والمعطى التجريبي للشاعر فالشخصية الشعرية التي يسميها بوشكين (روح الشاعر) أي الشخصية التي تعبّر عن نفسها في الإبداع، تبدو كما لو أنها ترتفع فوق الشخصية الحياتية، لتسمو فوق المعيشي والعرضي، ولتبرز كشخصية مثالية حاملة لأفضل الخواص الإنسانية. من هنا فإن إبداع الفنان يزداد أهمية كلما استطاع أن يحلق بجناحيه إلى أعلى باحثاً عن المثل العليا والقيم والفضيلة، مدافعاً عنها في ثنايا إبداعه، لأنها تجسّد أفكاره ومعتقداته وأهدافه. وقد استطاع عدنان مردم أن يجسّد تلك الأفكار والمعتقدات والأهداف في كل ما أبدع شعراً ونثراً ومسرحاً شعرياً ففي كل نص

شعري أو مسرحي، كان يعبّر عن الذاتي والمكنون فيه وكان الهم الوطني والقومي الذي يتحسس أعباءه مع كل شهيق وزفير في المجتمع الذي يعيش فيه. هاجسه الإبداعي الأول، وبذلك أصبح التعبير عن الذاتي في إبداع عدنان مردم؛ هو تعبير عن المجتمع العربي من المحيط إلى الخليج، أي عن الهم القومي الذي أصبح متغلغلاً في نسيج شخصيته، وروحه المبدعة، فأصبح لسان حاله لسان حال الملايين من أبناء العروبة الذين يؤلمهم ويرقهم رؤية أوطانهم مستغلة، محتلة من قبل الأعداء.

الاتجاه الثاني: تطابق المعطى اللغوي والأسلوبي مع التاريخ والرموز الأسطورية والتاريخية التي اتكأ عليها في شعره ومسرحه على السواء، بمعنى آخر بقي في شعره ومسرحه متمسكاً بالأصول الكلاسيكية القائمة على محاكاة الآداب اليونانية والرومانية واستيحائها، ولهذا نرى أن معظم إنتاج هذه المدرسة الاتباعية، قد كان في الأدب المسرحي باعتباره أدباً موضوعياً بينما نرى الرومانسية أي المدرسة الإبداعية التي ترفض مبدأ المحاكاة عكس ذلك. ومن هذا المنظور نجد أن معظم إبداع الشاعر عدنان مردم كان في مجال الشعر المسرحي، فهو سليل مدرسة خليل مردم الاتباعية، وقارئ جيد للتاريخ، وحافظ أمين للتراث، ومدافع عنيد عن الأصالة التي تتمثل بشكل جليّ في اللغة العربية الفصيحة، والشعر العربي الموزون المقفى الذي يقوم على نظام البيت العربي الأصيل، ويمتلك العبقرية الفذّة التي تمكنه من خوض عمار المسرح الشعري، والشعر الغنائي كرائد من روّاد هذا النوع من المسرح، وكشاعر مجلٍّ يعدّ في مقدمة شعراء الاتباعية الجديدة في سورية، وبذلك يصح فيه قول أرسطو: "إن وحدة المأساة لا تتحقق لمجرّد أن البطل واحد، وإنما تتحقق حين يكون العمل واحداً، ولا يقدر على ذلك سوى الشعراء الكبار أمثال هوميروس"(10).

لقد استبعد أرسطو الشعراء العاديين من كتابة الدراما الشعرية، وسمح للكبار فقط من المبدعين اقتحام هذا النوع من الإبداع.

الاتجاه الثالث: تطابق المعطى النفسي مع المعطى التوصيفي لما تختزنه الذاكرة من جماليات المكان، وأحداث الزمان لحظة استحضار المخيلة لتلك الصور النائمة، وإيقاظها. وهذا يظهر بجلاء في شعره الوصفي الذي يمتزج فيه حبّ الأرض، بحبّ الطبيعة، بحب أبناء الأرض والتاريخ، كل هذه التفاصيل بجميع دوائرها الصغيرة والكبيرة مسكونة في قلب الشاعر وذاكرته، تظهر تباعاً في كل قصيدة كتبها عن مدينته المنصهرة مع كريات الدم، المسافرة في شرايين القلب والأوردة، والمرتسمة على جدار كل خلية في الدماغ، تدغدغ أوتار الذاكرة، وأوتار القلب معاً لكي تظل تلك الأوتار حيّة

دائمة التذكار، لا تطالها يد النسيان. فدمشق تارة تحمل صورتها وجه التاريخ العربي المشرق غابراً وحاضراً ومستقبلاً، وتارة أخرى الشمس التي لا يعتورها الغياب، وفي أية صورة تبدّت للشاعر، هي تلبس تاج أمارة مدن الجمال بما وهبها الله من خمائل الغوطتين، والبلابل المغرّدة على ضفاف بردى.

ها هو يصور في إحدى قصائده التي اختار لها دمشق عنواناً هذه المحاسن الوصفية لجمال الطبيعة فيها، وجلال التاريخ، وبخاصة تاريخ بني أميّة الذي يتردد كثيراً في معظم القصائد، وانسياب بردى بين تلك الصخور رقراقاً لعناق غوطتيها حيث يقول:

بلدٌ كأحلام الشباب جنانُه
وأديمه التاريخ للمتأمل
خلع الزمان عليه ثوب مهابةٍ
فغدا يصول من الوقار بجحفل
ويضيء غابر أمسه حسبٌ له
كالشمس تكشف كل داجٍ أليل
وأكاد أبصر بالخيال حقيقة
وأرى (أميّة) في الزمان الأول
في كل زاوية كتاب حضارةٍ
ينبيك عن ماضٍ وعن مستقبل
تلقى بها (بردى) يحث ركابه
متدافعاً بضراوة المتعجل
يمناه تغدق بالجزيل ولم تكن
يسراه تمسك عن جزيل أفضل
تلكم (دمشق) وكم بها من فتنةٍ
لمتيم في حبها متبتل
هي حلية التاريخ ليس كمجدها
مجدٌ على الأيام للمتأمل(11)

ويخص نهر بردى بقصيدة تحمل عنوانه بوصف دقيق، وربط وثيق، بينه وبين تاريخ دمشق، والرموز التاريخية التي كان لها أيادٍ ناصعة البياض، في صياغة ملاحم دمشق وتاريخها الغابر، وبخاصة شخصية البطل صلاح الدين الأيوبي التي تتكرر أيضاً في أكثر من قصيدة. هذا الربط بين الأشياء الحسيّة النفسية والوجدانية التي تتبض بالحب والجمال والجلال ليس للمكان وحده، بل للمكان وأهل المكان من الرجال العظام الذين كتبوا تاريخ شعوبهم بأقلام من غار على صفحات فضية تلونها أشعة شمس الحرية صباح مساء ها هو يقول في قصيدة (بردى)

للذكريات يفيض جانبه
ويجيش بالآمال غاربه
وطلائع الأجداد حيث جرى
أعلامها طلعت تواكبه

شطآنه صحفٌ منمقة مقود الدهر وسوط القدر
عن غابرٍ طُويت تواكبه طاول الأنجم في أفلاكها
تاريخه بالمجد متشحٌ ورنا مستعلياً من كبر
هيهات تاريخٌ يقاريه لبس الأحقاب ثوباً وكسا
رتعت (أمية) في ملاعبه عريه منها بأبهى مئزر
وببأسهم عزّت ملاعبه سير الماضي على أحجاره
وأرى (صلاح الدين) عن كثبٍ مَثُلَتْ مرموقةً في أسطر
شُهرت لمكرمةٍ قواضبه كم على تُربكَ من أقصوصةٍ
(الغوطة الخضراء) لوحته حلوةٍ كانت كبوح الوتر
فاعجب لما خلقت مواهبه قصص فاح شذاها بالمنى
(بردى) وكم من صورةٍ جمعت وزكت أعرافها بالظفر
أثباجه وحوت جوانبه لم تكن غير كتاب جامعٍ
للمجد ملحمةٌ وأروعها حِكَمَ الدهر وسرَّ الأعصر
ما أنت في الأسماء ساكبه(12) وأرى التاريخ سطراً ماثلاً
دون أحجارك ملء البصر(13)

ولم يغب (قاسيون) ذلك الجبل الشامخ الذي تتكئ على خاصرته اليسرى دمشق. تقبل جبينه العالي عند كل شروق شمس. لم يغب هذا المارد المتألق ببهائه وأحلامه إلى السماوات العلا عن ذاكرة الشاعر ومخيلته فأنشده يقول:

ماردٌ لم يثن من غلوائه

وتتجلى هذه التفاصيل المسكونة بالذاكرة عن جماليات المكان في وقوف الشاعر أمام سور دمشق القديم، ليستحضر وقائع التاريخ، وحروف الدهر واحدة واحدة في مخيلته التي آثرت دائماً أن تؤلف بين الأشياء كل الأشياء من منظور الصوفي العاشق لوحدة الوجود بما حوى من بشر ومجر وشجر، ها هو يقول في قصيدة (سور دمشق):

طالت ذراك وحلقت مختالةً
كالنسر حلق باختيال حالما
وامتدّ ركنك كالمنارة عالياً
يختال من صلفٍ ويومئ باسما
وعليه من غير الحوادث مئزرٌ
ضافي المهابة يستثير عزائما
ثوب عليه من الزمان جلاله
وغدا من الأيام أشمط قائما
نسجته أيدي الحادثات وطرّزت
بالفتح أذيالاً له وعمائما
وتزيده الأيام في أحداثها
شأناً وتكسبه علاً ومكارما(14)

وحين يقترب الشاعر من السّور، ليتأمل أحجاره الكبيرة وقد اتكأ بعضها على بعض اتكاء الشيخ العجوز على عكازه أو على من يعينه على النهوض، يتذكر ذلك الماضي الغابر، وملاحم الجدود المرتسمة في فضاءات التاريخ كالأهلّة، وما آل إليه حال الآباء والأحفاد من ضعف وهوان، فتغرورق عيناه بالدموع ويصوّر المستقبل على غير الشاكلة التي يعيشها العرب اليوم، وعلى غير الصورة التي ارتسمت في ذاكرة البحتري ومخيلته عندما كان يتلمس قصر المتوكل متحسراً على ما كان له من زهوٍ وبهاء وعزّ، متماسكاً عن السقوط من هول ما رأى حين قال:

صنْتُ نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن جدا كل جبسِ
وتماسكت حين زعزعني الدهر
التماساً منه لتمسي ونكس

إلخ...

هنا مع الشاعر عدنان مردم بك الصورة أكثر إيلاماً، لكنّ التصوّر الذي حمل على أجنحته بعضاً من أحلام اليقظة، قلب السواد إلى بياض، والحزن واليأس إلى أمل وحلم، فتغيّرت الصورة وتحولت نهاية الحكاية الشعرية إلى سير تهيج اللواعج وتوقظ الضمائر لاستعادة تلك الأمجاد الغابرة إلى تاريخ هذه الأمة الحافل بالبطولات والمآثر حيث يختم تلك القصيدة الطويلة التي بلغت أبياتها اثنين وثلاثين بيتاً بقوله:

أقبلت نحوك ساعياً يهتاجني
شوق يعربد في الأضالع عارما
وأتيت أستجلي روائع حكمةٍ
بفؤاد مشتاق يصفق هائما
طالعت كل عظيمةٍ عن غابرٍ
بلغ السهى شأواً وحلق غانما

وقرأت ملحمة الجدود فشاقني
ماض تألق كالأهلة باسما
ماض أطلّ حيال تربك سافراً
فأسال دمعاً واستثار سخائما
فحسبت من وهمٍ تملك خاطري
صوتَ الرياح بمسمعيّ زمازما
ومضيت أروي عنك كل عجيبةٍ
كنت اللسان لها وكنتَ الناظما
سيرٌ تهيج على الزمان لواعجاً
وتثير أشجاناً وتوقظ نائما(15)

وتتكشف تلك التفاصيل المسكونة بالذاكرة كلما صغرت الدائرة فنكتشف العلاقة الحميمة التي كانت تربط الشاعر بأبويه في ظل ذلك البيت العامر بالأدب والمناظرات الشعرية، والحب الكبير الذي بقي يحمله الشاعر بين جوانحه لتلك المدرسة التي كان يؤمها كل صباح لتهجي الحروف فيها، ولتلك الطفولة البريئة، وصداقاته الأولى في الحي الذي يسكن فيه.

فالأب بالنسبة إليه القدوة والمثل الأعلى، تبسم له الدنيا إذا أشرقت وأشعت بعيني والده، لا بل يرى الله في بريقهما وابتسامتهما.

أرى الأيام تبسم لي
بقربك حين تبتسم
وتعذب عندي البلوى
ويحلو المرّ والسقم
لمحت بعينك الدنيا
تشعُّ سنىً وتضطرم
رأيت الله في عينيك حين رنوت تبتسم(16)

ولا تقل جذوة العاطفة اشتعالاً وشوقاً للبيت الذي كان يرعاه ذاك الأب وتلك الأم بعطفهما وحنانهما عن حبّ مدرسته حيث يقول:

عطفت عليك في شغفٍ
أبث جوى وأشواقا
ورحت لغصةٍ نشبت
أداري القلب إشفاقا
تلفت مجهشاً قلبي
إليك وحنّ مشتاقا
ذكرت وربّ تذكارٍ
كلذع النار إحراقا
أثار حفيظة وجوى
وغلّ يداً وأعناقا
لواعج للرؤى تدمي
حشاشات وآماقا

ترى قلبي إذا عصفت
به عن نارها ضاقا(17)

ونختم بالدخول إلى ذلك البيت الذي عاش فيه الشاعر منذ الولادة وحتى الرحيل إلى الملأ الأعلى بتفاصيل أكثر دقة وملامسة لشغاف القلب وحشاشة الروح وخلجات النفس، حيث لا يكتفي بوصف ذلك البيت وحده بل بما حواه من أشياء أخرى

مطاف بأشواقنا ينطق
ومهدٌ بأحلامنا يشرق
ومرتع نجوى لعهد الصبا
وكم مرتعٍ بالصبا يخفق
تجيش جوانحنا صبوةً
بشوق غواريه تحرق
وأكبادنا من حنان عليه
عيون مفتحة ترمق
إذا ما ذكرنا الحمى شاقنا
إليه هوى عذبه موبق
إذا ما نظرنا إلى بيتنا
أطلت أمانٍ لنا تبرق
وطافت به ذكريات لنا
كما طاف في زاخرٍ زورق
وأشرق فيه فمٌ باسم
لأمٍ وضاء به مفرق
ورفرف قلبٌ لها كالقطاة
وصفق من رحمة يخفق
هل البيت غير رفيف المنى
وما فاح من أمل يعبق(18)

لم يكتف بوصف ذلك البيت بل انتقل إلى دائرة صغيرة في الركن الجنوبي منه حيث تشهق أغصان شجرة (النارنج) التي كان يتفيأ بظلّها ويتسلق أغصانها، ويبثها نجواه وأحلامه المستقبلية ليقول:

كم في ظلالك للمتيم من حمى
يذرُ الشجيَّ بشجوه مترنما
وافاك والإصباح تنثر كفّه
فوق الغصون من الأشعة أنجما
فأعدت بالذكرى إليه ما انطوى
من غابرٍ حلوٍ فخفّ مسلّما
وشققت بالأحلام عن أضلاعه
فجراً وحِلْتِ الأرضَ من أملٍ سما
أذكرت ذاك الطفل يرتع بالحمى
كالطير في مرجٍ إذا ما حوّما
كم جاء ينشد رفد ظلّك في الضحى
حذر الهجيرة وارتمى متبرّما
وأتى يقصّ عليك من أحلامه

سيراً ويهتف كالهزار مرنّما
غناك عن أحلامه وقصيدهِ
ما رتّل القلب العميد وتمتما"(19)

حتى الحارة التي كان يلعب فيها مع أقرانه وجيرانه لم تغب عن تلك الذاكرة، وأخذت حيزاً لا بأس به من شعره وإبداعه، كانت تطل عليه من نافذة أحلامه وتهزّ أوتار قلبه هزاً عنيفاً يصل حدّ البكاء.

هي كعبة طافت بها أكبادنا
من صبوةٍ وسعت إليها الأضلع
ويشوقني ماض فيشهق خافق
شغفاً وتُنثر من حنانٍ أدمع
تهتاجني الذكرى بها وتشوقني
دارٌ بأحلام الطفولة تلمع
ويهزني الشوق القديم لجيرةٍ
فيغص قلبٌ بالدموع ويخشع(20)

تفاصيل وجزئيات تنطق بها ذاكرة المكان كلما ابتعدت أحداث الزمان والمكان عن مراتع الطفولة وأيام الشباب، تتجمع كلها في لوحة واحدة عنوانها دمشق يظهر من خلالها في الأفق البعيد ذلك الماضي الغابر الذي يلوّن أعلى اللوحة بزرقة السماء، ثم جبل قاسيون بهامته الشامخة المرصّعة بخوزة الميدان، تتكئ على زنده دمشق بسطوح منازلها القرميدية، وأثوابها الهفهافة، عروس بردى الذي يزنها بروافده ويضمها إلى صدره بحنان العاشق الولهان، والغوطتان تزغردان للعريس والعروس والحب والجمال في كرنفال الربيع. إنها لوحة بديعة صوّرها لنا الشاعر عدنان مردم شعراً بحروفه المشعّة كإشعاعات روحه العاشقة لدمشق بكل ما فيها من بشر ونهر وسماء وجمال وورود وبهاء.

رسمها بحروف مموسقة، وألفاظ ذات جرس إيقاعي منتظم على إيقاع تفاعيل الخليل بن أحمد الفراهيدي وبحوره، بلغة عربية فصيحة توحي بدلالاتها، وتشي بمعانيها عن كل صورة وتوصيف. كيف لا وما رسمه على صدر دمشق في تلك اللوحة شعراً نابعاً من القلب، ومن العشق المتجذّر خلف الأضلاع لدمشق التي لم يزرها شاهر أو مبدع إلا وتغنى بجمالها وسُحر بمفاتنها. فكيف إذا كان الشاعر من جبلّتها وأبنائها، وكل ذكرياته وأحلامه فيها؟

لقد كان عدنان مردم بحق شاعراً مجلياً فيما أبدعه عن أميرة المدن دمشق. وكان ابناً باراً لها ولأمته وشعبه بامتياز.

الهوامش

1 ـ من قصيدة أمير الشعراء التي ألقاها في قاعة المجمع العلمي العربي بدمشق أثناء الاحتفال التكريمي الذي أقيم له سنة 1925. الشوقيات ـ

الجزء الثاني ص 122 ـ 123.

2 ـ الشوقيات، أحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة، 1970 ج2 ص 74.

3 ـ بدوي الجبل، مختارات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2004م، الكتاب الشهري رقم 3، ط1، ص 188.

4 ـ خليل مردم بك ـ فادية عبد اللطيف المليح، دار الفداء، دمشق، 1991م، ط1، ص 109.

5 ـ المصدر نفسه، ص 30 ـ 31.

6 ـ الاتجاه القومي في مسرح عدنان مردم الشعري، حسين حموي، اتحاد الكتاب العرب، 1999م، ط1، اقتباس مع تصرّف وإضافة، ص 51 وما بعدها.

7 ـ المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي أبو غالي، عالم المعرفة، العدد 196، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، إبريل (نيسان) 1995م، ط1، ص 8 ـ 9.

8 ـ المصدر نفسه ص 26.

9 ـ المصدر نفسه ص 13.

10 ـ من الشعر، أرسطو ـ كتاب منسوخ في جامعة دمشق عام 1988، ص 25.

11 ـ ديوان صفحة ذكرى، عدنان مردم بك، دار المعارف بمصر، 1961، ط1، قصيدة دمشق، ص 19 ـ 21.

12 ـ المصدر نفسه ص 15 وما بعدها.

13 ـ المصدر نفسه ص 24 وما بعدها.

14 ـ المصدر نفسه ص 27 ـ 28.

15 ـ المصدر نفسه ص 29.

16 ـ المصدر نفسه ص 9 وما بعدها.

17 ـ المصدر نفسه ص 33 وما بعدها.

❑❑

الشعر

مِنْ مَيْسَلُونٍ يَنْهَضُ الشُّهداءُ

د. خليل الموسى

- 1 -

حَنَّتْ إلى أَفْنَانِها الوَرْقَاءُ
وَتَوَّرَدتْ من حُسْنِها (الفَيحاءُ)
وتَمَايلَتْ أَعْطَافُها حتَّى انْتَشَتْ
وَتَعَطَّرتْ في ظلِّها الصَّهْباءُ
وَتَلَفَّتَتْ بينَ الوَرَى أُمْلُودَةً
حتَّى تَرَنَّمَ شاعرٌ وغِنَاءُ
مِنْ هاهُنا.. نَسَج الكلامُ قمِيصَهُ
والأَبْجَدِيَّةُ نَخْلَةٌ فَرْعَاءُ
من هاهُنا.. بَدَأَ الغَرَامُ طَرِيقَهُ
والسَّرْدُ والتَّاريخُ والإغْواءُ
وَالوَصْلُ في لَيْلٍ دِمَشْقِيٍّ الْهَوَى

كالمَوْجِ يَجْمَحُ أَيِّلٌ.. وظِبَاءُ
فَرَنَا إليها عابدٌ مُتَصَوِّفٌ
وَصَبَتْ إليها مُهْرَةٌ جَيْدَاءُ
قَالتْ: أُحِبُّكَ والهوى تَنْهِيدَةٌ
مِثْلِي أَحَبَّتْ طِفْلَةٌ سَمْرَاءُ
مَثْلي أَحَبَّتْ جَارَةُ الشَّوْقِ الت
فُتِحَتْ شبابيكٌ لَهَا خَضْراءُ
غَزَلَ البَنَفْسَجُ للرَّبيعِ ثِيَابَها
وهَفَتْ إلى أَحْلامِها الأُمَرَاءُ
فَغَفَا على الأفراحِ سِرْبُ حَمَائِمٍ
وَصَحَتْ على عَتَبَاتِهَا الأَفْيَاءُ
وَالأُقْحُوانُ تَعَطَّرَتْ أَلْوَانُهُ
أَلِفٌ بها مَرَّ الزَّمَانُ وَيَاءُ
إنْ يُذْكَرِ التَّاريخُ في جَنَبَاتِها
سَارَتْ إليها أُخْتُها الْعَلْيَاءُ
والزَّيْزَفُونُ أَسَاوِرٌ وَخَواتِمٌ
وَمِنَ الزَّنَابِقِ فِتْنَةٌ بَيْضَاءُ
والْيَاسَمينُ مُعَطَّرٌ مُتَهَلِّلٌ

تَلْهُو بهِ فَوْقَ المياهِ نِسَاءُ
بِأَنَاملٍ سُحِرَتْ بها حُورِيَّةٌ
فَتَنَسَّمَتْ طِيبَ السَّمَاءِ سَمَاءُ
يَنْسَلُّ من طَرَفِ الْحَدَائِقِ عاشِقٌ
ما هَدَّهُ تَعَبٌ ولا إِعْيَاءُ
مِنْ عَهْدِ آدمَ للمرايا شاعِرٌ
نَسَجَتْ قوافي شِعْرِهِ الأَضْواءُ
بَرَدى يُحَاوِرُ في الهَوَى أَيْقُونَةً
وَلَهُ على دَرْبِ الهوى أَهْوَاءُ
وَلَهُ النِّسَاءُ الفاتِنَاتُ خواضِعٌ
وَلَهُ النِّسَاءُ حرائرٌ وَإِمَاءُ
ملكاً.. أميراً.. فاتِناً.. مُتَسَكِّعاً
يَطَأُ الثَّرَى.. وعلى الثَّرى الْخُيَلاَءُ
حتَّى إذا صَحِبَ النِّسَاءَ جميعَها
خَرَجَتْ إليهِ منَ المدى (الفَيْحَاءُ)
رِيَّانَةَ الشَّفَتَيْنِ.. سَاحِرَةَ الْغِوَى
قَمَراً وشَمْسَاً والرَّبِيعُ سَوَاءُ
صَفْصَافَةً نامَتْ على تاريخِها

وَلَهَا وسائِدُ فِتْنَةٍ وَغِطَاءُ
نامتْ على التَّاريخِ حتَّى ثَغْرِها
ومنَ الرِّضَابِ تَعَتَّقَتْ صَهْبَاءُ
يُغْشَى عَلَيْهِ إذا رَشَتْهُ بقُبْلَةٍ
فَتَغِيبُ من وَجَعٍ بها حَوَّاءُ
لِيُطِلَّ من وَلَهٍ إليها مرَّةً
وتُطِلُّ من حَسَدٍ بها الجَوْزَاءُ
سَجَدَتْ لها الشُّعَرَاءُ حينَ تَنَهَّدَتْ
ودِمشقُ فاتِنَةٌ لها إِغْواءُ
من ثغرِها وُلِدَتْ يَنَابيعُ النَّدَى
وَتَدَرَّجَتْ في حُضْنِها الأَسْمَاءُ
شَفَةٌ نَبِيذٌ من رَحِيقٍ ناعمٍ
وَلَمىً ربيعٌ دائِمٌ وَدِمَاءُ
نَهْدٌ دَفُوقٌ.. كَوْثَرٌ مُسْتَمْطِرٌ
ومنَ النُّهُودِ سَنَابكٌ وَعَطَاءُ
وَالقَمْحُ من أرْدَانِها مُتَحَدِّرٌ
خُبْزاً شَهِيَّاً والنُّفُوسُ دُعَاءُ
في بابِها تَقِفُ الرُّبُوعُ سَعِيدَةً

فالكلُّ حَوْلَ رغيفِها أَبْنَاءُ:

يا أُمَّنا لَسْنَا أَسَارى للرَّدَى

لكنَّنا في حُبِّنا فُقَرَاءُ

نحنُ الذينَ يُقَدِّمونَ دماءَهُمْ

لِتُطِلَّ من عَلْيَائِها الْعَنْقَاءُ

يا أَنْتِ.. يا أُمَّ الْعُرُوبَةِ والنَّدَى:

ما غَيْمَةٌ بَرَّاقَةٌ دَكْنَاءُ!؟

ما مَنْزِلُ الْعَلْيَاءِ..!؟ نَافِذَةُ الرُّؤَى؟

ما اللَّيْلُ؟ ما الْأَسْيَافُ والْبَيْدَاءُ!؟

لَوْلاَكِ ما عَرَفَ الْعُرُوبَةَ عاشِقٌ

لَوْلاَكِ ما دَرَّتْ لها أَثْدَاءُ...

- 2 -

قالتْ لِيُوسُفَ: للهوى أَسْرَارُهُ

فإذا لِيُوسُفَ في الْهَوَى أَسْمَاءُ

ها أنتَ ذا مَهْرِي... فَمَنْ لِأَمِيرَةٍ

سارَتْ إليها في الدُّجَى الأَعْدَاءُ..!؟

والْقَادِمُونَ منَ الظلامِ يَجُرُّهُمْ

حِقْدٌ دَفِينٌ.. لَعْنَةٌ عَمْيَاءُ
والنَّائِمُونَ على بساطٍ حالمٍ
والحالِمُونَ بِمَنْصِبٍ أُجَرَاءُ
والسَّابحُونَ على الرِّمالِ زَوَاحِفٌ
يَبْنُونَ حُلْماً والرَّدَى بَنَّاءُ
فأنا دِمَشْقُ والْهِضَابُ مطِيَّتي
وأنا التي في حُسْنِها عَصْماءُ
أَحْبَبْتُ يُوسُفَ والحوادِثُ جمَّةٌ
ومعي لِيُوسُفَ غادةٌ حَسْنَاءُ
فَلِصَوْتِهِ يومَ النَّفيرِ هَدِيرُهُ
وَلِسَيْفِهِ يومَ اللِّقاءِ لِقَاءُ

- 3 -

حَيٌّ.. وإلاَّ الْقَبْرُ كيفَ يَحُفُّهُ
قَمَرٌ لَهُ في الْخَافِقَيْنِ ضِيَاءُ..!؟
وَلَهُ بِنَاءُ الْمَجْدِ شُرْفَةٌ رَاهِبٌ
مُتَبَتِّلٍ، وَلَهُ المَنُونُ قَضَاءُ
وَلَهُ المآذنُ تَرْتَدِي أعرَاسَها

وَلَهُ الجبالُ الشَّامِخَاتُ رِدَاءُ
لم يَشْهَدِ التَّاريخُ مِثْلَكَ فارساً
وَطَأَ العَجَاجَةَ والسُّيُوفُ دِمَاءُ
يا سَيِّدَ الْهَيْجَاءِ.. جِئْتُ مبايعاً
شِعْرِي وقافيتي لكَ النُّدَمَاءُ
يا صادِقَ السَّيْفِ الذي رُفِعَتْ لَهُ
بَيْنَ الْجُمُوعِ تحِيَّةٌ ونِدَاءُ
أَسْرَجْتَ مُهْرَكَ لِلْمَلاحِمِ والرَّدَى
لِتَكُونَ أَوّلَ مَنْ لَهُ الْغَبْرَاءُ
في جَوْلَةٍ جَالَ الزَّمَانُ بِرُمْحِهِ
وَلِرُمْحِ يُوسُفَ طَعْنَةٌ نَجْلاَءُ
ما كُنْتَ أَوَّلَ فارسٍ يَطَأُ الثَّرَى
لِتَسِيلَ من ضَرَبَاتِهِ الأَنْدَاءُ
لَكنَّكَ السَّيْفُ الذي شَهِدَتْ لَهُ
يَوْمَ اللِّقاءِ فِرَنْجَةٌ أَعْدَاءُ
رَوَّيْتَ سَيْفَكَ من مَسِيلِ دمائِهِمْ
ومِنَ المفاخِرِ أُشْبِعَتْ بَيْدَاءُ
ها أنتَ ذا.. مِلْءَ البراري صَرْخَةٌ

ضَجَّتْ بها الأَصْواتُ وَالأَصْدَاءُ:

لَنْ يَدْخُلُوا داري وفيها سَيِّدٌ

لن يَسْتَبِيحَ ديارَنا الْغُرَبَاءُ

ها أنتَ ذا.. مِلْءَ الْبَرارِي مَعْبَدٌ

قَبْرٌ نَدِيٌّ.. بَارِقٌ.. وَضَّاءُ

في مَيْسَلُونٍ دُحْرِجَتْ أَحْجَارُهُ

منْ مَيْسَلُونٍ يَنْهَضُ الشُّهَدَاءُ..

تموز 2008

دمشق الكون

سليمان السلمان

يقف الفجر على حافات العتمة
يوقظ شمساً
يلثم صبحاً.. ويسوق نهار
لا تعجب يا ساهر
فالليل قوادمه أقصر من ثوبه
يبطئ في السير
يقهقه فجر اللؤلؤ في شفتيه
ينهض صبحٌ من قلبه
قبل همود النار

* * *

نجمة صبح سكرى... نفرت
وقفت في أفق الليل
على آخر شطٍ
غمر الصبح بموج نهارٍ عينيها
جن الليل
فسر الليل لديها
احمرت عيناه
بعد غياب الشمس
اسودت كفاه
أطلقها من موجتها
ظلت عين النجمة في سر الليل
تحن إلى الصبح
يقيدها ليلٌ
يطلق بعد الفجر يديها
ويحار

* * *

باركني الخيط الممتد من الشرق
فأوقفت سريع خطاه:
في هذي الزاوية اليسرى من قلبي مهواك
ناعمة "جلق" نور من شمس الدنيا
. يسأل كوكب روحي:
هل لدمشق سواك
. وأجابت عني كرة الأرض
وراحلة الأقمار
وهذا الكون الدوار
وعيون سارحةٌ

وطيور تفغم عشقاً آلاف الأزهار
= يا مولد روحي...
من قال لغير "دمشق" هواك
من أحلام العشاق يغار
* * *
هل يعقل أن أغدو أنتِ
ولا أنكر ذاتي
من قال: المقلة شط القلب
رأى قلبي في مقل
تغسله بالدمع الحار
* * *
يا سائلتي عني
كيف أبدل ظني
وأنا منك.. وأنت على قلق مني
إني... إني في برزخ عشق
لا يجرفني التيارْ
* * *
عيناك هنا... والوصل "دمشق"
وزنبقتان رؤانا
والورد الجوري الحالم
يحمر على كل جدار
* * *
مشرعة أبواب "دمشق"
وراكضة نحوي
أعرف مجد الدنيا يهزأ بالأسوار
يحميني سر محبتها
بالشعر يسابقني
فأداهم أصداء السحر بعينيها
تحملني الأشعار
ويلاقيني "بردى"
يهمس لي:
خذ من نبعي كأسين
يهل شذى الياسمين
ويفتح إشراق الأبيض
فوق صدور صبايانا
شوقاً وحنين
فأقدس عشق النجمات
تهيم مع الليل الأيام
تدوّم تحت ظلال مآقيها
أمم عبرت
ظل الشوق العربي
على أهداب الحسن
يسطر بالحب قوافيها
من يعلم.. أن جمالاً دهرياً
يغويني... لا يغويها
وتدانيني فاتنة الكون
أصيح: هنيئاً لجميع العشاق إذا سكروا
حتى انسكبوا خمراً فيها
* * *
مولعةٌ كرة الأرض بفتنتها
ويجرحها الحساد
فيقتلهم سحر هواها
يطويهم في أفياء الألوان

كأن زواياها حضن المجد المتألق في
ماضيها
بشفاه أمسح خد الرغبة يزهو خاضرها
ويجيب التاريخ المتألق فوق سماء الحلم:
كتبت على وجنة عاشقتي
هذي الأرض لنا
وحنيني شامة شامٍ
أحضن في غوطتها وجعَ الأنهار
* * *

يا شام أنا غسان
وكم قلت: أريد حبيبي
طفت الدنيا.. كل الدنيا...
وأتيتك... قلت: الشام نصيبي
عانقت بك الأحلام
وظلت هذي "الغوطة"
كرماً لكؤوس المجد
فأنت الأولى في كون
يملأ صبح دروبي
يا "شام" هنا كان البدء
ومازال الحاضر
والآتي في كل مسار

. يا كون
لماذا شمسك حارقةٌ
والريح تنام على شطآنك
يعبر موجٌ رخوٌ
فيهدهد غانيةً تفرد جسداً
شاطئ لذات
يسجد قمرٌ
تعبر ريحٌ تتهجسه
. يا كون
لماذا تتركني أغفو مثلك
يأكلني حلمي
وأنا وحدي
أحمل حظي من دنياك
* * *

علمني دهري
كيف أقود خطاه
وأعطاني باسم الفقراء الأسرار
وهواي "دمشق"
فأغرقني في عينيها
كي أستجلي في غرقي
جزر الأنوار.

❑❑

على أبواب دمشق

محمد عبد الحدو

هذي دمشق فمرحباً بالشام وعلى تألقها الحبيبِ سلامي
هذي دمشقُ حبيبتي يا ليتني أغدو لديها طائر الأنغام
هذي دمشق أنا على أبوابها أحسست أني في ربيع مقامي
هذي دمشق ولم أزل في وصفها أختار من أحلى الكلام كلامي
هذي دمشق يلفها ورد زها قد صار حول الخصر خير حزام
يا مرحباً برياضها وحسانها ومسائها وصباحها البسام
يا مرحباً بالشام ما نطق الهوى عندي وما قد طاب في إقدامي
ألفيتها حسناء تسكب خمرها فشربت في اللقيا كؤوس مدامي
ظلي احضنيني يا دمشق لأنني أهواكِ والحب الكبير تسامي
ظلي احضنيني إن قلبي عاشق ليلاه أنت وأنت كل غرامي
ما أعذب الدنيا علي وأنت في هذا الأنام تجددين وئامي
لو قيل لي من أنتِ؟ قلت أمية بستانه من عهد سيف هشامِ
لكنك الدنيا وأقدم ما بها ما قد سما في سالف الأيام
سارت خطاك على دروب المجد مذ كنت الصباح الحر في الأقوام
مازلت يا فيحاء إشراق الضحى مازلت غيثاً للفؤاد الظامي
لا ترحمي المتشدقين وحاصري يوم الرهان قوافل الأقزام

فإذا صفحت فأنت لون حمامةٍ وإذا غضبت فأنت لون حِمامِ
إني أحبك يا دمشقُ وأمتي تحيا على أهوال جرح دامي
وطني تناثر في التراب وقد غدا أوصال جسم ناحلٍ مترامي
في كل يوم صفعة من غاشم سفك الدماء بسيفهِ الهدام
في كل يوم ألف طفل ميّتٍ قد صار في الأنقاض بعض حطامِ
لم كل ألوان الصراع؟ لم الأذى؟ لم أشعل الطاغوت نار خصامي
لم هذه الثكلى تنوح حزينة؟ والبعض قالوا يا أخية نامي
لم يرقص العملاءُ في صالاتهم؟ ورصاصةُ الباغينَ تحتَ عظامي
لم ترتدي بغدادُ ثوبَ حدادها؟ لم لفّها بالأمس ليلُ ظلام
لم أرغمت في أن تصير دماؤها نهراً وحماماً على حِمام
لم حقد أمريكا يمارسُ فنهُ في القتل والتدمير والإيلام
ويل ومن هول الجريمة كم بكت أمٌ على طفلٍ بنار صِدامِ
حسبت بأن وليدها في حضنها قد غط في غفو وطول منام
لكنه قد مات قبل فطامهِ فلتبصر الدنيا مدى الإجرامِ
ليلى تنادي في العراق لأنها تحيا على جرح ونار سقام
ليلى تريد طبيبها وعلاجها تدعو لقهر الداء كل عصام
ليلى بكت لجراحها لكنها لم تفرح الطاغوتَ في استسلام
بكت العراقُ لكل جرحٍ نازفٍ ولكل دمعةٍ طفلةٍ وغلامِ
حتى النخيل بكى وأعلن أنه سيثور ضد الظلم والظلام
بغداد يا بغداد مزقني الندا فغدوت جرحاً ضاق بالأورام

بغدادُ أبصرُ في الخليج قوافلاً حمقاءَ قد مدت يدَ الآثامِ
وأمام أمريكا أرى ببصيرتي في الأرض قطعاناً من الأغنام
خسئ الزناة المارقون فإنهم سقطوا بلا خجل على الأقدام
بغداد يا بغدادُ لا لا تجزعي بين الأذى وتزاحم الأقلامِ
بغدادُ يا بغدادُ كل مناضلٍ لك في ربوع الشام خيرُ حسامِ
هذي هي الفيحاء تطلق صوتها في ساحِ حربٍ مُرَّةٍ وسلامِ
وتقول لي: لا لن أهاب مقامراً ما دام صوتي صوت كل همامِ
إني أحبك يا دمشق وخافقي مازال يرفض كل نسل حرام
إني أحبك لا تلوميني فلن أسطيعَ غوصاً في بحار منامي
ظلي الأميرة في بلادي وارفعي علماً بلا حزم من الأعلامِ
غنيت للتفاح قبل نضوجه للياسمين لرقة الأحلامِ
غنيت للفقراء للشرفاء للشهداء للأطفال بعد فطام
أودعت بين يديك قلبي فاسمعي ما فيه من بوح وشدو حمام
حزني وهمي يا دمشق قصيدة ملت نزيف حروفها أقلامي
للورد رائحة وللشهداء رائحةٌ ولي في الأفق لون غمام
وعلى دمي تتوكأ الكلمات هل يا شام فيك تفجرُ الإلهامِ
لا ترفضيني إن حملتُ توجعي ما لي سواك فبددي آلامي

❑❑

صونوا دمشق

د. كمال فوزي الشرابي

لولا دمشقُ لما كانتْ طُليطلةٌ
ولا زَهتْ ببني العباسِ بغدانُ
أحمد شوقي
أمير الشعراء

– 1 –

أستحلفُكمْ باسم الآباءِ
وباسم الأجدادْ،
استحلفكم، يا أحبابي،
باسمِ دمشقٍ،
أجملِ حسناءٍ في الدنيا،
أقدمِ عاصمةٍ في العالم،
أن ترعوا ما فيها
من إرْث عربي،
وتصونوا البيتَ الشاميَّ
لتبقوا على صلة
بالتاريخ وبالأمجادْ،
فدمشقٌ كانت
وستبقى أبداً
أغلى من كلِّ الماسِ
وكلِّ الذهبِ.

– 2 –

هذي الشامُ، حبيبتنا الكبرى،
منبعُ سحرْ،
جنةُ زهرْ،
منهلُ عطرْ،
فيضُ نهورٍ سبعهْ،
فيها ينظْمُ
أعذبُ طيرٍ سَجْعَهْ.
هي في أيدينا
أثمنُ رمزْ،

رايةُ عزٍّ،
فلنحضِنْها بعواطفنا،
بمواضينا،
كيما تبقى
أبداً موئلَ فَخْرْ.

– 3 –

ما من جُرحٍ لا تشفيهِ
كفُّ دمشقْ،
ما من مجدٍ لا تُذكيه
نارُ دمشقْ،
وستبقى أبداً
أعلى صَرْحْ،
وبقلبِ عدوِّ الأمةِ
أنفذَ رمحْ.

– 4 –

آهٍ آهٍ
يا أجمل امرأةٍ
في العالم، يا شامي!
خلِّيني أركعْ بين يديكِ
وأشرحْ تهيامي،
فأنا فيكِ ولدتُ،
وفيكِ نشأتُ،
وفيكِ درستُ،
وفيك تنامي أولُ وردٍ
في روضِ غرامي
وأنا منكِ وفيكِ ترابي،
وأنا منكِ وفيكِ عذابي.
شرفٌ أكبرُ لي
أَنْ أُدفنَ فيكِ
لأعودَ
وأحيا في نيسانِ
مَعْ زهرِ الغوطةِ
أو حَوْرِ الربوةِ
أو صفصافِ حواكيرِ
الثمرِ الناهي[16]
في كيوانِ.

– 5 –

أُوصيكم خيراً، يا أحبابي،
يا أهلَ دمشقَ،
ببيتِ نزارْ![17]
حيث تفتَّحَ
أجملُ زهرٍ للحب،

(16) الناهي: الشبعان والريان.
(17) بيت نزال: بيت الشاعر الكبير نزار قباني.

وحيث تسامتْ
أحلى الأشعارْ
ليحجَّ إليه الناسُ
ويصبحْ قِبلَةَ نورٍ
لمحبِّيه وللأحرارْ،
فنزارٌ كان صديقَ دمشقٍ،
وصديقي،
وسيبقى أبداً
للشعر منارْ.

- 6 -

أستحلفكم باسم
السَبْعِ الباسلِ يوسفَ[18]،
باسم المنتصرِ الفذِّ
صلاحِ الدينِ الطاهرْ[19]،
باسم الفهدِ الملكِ الناصرْ[20]،
لتكن شامُ النصر
كما كانت دوماً
شامَ النصرْ،
لتكن فجراً للعدل وللنُعمى.
ولتمتدَّ حضارتها
من أقصى الشرقِ لأقصى الغربِ
وترسمْ للعالمِ
- في تيه العالمِ
وتردِّي ما فيهِ
من قيمٍ عليا .
درباً أسمى!

❑❑

---

(18) السبع الباسل يوسف: البطل يوسف العظمة.

(19) صلاح الدين الطاهر: صلاح الدين الأيوبي الطاهر اليد الذي لم يجدوا في حوزته لدى انتقال روحه السنية إلى الملأ الأعلى سوى دينار وسبعة وأربعين درهماً.

(20) الفهد الملك الناصر: الذي خلَّص بلادنا من أواخر فلول الصليبيين والمغول.

* هذه القصيدة موجهة إلى جميع أهالي دمشق وبخاصة إلى السادة المسؤولين والسيد محافظ مدينة دمشق وإلى جمعية أصدقاء دمشق.

ربيع الشام

حسن جعفر نور الدين

ألقيت في مهرجان ربيع الشام الشعري نهار الأربعاء 2008/5/21

ربيعَ الشام يا شامَ الربيعِ وجنةَ ياسمين في الضلوع
نؤمكِ زائرين بلا قلوبٍ فقد أخلبتِ ألبابَ الجميعِ
فمنهم من أمتِّ اليوم غيظاً ومن أسكتِّ من صوتٍ خنوع
تمنوا أن تذوقي المرَّ لكنْ صمودُكِ صخرةُ السدِ المنيعِ
فأنتِ دمشقُ حضنٌ يعربيٌ يضمُّ بدفئهِ كلَّ الجموعِ
وتاجُ مكارمٍ في كفِ ليثٍ هو البشّار من بشرِ الطلوعِ
فيا شامَ العروبةِ والتفاني أننسى همسةَ القلبِ الوديعِ
حضنتِ جموعنا يومَ انتقلنا إليكِ نخبٌ في ثوب نقيع
فكنتِ الأم في أنقى ابتهال وكنتِ الأبَ في الرأي السطوع
وكنتِ الجودَ يقطرُ منكِ شهداً ويهمي من تجليكِ النصيع
وكنتِ الأهلَ والأخوانَ رهطاً وترباً لان من فرح الدموع
وهاقد جئتُ أرضك يا دمشقٌ ألمُّ إلى الفروعِ من الجذوع
وأنقلُ من حمى لبنان وجداً وشوقَ الروح للروح الولوع

فهاكِ سلامُ بنتُ جبيلَ صرفاً وعيتا حنطةُ النصرِ البديع
وقانا في دماها مَيْسلونٌ فسلْها عن دمِ السلفِ المذيع
فنحن وشامُ قلبا عنفوانٍ وجذعا نخلةِ الشرفِ الرضيع
حضنا في مواجعه عراقا جفان الخير والعز المنيع
وذدنا عن ثرى القدس المفدى غبار ترابه قدر الجميع
فأي رسالةٍ يا شامُ تحكي وأنتِ رسالة المجد المنيع
حلفتُ بأمتي ما غيرُ طيبٍ سواك يُشم من أغلى الزروع
يعادل ما بأرضي من شميم جنوبي أعزّ من الدموع
لذا لن يفلح الطاغون يوماً ولن تتشقّ ملحمة الشموع
ولن يقوى على التفريق قوم تجرَّع بعضهم ذل الركوع
سنبقى هاتفين إذا صُدعنا وتسمع شامنا همس القلوع
ذراعاها شراع من طيوبٍ وعيناها مدى الوطن الوسيع
وكيف تصمّ عن صوت شقيق وكيف تغضّ عن طرف مروع
وبين ربوعها أهلٌ وصحب كرام النبت من حسن الصنيعِ
لنا في الشام ما للشام فيهم صدى ودّ يعرشُ في الضلوع
رووا في التضحيات متون عز ستذكرها البطولة في خشوع
فيا أرض الوفا ما كنتِ يوماً سوى طبٍ على الجرح المريعِ
عهدناك السمو بلا انطواء ورزنا حكمة الأسد الطليع

به تبقين صخرة عنفوانٍ وطوداً في الذرى ثبت الجذوع
وصبراً قلَّ أن يرقى مثيل له في كل معترك فظيع
تريدين العروبة عقد ماسٍ يلف بنوره شتى الربوع
وأرضاً وحَّدَ الرحمن فيها لسان الضاد حصناً للجميع
فلا يشقيك.. ما رسموا وسنوا هباء القول أو هذر الخليع
ومهما يضمر الباغون شراً فلن يقصوا ضلوعاً عن ضلوع
غمامةُ حقدهم ولدت هشيماً وحقل شرورهم ملهى الشنيع
وما همُّ الأسود نعيق بوم ولا يزري الوضيعُ شبا الرفيع
رباعَ الشعر منك قطفتُ زادي ومن عطر المزاهر والشموع
فمن أين ارتشفتِ الخمرَ قولي فقد أسكرتني قبل الرجوع
أمن قاسيون أم بردى رضعنا ومن أدواح فستقك البديع
أمن شوح المغاور في جنوبي وغاب الحور في الجبل الرفيع
وجدتُ محابرَ الإلهام طراً على قدميكِ في ثوبٍ خشوعِ
تروي مهجةَ الظمآن حباً وما تشكين من شحٍ ذريع
لأنك جنةُ الدنيا ونُعمى ربيعَ الشام يا شامَ الربيع

❑❑

❑❑

دمشق يا حبيبتي

د. مازن لبابيدي

خفقات قلبي داعبت ذكراك وتنشقت روحي نسيم شذاكِ
صور وأطياف تمر بخاطري تتتابني وتطوف في أفلاكي
رقّت لها نفسي وفاضت عبرتي وغدوت مرتحلاً بغير حراك
يا نورَ عيني هل أصيب من الهوى في العاشقين كمن رمت عيناك
بين المآقي واللحاظ مفازة أيقنت فيها منيتي وهلاكي
لمع السراب بها وظلّل جفنها درّاً يخال بعالم الإدراك
حتى تبدّى نورها عن واحة فيروزَها لونُ السماء يحاكي
خلبت شغاف القلب في أهدابها كالطير يخفق داخل الأشراك
فأذقته شهد الوصال على الظما ومنعته لمّا استطاب هواك
رفقاً بذا القلب الرهيف فما درى من قبل ما طعم الهوى لولاك
لا تحرميه وقد أصبت بمقتل من بلسم رقراق من بَرَداكِ

أو زهرة من غوطة أو نسمة ... أو قبلة تحنو بها شفتاك

فلعل وصلك يفتديه من الجوى ... أو ترتوي عيناه من مرآك

أدمشقُ.. أنتِ قصيدة الحب التي ... كل البحور تفيض من معناك

يا جنة الدنيا وتاج جمالها ... أدنيت من كل القطوف جناك

آتيك يا أحلى البلاد مثقّلاً ... من غربتي بالهم والإنهاك

فأرى ربوعك للعليل مثابة ... يأوي لها كالماء للأسماك

حصن العروبة والكرامة والإبا ... صرح العلوم منارة النساك

كم شيدت مدن وغابت شمسها ... وعفت ودام على الزمان صباك

ناءت بأسباب النهوض ممالك ... وفرشت بالمجد التليد رباك

ابقي دمشق على الدوام عزيزة ... فمجرة فوق النجوم مداك

يا قصتي وقصيدتي وحبيبتي ... بل جنتي سبحان من سواك

❑❑